بَصَائِرُ قُرْآنِيَةَ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع: ١٩٨٩٠ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٢- ٥٥-٦٦١٨-٩٧٧-٩٧٨

الناشر

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

بَصَائِرُ قُرْآنِيَة

تأليف

الفقير إلى عفو ربه العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عفا الله عنه

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلىٰ صاحبة القلب الكبير، إلىٰ النبض الذي أعيش به، إلىٰ من ساندتني وشدَّت من أزري، إلىٰ التي تحملت معي صعاب الحياة، إلىٰ التي واستني في مرضي، إلىٰ من عوَّضني الله بها أهلي في غربتي، إلىٰ زوجتي الغالية الكريمة **(أم نور)**

جمعني الله بها في الجنة كما جمعني بها في الدنيا

وأقول لها:

هــذه الــدنيا متــاعٌ ... خيرُهــا الــزوجُ الوفيّــةْ
مَــنْ إذا ناديــتُ لبّــتْ ... تســرعُ الخطــوَ رضــيّةْ
أســعدَتْني بــالتزامٍ ... فيــه إخــلاصٌ ونيّــةْ
فيــا زوجتــي هــذا كتــابٌ ... فيــه أفكــار ســنيّةْ
صُــغتُه لله قُربــىٰ ... أبتغــي الــدار العليّــةْ
وهْــوَ إهــداءٌ إليــكِ ... فــاقبلي منــي الهديّــة

৩◊৫

المقدمة

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصَرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كَمَا شَاءَ عِزًّا وَسُلْطَانًا، وَاخْتَارَ الْمُتَّقِينَ فَوَهَبَ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِ أَمْنًا وَإِيمَانًا، عَمَّ الْمُذْنِبِينَ بِرَحْمَتِهِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرْزَاقَ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ جُودًا وَامْتِنَانًا، وَأَعَادَ شُؤْمَ الْحَسَدِ عَلَىٰ الْحَاسِدِ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ عُدْوَانًا.

رَوَّحَ أَهْلَ الإِخْلاصِ بِنَسِيمِ قُرْبِهِ، وَحَذَّرَ يَوْمَ الْقِصَاصِ بِجَسِيمِ كَرْبِهِ، وَأَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ بِهِ إِذْ كَتَبَ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَدَعَا الْمُذْنِبَ إِلَىٰ تَوْبَةٍ لِغُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأُقِرُّ بِتَوْحِيدِهِ إِقْرَارَ مُخْلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَأُصَلِّي عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، أما بعد:

فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ أن يعيش الإنسان في صحبة كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، كما أن الشرف كل الشرف أن يعيش المرءُ خادمًا لكتاب ربِّه، ولا يخفىٰ أن القرآن هو المنهاج الذي ارتضاه الله للناس، وبيَّن الله سبحانه وتعالىٰ أن القرآن نور قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء:١٧٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

* ووضَّح ربُّنا أن القرآن هدىٰ وشفاء قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

* ولقد أمرنا ربُّنا بتدبر القرآن الكريم فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

✍ **ومن هنا أقول:** وأنا أتدبر القرآن الكريم كما أمرني ربي وخالقي سبحانه وتعالىٰ، استوقفتني هذه الآية الكريمة في سورة الأنعام ﴿ قَدْ جَآءَكُم

بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ ﴾ [الأنعام:١٠٤] وخصوصًا قوله تعالىٰ: ﴿ بَصَآئِرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وتتبعت الكلمة في كتاب الله تعالىٰ فوجدتها تكررت في عدّة آيات قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ ﴾ [الأعراف:٢٠٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣ ﴾ [القصص:٤٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠ ﴾ [الجاثية:٢٠].

– فأخذ بقلبي كيف أن القرآن بصائر ربانية هادية موجهة للناس جميعًا، ولكن هذه البصائر لا تدركها إلّا القلوب الحية، حيث تعيها وتتفاعل معها وترشد بها، وتهتدي علىٰ أساسها.

إن الأجسام لها العيون التي تبصر بها، وإن القلوب لها البصائر التي تهتدي بها، فالأبصار للأجساد والبصائر للقلوب، وإذا ما تعطلت أبصار الأبدان فقد يعيش الإنسان بدونها، ولكن إذا تعطلت بصائر القلوب فإنها تموت، ولا يبقىٰ فيها نفع أو خير، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن

﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وهذه البصائر القرآنية الهادية، تستقبلها القلوب المؤمنة، وتفتح لها منافذها وأصداءها، فتزداد إيمانًا وهدىً واستقامة ويقينًا، بينما القلوب القاسية الكافرة الغليظة توصد منافذها أمام هذه البصائر، وتحكم إقفالها دونها، وتبالغ في وضع الأقفال عليها، وأنىٰ لها أن تهتدي بها، إنها تزيد هذه القلوب الكافرة كفرًا ورجسًا وظلامًا وعمىً قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

- ومن هنا انطلقت مستعينًا بربي أجمع بصائر قرآنية، وأرجو ربي سبحانه وتعالىٰ أن تكون نافعة موجِّهة.

✍ **وأقول**: إنني جعلت لنفسي منهجًا في اختيار البصائر وكتابتها، وهو أنني أجعل البصيرة التي أتناولها تعالج أحد هذه الأمور.

١- أن تكون البصيرة في بيان أمرين متضادين مثل الخير والشر، أو الهداية والضلالة، أو........، وأبين المراد الذي أهدف له من وراء البصيرة، وأبين بفضل الله كيف يتعامل الإنسان مع هذين الأمرين.

٢- أو أن تكون البصيرة في بيان أمر بعينه أو قضية بعينها يحتاج المسلم فهمها، وهذا له عدَّة صور:

فيمكن أن تكون البصيرة عن شيء عقدي إيماني، أو تكون البصيرة حول

شيء قلبي، أو فكري، أو دعوي، أو..........إلخ.

٣- كذلك تسلسل البصائر له هدف، فأحيانًا يكون هناك قصد في الترتيب، فمثلًا تكلمت في بصيرة عن خطر العُجب، ثم أتبعتها ببصيرة حول ضعف الإنسان، والحكمة من هذا الترتيب، أن يعرف الإنسان حقيقة ضعفه، فلا يعجب بنفسه، وهذا كثيرًا ما سيتكرر في تسلسل البصائر. فالْحَظْهُ، وانتبه له! رزقنا الله وإياك الفهم.

عملي في هذا الكتاب:

انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١- جعلت كلَّ بصيرة تحت آية من كتاب الله تعالىٰ أو أكثر من آية [(١)]، وأصوغ بفضل الله تعالىٰ وتوفيقه موضوعًا مترابطًا حول هذه البصيرة.

٢- عزوت الآيات إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٣- قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو...... وهذا في الأعم الغالب.

٤- القصص والمواقف لها أثر في النفوس، ولهذا في بعض البصائر كنت

---

(١) مع التنبيه أنني أحيانًا أبدأ البصيرة بآية كريمة ثم أتكلم حولها، وأحيانًا لا تكون البداية بآية ولكن تأتي بعد ذلك الآية أو الآيات المرادة بالحديث في سياق البصيرة.

حريصًا علىٰ ذكر المواقف من حياة الرسول ﷺ، ثم من حياة الصحابة والتابعين، مع مراعاتي أن آتي بالمواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي علىٰ انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٥- كما ذكرت في بعض الأحيان من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم موضوع البصيرة التي تكون معنية بالشرح والتوضيح، مع حرصي علىٰ انتقاء ما كتبت من شِعْرٍ يساعد ويخدم الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالىٰ أن يرحم أمّي الغالية الحبيبة كما ربتني صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عني خير الجزاء، وأن يلهمها الصبر علىٰ فقدان ولدنا (صالح) رحمه الله تعالىٰ.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله

أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول إن هذا العملَ عملٌ بشري يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأُشهد الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

✍ ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندي إلا ما قاله الشاطبي:

أَخِي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ... يُنَادَىٰ عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ أَجْمِلا
وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ... بِالإِغْضَاءِ وَالْحُسْنَىٰ وَإِنْ كَانَ هَلْهَلا
وَسَلِّمْ لِإِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ... وَالْأُخْرَىٰ اجْتِهَادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلا
وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَأَدْرِكْهُ بِفَضْلَةٍ... مِنَ الحِلْمِ ولْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا (١)

فدائمًا الإنسان يثبت بشريته، ويأبىٰ الله إلا أن تكون العصمة لكتابه ولرسوله ﷺ.

✍ وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن

(١) الشاطبية الأبيات: (٧٥-٧٨)

الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجِ ... مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَجِ
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الورىٰ في الناس من فرِجِ
وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا ... فما علىٰ أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل الله تعالىٰ أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه:
الفقير إلى عفو ربّه العزيز
محمد هاشم عبد العزيز
يوم الخميس ٥ ذو الحجة ١٤٣٩هـ
الموافق -١٦ أغسطس ٢٠١٨م
٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

بصيرة في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾

إنني قبل الشروع في تجهيز وترتيب هذه البصائر، وقفت أفكر بماذا أبدأ؟ وعن ماذا أتحدث؟

ووجدت القلم يخجل قبل صاحبه أن تكون البداية، في شيء غير الحديث عن مالك الملك والملكوت، وكيف لا أتكلم عن الله وهو الملك الجبار، القدوس الودود.

فيا رب أشهد أنك ربي وربُّ كل شيء، فاطرُ السماوات والأرض، عالمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال، أقرُّ لك بالعبودية فاقبل إقراري تفضلًا وإحسانا، وأعترف بالعجز عن القيام بما وجب لك عندي فاقبلني بعجزي تكرمًا وامتنانًا، وأتم بجودك تقصيري، وأكمل بعفوك نقصي، واشدد بقوتك ضعفي، واسدد بحلمك خللي.

أحمدك علىٰ ما أوليتني به من الإحسان والإنعام، فلا أذكر منك إلا الجميل، ولم أر منك إلا التفضيل، ففضلك عليَّ متواتر، ونعمك عندي متصلة، وحالي ناطق بالتقصير، فاسترني بجميل سترك، واعف عني بواسع حلمك، فأسألك أن تحسن المنتهىٰ كما أحسنت المبتدئ، وأن تحسن القدوم عليك كما أحسنت القدوم منك، رب اغفر لي ولوالدي، وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس:٨٣].

- **ومن هنا البداية:**

لقد أمر الله عز وجل موسىٰ -عليه السلام- بالذهاب إلىٰ فرعون وتبليغه رسالة فحواها: أنه سبحانه هو ربه، ورب كل شيء ومليكه، وهو وحده المستحق للعبادة، وأنه يكره الظلم والطغيان، وأيد الله -جل ثناؤه- موسىٰ عليه السلام بآية عظيمة تدل علىٰ صدقه، وأنه مبعوث من رب العالمين.. هذه الآية هي تحويل عصاه التي يتكئ عليها إلىٰ حية عظيمة بإذن الله.

رأىٰ فرعون الآية الكبرىٰ لكنه لم يستسلم لله رب العالمين.. منعه الكبر، والخوف علىٰ مصالحه وامتيازاته التي توفرها له مكانته بين رعيته.

استشار بطانته في كيفية إبطال ما جاء به موسىٰ -عليه السلام- فطرأت له ولهم فكرة اتهامه بالسحر، وراقت لفرعون الفكرة، وانساق وراءها، فطلب ممن حوله إحضار جميع السحرة لمنازلة موسىٰ -عليه السلام- وإبطال سحره ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء:٣٤ - ٣٧].

يأتي السحرة، ويجتمعون في مكان فسيح، وتخرج جموع الناس لمشاهدة هذا الأمر المثير، ويأتي موسىٰ عليه السلام ويطلب منهم أن يُظهروا ما عندهم من

فنون السحر...

يُلقي السحرة عصيهم وحبالهم، فإذا بها تبدو للناس وكأنها تتحرك ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١١٦].

فماذا فعل موسىٰ- عليه السلام- تجاه ما رآه وهو يعلم أن العصا التي معه يمكنها أن تتحول إلىٰ حية عظيمة- بإذن الله- فتحطم سحرهم؟!

هل استهزأ بما فعلوه وقال لهم: سترون الفارق بين عصاي وعصيكم، وستعلمون من الأقوىٰ، فالحية التي سترونها لا مثيل لها؟!

لا، لم يقل لهم هذا، بل قال لهم: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس:٨١].

لقد قفز بهذه الجملة عبر كل الحواجز والمألوفات الأرضية، ووضعهم أمام الحقيقة الكبرىٰ التي تقوم علىٰ أساسها السماء والأرض وما فيهن، فلن يُبطل السحر عصا أو حية، بل سيبطله الله عز وجل..

نعم، هناك عصا ستتحول إلىٰ حية بإذن الله، هذه الحية ستلتهم جميع الحيَّات المزيفة، ولكن كل هذا لن يتم إلا بأمر الله، وإمداداته المتوالية.(١)

الفاعلية المطلقة في هذا الكون لله عز وجل:

فجوهر الأمر أن الله عز وجل هو الفاعل، وله وحده الفاعلية المطلقة في هذا

(١) عودة الروح ويقظة الإيمان (ص: ٣).بتصرف يسير.

الكون وأنه –سبحانه – هو الذي سيُبطل السحر، وما الحية وما العصا إلا صور وأشكال لا قيمة لها بدون المدد الإلهي المتواصل.

كما أنه سبحانه هو الذي يحملنا في البر والبحر والجو، وما السيارة، وما الطائرة، وما أرجلنا إلا أسباب شكلية لا قيمة لها بدون المدد الإلهي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس:٢٢].

تأمل معي قوله تعالىٰ في بيان هذه الحقيقة في قصة نجاة نوح –عليه السلام– من الغرق بعد ركوبه السفينة التي مكث طويلًا في بنائها: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر:١٣].

نعم هذه هي الحقيقة، فالذي حمل نوحًا– عليه السلام– هو الله، وما السفينة إلا ألواح خشبية ومسامير لا قيمة لها بدون المدد الإلهي ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يس:٤١].

فإن كانت الحياة قائمة علىٰ قانون السببية، إلا أن الحقيقة التي لا مرية فيها هي أن الله عز وجل هو الذي يحرك كل شيء في هذا الكون، وهو الذي يُنشئ النتائج من خلال الأسباب، أو بدونها ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة:٥٢].

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٤٧].

لله الأمر جميعًا:

نعم فالله ﷻ هو وحده الذي يملك هذا الكون كله قال تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة:١٢٠].

فكل ما تراه أمامك، وكل ما يوجد خلفك، وعن يمينك وشمالك فهو ملك ذاتي لله جل ثناؤه ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٩١]، ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم:٦٤].

ومع مُلكه لكل شيء فهو سبحانه المتصرف والمدبر لشئون جميع خلقه - صغيرها وكبيرها- وهو القائم علىٰ تربية جميع مخلوقاته بالإمداد والرعاية فهو: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤].

لا ينسىٰ أحدًا من خلقه - حاشاه قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم:٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه:٥٢].

- وكيف ينسىٰ أحدًا من خلقه ووجوده، ووجود جميع المخلوقات مرتبط به سبحانه، فإما الإمداد الإلهي المستمر للجميع وإلا فلا حياة ولا وجود قال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۝١٩﴾ [الملك:١٩].

فكافة أمور الخلائق وما يستلزمها من مقومات الحياة والحركة

والسكون، وما يتعلق بوجودها من علاقات متشابكة بين أنواعها المختلفة أو بين النوع الواحد.. كلها بيده سبحانه، هو الذي يدبرها ويتولىٰ أمرها قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٤٠].

كل شيء في هذا الكون قائم به، يستمد احتياجاته منه سبحانه، فجميع إمدادات الخلائق في خزائنه وحده لا شريك له قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون:٧].

- الإمداد بالنوم والاستيقاظ..
- الشعور بالراحة أو التعب..
- القيام أو القعود أو الجلوس..
- الضحك أو البكاء..
- الكلام أو الإنصات..
- الشهيق أو الزفير..
- الهضم أو الامتصاص أو التمثيل الغذائي..

كل هذا وغيره يستمد وجوده وفاعليته من خزائن الله، ولا يوجد أي مصدر آخر في هذا الكون يقوم بذلك قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١].

عنده خزائن كل شيء:

عندما طلب الله ﷻ من الملائكة أن تخبره بأسماء الموجودات على ظهر الأرض كانت فحوى إجابتهم: كيف نخبرك بشيء لم تُعلِّمنا إياه كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:٣٢].

فالعلم لا يستمد إلا من خزائنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف:٦٨].

وأي فهم، أو حكمة، أو حجة تأتي على لسان أحد فمن عنده سبحانه قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام:٨٣]، وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦٩].

- وعندما أنزل الله ﷻ الملائكة تقاتل مع المؤمنين في بدر، وأنزل كذلك النعاس والمطر، ذكَّرهم بأن هذه الأشياء لا تُحدث نصرًا بذاتها.. لماذا؟

لأن النصر لابد وأن يأتي من عنده سبحانه قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠].

الدنيا كلها ظلمة، وأي نور فيها فهو مستمد من الله ﷻ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا

﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور:٤٠].

- والرحمة التي نرىٰ مظاهرها الكثيرة في الحياة.. كلها مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

* قال ﷺ: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّىٰ تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(١).

حتىٰ الرحمة التي كانت في قلب رسول الله ﷺ فهي مستمدة من خزائن الرحمة الإلهية قال تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

- وأي جود، وأي كرم تراه في أحد فهو مستمد من خزائن الجود والكرم الإلهي.. جاء في الأثر: «**أَنَا الْجَوَادُ وَمِنِّي الْجُودُ أَنَا الْكَرِيمُ، وَمِنِّي الْكَرْمُ**»(٢).

- وكل آثار لقوة تراها في الحياة فهي مستمدة من خزائن الله قال تعالىٰ: ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [الكهف:٣٩].

وعندما قالت عاد: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت:١٥] كان الرد الإلهي: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ ﴾ [فصلت:١٥].

---

(١) صحيح مسلم: (٢٧٥٢).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٨/ ٩٣)، وأورده ابن رجب في لطائف المعارف ص ١٨٣.

- والشعور بالسكينة، والسلام مستمد من خزائنه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح:١٨]، «**اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ**».(١)

- والصبر من خزائنه: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل:١٢٧].

- والثبات من عنده: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم:٢٧]، ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء:٧٤].

- والشفاء من عنده: «....**لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ**».(٢)

- والتقوىٰ من عنده: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد:١٧].

- والتوبة في خزائنه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ [التوبة:١١٨].

- والتوفيق من عنده: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨].

- والتيسير كذلك: «**اللَّهُمَّ لا سَهْلَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهُ سَهْلًا**».(٣)

- والعزة كلها من عنده قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء:١٣٩]، وقال

---

(١) صحيح مسلم: (٥٩١).

(٢) صحيح البخاري: (٥٦٧٥)، صحيح مسلم: (٢١٩١).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٤٢٧) وصححه عبد القادر الأرناؤوط في تخريج الأذكار للنووي.

تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الصافات:١٨٠].

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، سبحانه، لا رب غيره، ولا إله سواه قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن نعتقدها ونوقن بها، ونشهدها، ونشهد بها قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

كل شيء بأمره وإمداده:

هذه- إذن- حقيقة الحياة، فكل ما يوجد في جسدك من إمكانات وقدرات، لا قيمة لها لو تخلىٰ الله عنها ولم يمدها بفاعليتها لحظة بلحظة، وآنًا بآن، فالأحبال الصوتية التي خلقها الله ﷻ كسبب للنطق، لا يمكنها أن تتحرك حركة واحدة إلا إذا جاءها المدد من الخزائن الإلهية ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر:٢١]، وانقباض العضلات وانبساطها والحركة والعدو والرمي يتم بإمداده ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧].

حتىٰ الضحك والبكاء ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم:٤٣].

فما من حركة في هذا الكون إلا والله من ورائها ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ

تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥].

ولا مثقال ذرة:

يقينًا لا توجد مثقال ذرة في هذا الكون يمكن لها أن تتحرك بذاتها دون إمداد من الله.. انظر مثلًا إلىٰ النبات واقرأ هذه الآية التي تؤكد علىٰ أن الله تعالىٰ قائم عليه في كل مرحلة من مراحل نموه يبث فيه الفاعلية وينقله من طور إلىٰ طور قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وتأمل في الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان وكيفية انتقاله من مرحلة إلىٰ مرحلة ليزداد يقينك بهذه الحقيقة قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

نعم هذه هي حقيقة الوجود قال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٤].

يدبر الأمور كلها:

الله ﷻ هو وحده الذي يدير هذا الكون ويتابعه.. يقدم ويؤخر.. يخفض ويرفع.. يقبض ويبسط.. يحيي ويميت.

لم يفلت منه سبحانه زمام الكون لحظة واحدة- حاشاه قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥].

أَزِمَّة الأمور كلها بيده قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢- ٦٣].

فترتيب الأمور والأحداث، والعلاقات المتشابكة بين الأشخاص، ومقدار أرزاقهم المادية والمعنوية.. كل ذلك وغيره يتولىٰ الله ﷻ تدبيره وترتيبه بما يناسب مصالح عباده قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:١٢].

✍ **فعلىٰ سبيل المثال:**

هناك (مبلغ) من المال سيتقاضاه رجل (ما) نظير عمله بالتدريس في مدرسة من المدارس.

هذا المال الذي قدَّره له الله لن يبقىٰ كله معه، بل سيتوزع أغلبه علىٰ العديد من الأشخاص قد يبلغون المائة؛ ما بين سائق، أو صاحب مطعم، أو بائع للصحف، أو صاحب مغسلة، أو مسكين، أو بائع أدوات منزلية، أو طبيب، أو صاحب صيدلية، أو...، وكل واحد من هؤلاء له في علم الله

نصيب محدد من هذا الراتب، وسيأخذه في وقت محدد لا يعلمه إلا الله.

هـذه الترتيبـات المرتبطـة بالزمـان والمكـان.. الـذي يـديرها ويحـرك الأحداث في اتجاه وقوعها في الزمان والمكان المقدر هو الله وحده لا شريك له.

هو الذي يوجه تفكير صاحب الراتب في وقت (ما) إلىٰ الذهاب لمتجر (ما) لشراء شيء يُذكره به، ليقوم بتوصيل الرزق (المقدَّر) لصاحب المتجر في ذلك الوقت، ويشعر في وقت آخر بصداع وهو يسير في الطريق فيجد بالقرب منه صيدلية، فيدخلها ويشتري منها دواء ليقوم بتوصيل الرزق المقدر لصاحب الصيدلية في هذا الوقت.

يقف في الطريق العام ينتظر وسيلة مواصلات تنقله لمدرسته، وكلما مرت به مركبة لا يجد في نفسه رغبة لركوبها لأسباب مختلفة، حتىٰ تأتي مركبة محددة -منذ الأزل- فيركب فيها ليتم تحصيل الأجرة منه، لتكون جزءًا مقَّدرًا من رزق صاحب المركبة عليه أن يُحّصله في ذلك الوقت.

وهكذا يتم توزيع الراتب علىٰ هؤلاء المائة - إن افترضنا أنهم مائة فقط - ووراء هؤلاء عشرات بل مئات يتولىٰ الله ﷻ توزيع أرزاقهم، ويوجههم لجمعها من أفراد محددين ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ [الزخرف:٣٢].

وليس الرزق فقط الذي يتولىٰ سبحانه تقديره بين الناس؛ بل كل ما يتعلق بتسيير حياتهم.. يكفيك أن تتذكر أن الله ﷻ يقبض جميع أرواح العباد عند النوم، ويعيدها لهم عند اليقظة، ولم يحدث - ولو مرة واحدة- أن حلَّت

روح شخص في شخص آخر، وكيف يحدث هذا والله هو الذي يتولىٰ هذا الأمر كما يتولىٰ جميع الأمور ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر:٤٢].

هذا هو ربك الحي القيوم:

يروي أحد الناس أن أحد معارفه قابله وأعطاه مظروفًا به مبلغ من المال، وطلب منه أن ينفقه في أوجه الخير، ووضع صاحبنا المظروف في جيبه ثم افترقا، وبعد لحظات قابله صديق آخر بتلهف شديد، واشتكىٰ له من ضائقة مالية شديدة ألمت به، وأخبره بأنه يريد علىٰ وجه السرعة قدرًا (محددًا) من المال حتىٰ يتجاوز الضائقة، فتذكر صاحبنا المظروف الذي في جيبه، فأعطاه إياه وطلب منه أن يُحصي ما فيه، وإذا بالاثنين يفاجآن!! فلقد كان المظروف يحتوي علىٰ المبلغ المطلوب دون زيادة أو نقصان ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة:٩٧].

- وآخر يحكي بأنه صعد يومًا الحافلة وكانت مزدحمة، فلم يجد مكانا للجلوس، وكان يحمل علىٰ كتفه ابنته الصغيرة، وبينما المركبة تسير في طريقها، شرد ذهنه في الماضي، وتذكر خطأً جسيما ارتكبه في حق أحد الأشخاص منذ سنوات بعيدة، ولا يعرف كيف يصل إليه ليستسمحه، وتذكر يوم القيامة، والحساب والقصاص، فتأثر تأثرًا شديدًا، ودمعت عيناه، وبينما هو في هذه الحالة إذ بيد تمتد إليه من أحد الركاب الجالسين فتأخذ منه طفلته ليُجلسها بجواره، فالتفت لصاحب اليد ليفاجأ بأنه هو ذات الشخص الذي

كان يتذكره منذ لحظات ولا يدري كيف يصل إليه، فانتابته لحظة ذهول ثم أقبل عليه يستسمحه ويسترضيه.

- وآخر يروي أنه كان في يوم من الأيام نائمًا علىٰ أريكة، وفوق هذه الأريكة لوحة ضخمة معلقة علىٰ الحائط، وفي أثناء نومه انتبه وقام-تلقائيا- لينام علىٰ الأريكة المقابلة، ثم غط في نوم عميق، وبعد دقائق استيقظ علىٰ صوت ارتطام شديد بالأرض، فنظر أمامه والفزع يتملكه، وإذا باللوحة الضخمة قد سقطت علىٰ الأريكة التي كان نائمًا عليها ثم علىٰ الأرض ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ١٢﴾ [الطلاق:١٢].

- والأمثلة كثيرة، وكلها تؤكد وتبرهن علىٰ أن لهذا الكون كله ربًا واحدًا، يديره، ويتابعه ويتعاهده، ويمده بما يقيمه ويصلحه... لا يغفل عنه لحظة واحدة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد:٢]. (١)

---

(١) عودة الروح ويقظة الإيمان (ص: ٧).بتصرف.

بصيرة في الإيمان والكفر

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٥]

إن الإيمان مثله مثل الشجرة المثمرة التي لا ينقطع ثمرها، فهي تؤتي أكلها كل حين في صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، والمؤمن كذلك لا يزال يرفع له عمل صالح. في كل وقت وحين.

تناول الإيمان لجميع فروع الدين:

* إن رسول الله ﷺ أطلق لفظ الإيمان علىٰ جميع فروع الدين فقال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**».(١)، وفي لفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».(٢)

يقول العلامة ابن حجر: لَمْ يَتَّفِقْ مَنْ عَدَّ الشُّعَبَ عَلَىٰ نَمَطٍ وَاحِدٍ

(١) صحيح البخاري: (٩).
(٢) صحيح مسلم: (٣٥).

وَأَقْرَبُهَا إِلَىٰ الصَّوَابِ طَرِيقَة بن حِبَّانَ لَكِنْ لَمْ نَقِفْ عَلَىٰ بَيَانِهَا مِنْ كَلَامِهِ، وَقَدْ لَخَّصْتُ مِمَّا أَوْرَدُوهُ مَا أَذْكُرُهُ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الشُّعَبَ تَتَفَرَّعُ عَنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَأَعْمَالِ اللِّسَانِ وَأَعْمَالِ الْبَدَنِ.

– فَأَعْمَالُ الْقَلْبِ فِيهِ الْمُعْتَقَدَاتُ وَالنِّيَّاتُ، وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَصْلَةً الْإِيمَانِ بِاللهِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَاعْتِقَادُ حُدُوثِ مَا دُونَهُ وَالْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْمَسْأَلَةُ فِي الْقَبْرِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ وَالصِّرَاطِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَحَبَّةِ اللهِ وَالْحُبِّ وَالْبُغْضِ فِيهِ وَمَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَاعْتِقَادِ تَعْظِيمِهِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ وَاتِّبَاعُ سُنَّتِهِ وَالْإِخْلَاصُ وَيَدْخُلُ فِيهِ تَرْكُ الرِّيَاءِ وَالنِّفَاقِ وَالتَّوْبَةُ وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالشُّكْرُ وَالْوَفَاءُ وَالصَّبْرُ وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالتَّوَكُّلُ وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُعُ وَيَدْخُلُ فِيهِ تَوْقِيرُ الْكَبِيرِ وَرَحْمَةُ الصَّغِيرِ وَتَرْكُ الْكِبْرِ وَالْعُجْبِ وَتَرْكُ الْحَسَدِ وَتَرْكُ الْحِقْدِ وَتَرْكُ الْغَضَبِ.

– وَأَعْمَالُ اللِّسَانِ وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ سَبْعِ خِصَالٍ التَّلَفُّظِ بِالتَّوْحِيدِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَعَلُّمِ الْعِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الِاسْتِغْفَارُ وَاجْتِنَابُ اللَّغْوِ.

– وَأَعْمَالُ الْبَدَنِ وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ خُصْلَةٍ مِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِالْأَعْيَانِ وَهِيَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةٍ التَّطْهِيرُ حِسًّا وَحُكْمًا وَيَدْخُلُ فِيهِ اجْتِنَابُ النَّجَاسَاتِ وَسَتْرُ الْعَوْرَةِ وَالصَّلَاةُ فَرْضًا وَنَفْلًا وَالزَّكَاةُ كَذَلِكَ وَفَكُّ الرِّقَابِ وَالْجُودُ وَيَدْخُلُ فِيهِ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِكْرَامُ الضَّيْفِ وَالصِّيَامُ فَرْضًا وَنَفْلًا

وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ كَذَلِكَ وَالطَّوَافُ وَالِاعْتِكَافُ وَالْتِمَاسُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَالْفِرَارُ بِالدِّينِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْهِجْرَةُ مِنْ دَارِ الشِّرْكِ وَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ وَالتَّحَرِّي فِي الْإِيمَانِ وَأَدَاءُ الْكَفَّارَاتِ.

وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالِاتِّبَاعِ وَهِيَ سِتُّ خِصَالٍ التَّعَفُّفُ بِالنِّكَاحِ وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِ الْعِيَالِ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَفِيهِ اجْتِنَابُ الْعُقُوقِ وَتَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَطَاعَةُ السَّادَةِ أَوِ الرِّفْقُ بِالْعَبِيدِ.

– **وَمِنْهَا** مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَامَّةِ وَهِيَ سَبْعَ عَشْرَةَ خَصْلَةً الْقِيَامُ بِالْإِمْرَةِ مَعَ الْعَدْلِ وَمُتَابَعَةُ الْجَمَاعَةِ وَطَاعَةُ أُولِي الْأَمْرِ وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَدْخُلُ فِيهِ قِتَالُ الْخَوَارِجِ وَالْبُغَاةِ وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَىٰ الْبِرِّ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ وَالْجِهَادُ وَمِنْهُ الْمُرَابَطَةُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَمِنْهُ أَدَاءُ الْخُمُسِ وَالْقَرْضُ مَعَ وَفَائِهِ وَإِكْرَامُ الْجَارِ وَحُسْنُ الْمُعَامَلَةِ وَفِيهِ جَمْعُ الْمَالِ مِنْ حِلِّهِ وَإِنْفَاقُ الْمَالِ فِي حَقِّهِ وَمِنْهُ تَرْكُ التَّبْذِيرِ وَالْإِسْرَافِ وَرَدُّ السَّلَامِ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ وَكَفُّ الْأَذَىٰ عَنِ النَّاسِ وَاجْتِنَابُ اللَّهْوِ وَإِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ فَهَذِهِ تِسْعٌ وَسِتُّونَ خَصْلَةً وَيُمْكِنُ عَدُّهَا تِسْعًا وَسَبْعِينَ خَصْلَةً بِاعْتِبَارِ إِفْرَادِ مَا ضُمَّ بَعْضُهُ إِلَىٰ بَعْضٍ مِمَّا ذُكِرَ وَاللهُ أَعْلَمُ فَائِدَةٌ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ مِنَ الزِّيَادَةِ أَعْلَاهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ مَرَاتِبَهَا مُتَفَاوِتَةٌ.(١).

(١) فتح الباري لابن حجر: (١/ ٥٢/ ٥٣).

أثر الإيمان في الحياة:

والإيمان بهذا المعنىٰ، هو الذي أراده الإسلام، وهو الذي يهذب الحياة ويرقيها، ويصل بها إلىٰ المدنية الحقة، ويبلغها ما تنشده من الخير والتقدم وما تستهدفه من الحق والعدل.

وهو الإيمان الذي ينعم به الفرد، وتسعد به الجماعة وتحيا في ظله الحياة الطيبة قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

وفي ظلال العيشة الراضية، تتوافر عناصر الارتقاء المادي والروحي، ويجد الإنسان من عناية الله وولايته وكرامته ما يبلغه ذروة الكمال الذي أراده الله له.

- ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٧].
- ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج:٥٤].
- ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد:١٧].

- وهذا الإيمان هو الذي زكَّىٰ نفوس المؤمنين، وطهرها من الحسد والحقد، والكبر والعجب، والفسق والفحش، والظلم والجور، والقسوة والغلظة، والأثرة والأنانية، وهو الذي خلصهم من دَرَن التربية الفاسدة، وَوَضر البيئة الرديئة، وشر الوارثات السافلة.

وهو الذي أعلىٰ هممهم، فطلبوا معالي الأمور، ووطَّنوا أنفسهم علىٰ

إمامة البشر، وقيادة الأمم، وتحريرها من الخرافات، واستبداد الملوك، وتطهير الأرض من الكفر والفساد.

هذا الإيمان هو الذي مكَّن لهم من الفتح والظفر، والعلم والعمل وإقامة الحضارة التي شعَّ نورها، وعمَّ خيرها مشارق الأرض ومغاربها، في سنين تعدّ علىٰ الأصابع.

✍ **يقول الكاتب الفرنسي غوستاف لبون في كتابه (سر تطور الأمم):**

إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاث أجيال:

أولها: جيل التقليد.

ثانيها: جيل الخضرمة.

ثالثها: جيل الاستقلال والاختصاص.

إلا العرب وحدهم، فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدءوا فيه بمزاولتها.

✍ **وما أصدق ما قاله النابغة الجعدي:**

عَلَوْنَا السَّمَاءَ عِزَّةً وَمَهَابَةً ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

أَيْ مِصْعَدًا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**ما المظهر يا أبا ليلىٰ؟**» قال: الجنة، قال: «**أَجَلْ إِنْ شَاءَ اللهُ!**». (١)

(١) العقائد الإسلامية (ص: ٣١١). وانظر: تفسير الماوردي: (٥/ ٢٢٥)، تفسير القرطبي (١٦/ ٨٥).

الكفر مدمر للشخصية الإنسانية:

وإذا كان للإيمان هذه الثمار الطيبة في حياة الإنسان وفي سلوكه، فإن الكفر علىٰ النقيض تمامًا.

فهو مصدر الشرور والمفاسد، ومنبع الرذائل والنقائص، بل هو المدمر لشخصية الإنسان، والمحطم لكيانه، والقاضي علىٰ كل خصائصه ومميزاته، كخليفة عن الله في الأرض.

نظرة القرآن لحياة الكافرين:

- إن القرآن الكريم ينعي علىٰ الكافرين ويندد بهم، ويرسم لهم صورة كالحة منفرة، تدعوا إلىٰ التحقير والاشمئزاز.

فهؤلاء الكافرون في نظرة القرآن يحيون حياة الحيوان، لأنهم ليست لهم رسالة كريمة، ولا غاية نبيلة، ولا هدفًا ساميًا منشودًا، وحياة الحيوان هذه لا تتجاوز المتاع والطعام كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢].

فحياتهم حياة لذة، ولهو وشهوة، ليس فيها تفكير ولا تأمل ولا عمق قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٣ - ٢٥].

– وفي هذا الجو الحيواني تغلق منافذ الإدراك، وتتعطل مواهب العقل والسمع والبصر، فلا ينفذ منها شعاع يضيء القلب الإنساني، ويعمره بالحياة والإيمان قال تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣- ٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

– ومتىٰ أغلق القلب، وحيل بينه وبين النور الإلهي اعترته الحيرة، وساورته الشكوك، ولزمه الضلال، والضيق والضجر قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

كثرة جدال أهل الباطل دون حجة:

– وهنا يكثر الجدل العقيم، لا طلبًا للهداية، ولا توسلًا إلىٰ الحقيقة، ولا اعتمادًا علىٰ دليل، أو استنادًا إلىٰ حجة، أو استنارة بكتاب قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحج: ٣- ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج: ٨- ٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: ٢٠- ٢١].

فتك أهل الباطل بأهل الحق عند انقطاع حجتهم:

- وعندما ينقطع الدليل وتبطل الحجة، يكون الحقد على الدين، والغيظ من حملته، والتبرم بهم، والضيق منهم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [الحج:٧٢].

نماذج لمن انقطعت حجتهم فأرادوا البطش بحملة الحق:

ولقد ذكر القرآن لنا نماذج لهؤلاء الذين انقطعت حجتهم فأرادوا البطش بحملة الحق، فقوم إبراهيم لما غلبهم إبراهيم بالحق أرادوا البطش به ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧ قَالُواْ

حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٣ – ٦٨].

وكذلك فعل فرعون مع موسىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨].

فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَجُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ وَانْقَطَعَتْ شُبَهُهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَوْلٌ سِوَىٰ الْعِنَادِ عَدَلَ إِلَىٰ اسْتِعْمَالِ سُلْطَانِهِ وَجَاهِهِ وَسَطْوَتِهِ ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٩ – ٣٣]. وهكذا فعل فرعون مع السحرة، وهذا ما فعلته قريش مع رسولنا ﷺ فحاصروه وطردوه وحاربوه.

فعال الكافرين وأحوالهم مع أهل الحق:

– ثم يتبع ذلك الاستهزاء بالرسل، وتحقير تعاليمهم، والاستخفاف بأتباعهم والضحك منهم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٢].

– ومن الطبيعي أنهم بعد ذلك ينفرون من الدعوة والداعية، فلا تصغي إليه أفئدتهم، ولا تسمع له آذانهم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ

جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح:٧]، وقال تعالى: ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴿١٢﴾ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴿١٣﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴿١٤﴾ ﴾ [غافر: ١٢ - ١٤].

- وليت أمر هؤلاء يقف عند هذا الحد، ولكن للأسف يطلقون ألسنتهم بالكذب، وينقضون العهد،، قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:٧٥]، [آل عمران: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [المائدة:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل:١١٦]، ولا يقف الأمر عند الكذب بل يزوّرون الحقائق، ويموّهون على الناس قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴿٥٥﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٥- ٥٦].

– ويقدمون اللهو والضلال ليصرفوا الناس عن الهدىٰ والرشاد قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ ﴾ [لقمان:٦].

– وهم لا يلتفتون إلىٰ الحق مهما ظهرت أدلته ووضحت معالمه قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧ ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

– بل يصل بهم الأمر إلىٰ حد القتال في سبيل الشيطان ومن أجل الباطل قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦ ﴾ [النساء:٧٦].

– إن الكفر هو الشجرة الخبيثة التي تثمر المرّ والشر، وإن علىٰ الهداة المخلصين للحياة، والمحبين لها، أن يخلِّصوا الإنسانية من مآثم الكفر وضلال الجحود والإلحاد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ۝٢٦ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧ ﴾ [إبراهيم: ٢٦- ٢٧].

بصيرة في الإخلاص والرياء

معنى الإخلاص:

الإخلاص: أن يقصد الإنسان بقوله، وعمله وجهاده، وجه الله، وابتغاء مرضاته من غير نظر إلىٰ مغنم أو جاه، أو لقب، أو مظهر، أو تقدم، أو تأخر، ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق، ويتصل مباشرة بالله.

دعوة الإسلام إلى الإخلاص:

إن الإسلام قد دعا إلىٰ الإخلاص ورغب فيه فقال أعزُّ من قال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وأمر الله به فقال سبحانه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر:١٤].

قبول الأعمال مرهون بالإخلاص:

إن الله جعل قبول الأعمال رهنا به، ووقفًا عليه، ولنتأمل هذا الحديث

الذي كان سببًا لنزول آية كريمة، عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: قَالَ رجل: يَا نَبِي الله إِنِّي أَقف مَوَاقِف أَبْتَغِي وَجه الله وَأحب أَن يرىٰ موطني فَلم يردّ عَلَيْهِ شَيْئا حَتَّىٰ نزلت هَذِه الْآيَة ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].(١)

يقول الشيخ الغزالي معلقًا علىٰ هذا الحديث: اعتبر الرياء شركًا، واعتبر القتال طلبا للدنيا جريمة.(٢)

وفي توضيح هذا المعنىٰ عمليًّا يقول الشيخ الغزالي أيضًا: إن العرب لما خرجوا من جزيرتهم إلىٰ مصر أو الشام لم يخرجوا مستعمرين أو طلاب دنيا، لماذا؟ لأن طلب الدنيا في دينهم جريمة!!.(٣)

الإخلاص دليل كمال الإيمان:

- عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**».(٤)

- والله سبحانه ينظر إلىٰ القلوب، لا إلىٰ المظاهر والأشكال عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».(٥)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٧/ ٢٣٩٤)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٥/ ٤٦٩).
(٢) خطب الشيخ الغزالي: (١/ ٤٥).
(٣) المرجع السابق.
(٤) سنن أبي داود: (٤/ ٢٢٠)، صحيح الجامع: (٥٩٦٥).
(٥) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

🖎 **يقول «صاحب فتح المنعم»**: إن الله تعالىٰ لا ينظر ولا يحاسب علىٰ المظاهر ولا ينظر للأجسام وإنما يعتمد القلوب وما في القلوب.(١)

🖎 **وقال أيضًا**: الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوىٰ الأخروية، قال النووي ومعنىٰ نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته أي إنما يكون ذلك علىٰ ما في القلب دون الصورة الظاهرة ونظر الله محيط بكل شيء قال ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب وهو من نحو قوله ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».(٢)

- وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**».(٣)

🖎 **يقول صاحب فتح المنعم**: ولما كان القتال منشؤه القوة العقلية، والقوة العصبية، والقوة الشهوانية، دعا ﷺ أصحابه أن يكون دافعهم إليه القوة العقلية فحسب، حيث سئل عن الدوافع البشرية التي يندفع بها الناس نحو القتال، فقيل له: يا رسول الله، الرجل منا يقاتل رغبة في الحصول علىٰ الغنيمة أحيانا، ويقاتل حماية لأهله وقبيلته وعصبته أحيانًا، ويقاتل ليراه الناس شجاعًا مقدامًا أحيانًا، ويقاتل ليقول الناس عنه: كان بطلًا جريئًا غير

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (١٠/ ٢٢).
(٢) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (١٠/ ٢٤).
(٣) صحيح البخاري: (٧٤٥٨) واللفظ له، وصحيح مسلم: (١٩٠٤).

هيَّاب أحيانًا، ويقاتل غضبا لدفع مضرة أو جلب مصلحة أحيانًا، فهل يكون بهذه الدوافع مجاهدًا في سبيل الله؟ وله أجر المجاهدين؟ وله ثواب الشهداء الهائل إن هو استشهد في معركة المشركين؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الذي في سبيل الله»، وإن هذا الأجر الموعود به إنما هو لمن خرج مخلصًا يدافع عن دعوة الإسلام، وينشر دعوة الإسلام.

أما الذين يريدون بقتالهم شيئًا من الحياة الدنيا فقد عجلوا أجورهم، وحصلوا علىٰ ما قصدوا من المتاع العاجل الزائل، ويوم يطالبون يوم القيامة بأجر قتالهم يقال لهم: قاتلتم ليقال عنكم شجعان وقد قيل فلا أجر لكم كالمنفق ماله رئاء الناس، ويوم يطلب أجرًا علىٰ نفقته يقال له: أنفقت ليقال إنك كريم جواد فقد قيل، فلا أجر لك علىٰ نفقتك، ولن تكفر هذه النفقة شيئًا من خطاياك، فاحمل خطاياك واذهب بها إلىٰ النار، فاللهم ارزقنا الإخلاص في العمل، ابتغاء وجهك الكريم.(١)

متى يكون العمل خيرًا؟

إن العمل لا يعتد به، ولا يعتبر خيرًا إلا إذا كان عن نية طيبة، خالصة لوجه الله، لأن العمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالىٰ في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبًا مغمورًا ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان:٢٣]، وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟! أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (٧/ ٥٥٨/ ٥٥٩).

حقيقة الإخلاص؟! أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟! فالوظيفة الأولىٰ علىٰ كل عبد أراد طاعة الله تعالىٰ أن يتعلم النية أولًا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلىٰ النجاة والخلاص.(١)

- إن الله لا يأمر إلا بالخير، ولا يحب إلا الخير، فتكون وجهة الإنسان في الحياة وجهة الخير لنفسه، وللناس جميعًا عن عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».(٢)

قيمة الإخلاص:

إن النية الطيبة تبلغ بالإنسان الذروة من السمو والرفعة، وتنزله منازل الأبرار عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّىٰ أَوَوْا المَبِيتَ إِلَىٰ غَارٍ، فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا:**

إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا، وَلَا مَالًا فَنَأَىٰ بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّىٰ

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٢). بتصرف.
(٢) صحيح البخاري: (١).

نَامًا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا.

فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَىٰ يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَىٰ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّىٰ إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَىٰ مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».(١)

---

(١) صحيح البخاري: (٢٢٧٢).

الاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يُكْسِبُ النجاح والظفر:

إن الفرد المخلص ينجح ويظفر، كما أن الأمة التي تتألف من أفراد مخلصين، تتجه إلىٰ الخير، وتتنزه عن الدنايا، وتسير إلىٰ غاياتها، تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام.

ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سببًا في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق، والكذب، فاندفعوا إلىٰ غاياتهم الكبرىٰ، ينشدون إقامة الحق والعدل ويبتغون وجه الله، وإعلاء كلمته.

فمكَّن الله لهم في الأرض، وجعلهم قادة الدنيا، وسادة العالم.

- والأعذار التي تحول بين الإنسان وبين ممارسة الأعمال الصالحة، لا تنقص من مكانته عند الله ما دام مخلصًا والدليل علىٰ ذلك ما رواه جَابِر، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**».(١) وفي لفظ: «**إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ**».(٢)

- وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ رَجُلٍ، عِنْدَهُ رَضِيٍّ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنَ امْرِئٍ تَكُونُ لَهُ صَلَاةٌ بِلَيْلٍ، يَغْلِبُهُ عَلَيْهَا نَوْمٌ، إِلَّا كُتِبَ لَهُ أَجْرُ صَلَاتِهِ، وَكَانَ نَوْمُهُ عَلَيْهِ صَدَقَةً**».(٣)

---

(١) صحيح مسلم: (١٩١١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) سنن أبي داود: (١٣١٤)، سنن النسائي: (١٧٨٤)، وانظر: صحيح أبي داود: (١١٨٧).

– وعَـنْ سَـهْلِ بْـنِ حُنَيْـفٍ قَـالَ: إِنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «**مَـنْ سَـأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ**».(١)

الرياء ونية السوء:

كما أن الاتصاف بالإخلاص والنية الطيبة تصل بالإنسان إلىٰ المنزلة الرفيعة فالاتصاف بالرياء ونية السوء، تهبط به إلىٰ أسفل الدركات، لأن الباعث علىٰ العمل وهو العنصر الأخلاقي، هو موضع نظر الرب سبحانه عَـنْ أَبِـي بَكْـرَةَ، قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا التَقَـىٰ المُسْـلِمَانِ بِسَـيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**».(٢)

فحرص المقتول علىٰ قتل صاحبه، أورده النار، والله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما أبداه الإنسان أو أخفاه قال تعالىٰ: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٤].

– وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا المعنىٰ فقال ﷺ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**(٣)، **وَمَنْ هَمَّ**

(١) صحيح مسلم: (١٩٠٩)، سنن الدارمي: (٣/ ١٥٥٩).
(٢) صحيح البخاري: (٣١) واللفظ له، صحيح مسلم: (٢٨٨٨).
(٣) المضاعفة حسب إخلاص المرء.

بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً(١)، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً». (٢)

- والرياء من شأنه أن يحجب المرء عن الله، وينزل به إلىٰ مستوىٰ الحيوان، فلا تزكوا له نفس، ولا يقبل منه عمل، ذلك أن المرائي لا رأي له، ولا مبدأ ولا عقيدة، ولكنه كالحرباء يتلون بكل لون ويميل مع كل ريح.

معنى الرياء:

الرياء هو طلب المنزلة والجاه بالعبادات، والله سبحانه نهىٰ عنه وحذر منه، لما له من آثار سيئة في النفس وفي المجتمع فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]، والذين يمكرون السيئات هم أهل الرياء.

---

(١) إذا كان قد تركها خوفًا من الله وإيمانًا به، أما إذا تركها لعجز عن مباشرتها فلا شيء له من الحسنات، بل إذا صمم علىٰ الفعل ولم يتمكن منه بسبب خارج عن إرادته فهو يؤاخذ بنيته، كما في حديث أبي بكرة: «**إِذَا التَقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**»، وهذا خاص بالهم. أما إذا لم يبلغ الأمر درجة الهم بل بقي حديث نفس، فإن الله يتجاوز عنه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**». صحيح مسلم: (١٢٧).

(٢) صحيح البخاري: (٦٤٩١) واللفظ له، صحيح مسلم: (١٣١).

الرياء صفة من صفات المنافقين:

الرياء صفة من صفات المنافقين الذين لا يثبتون علىٰ مبدأ، ولا يتقيدون بعقيدة صالحة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

وهذا الخداع سيكشفه الله، ويهتك ستره، ويفضح المرائي المخادع، جزاء ريائه وخداعه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَىٰ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ**».(١)

يقول صاحب فتح المنعم: قال الخطابي من عمل عملًا علىٰ غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي علىٰ ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه [وظاهر هذا أن الجزاء في الدنيا ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا والآخرة].

- **وقيل**: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثا عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم ولا ثواب له في الآخرة ومعنىٰ «يرائي الله به» يطلعهم علىٰ أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

(١) صحيح مسلم: (٢٩٨٦).

- **وقيل**: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد وكان ذلك جزاءه علىٰ عمله ولا يثاب عليه في الآخرة، وهذا القول قريب من سابقه إلا أن يراد من السابق أن يضيع هدفه من الناس فلا يحصل له ما قصد كما يضيع أجره في الآخرة.

- **وقيل**: المعنىٰ من سمع بعيوب الناس وأذاعها ونقلها من سمع إلىٰ سمع أظهر الله عيوبه ونشر أسراره.

- **وقيل**: المعنىٰ من نسب إلىٰ نفسه عملًا صالحًا لم يفعله وادعىٰ خيرًا لم يصنعه ونشر ذلك علىٰ مسامع الناس فإن الله يفضحه ويظهر كذبه

- **وقيل**: المعنىٰ من يرائي الناس بعمله أراه الله ما كان يستحق بعمله من الثواب لولا المراءاة وحرمه إياه.

- **وقيل**: معنىٰ «سمع الله به» شهره أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوي عليه من خبث السريرة، أقول: واللفظ يحتمل كل هذه المعاني فليشملها والله أعلم.(١)

الرياء نوع من الشرك المحبط للعمل:

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ**

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (١٠/ ٥٩٣).

تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»(١).

والإسلام يريد للإنسان أن يكون سره كإعلانه، وظلمة ليله كضوء نهاره، فإذا اختلف الظاهر والباطن، وتعارض القول والفعل وتأرجح الإنسان بين دوافع الخير ونوازع الشر، كان النفاق الذي يفقد المرء شخصيته، فلا يقدر علىٰ الجهر بالحق، ولا يقوىٰ علىٰ المصارحة، ولا يقف موقف البطل الشجاع.

- عَنْ عَاصِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا لَنَدْخُلُ عَلَىٰ سَلَاطِينِنَا فَنَتَكَلَّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِشَيْءٍ، إِذَا خَرَجْنَا قُلْنَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ، «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا» قَالَ الْعُمَرِيُّ: فَحَدَّثَنِي أَخِي أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ».(٢)

وإن من يتتبع الآثار السيئة للرياء والنفاق، في المجتمع البشري، وفي الحياة الإنسانية، ومدىٰ ما أحدثاه من فساد في الخلق، واضطراب في النُظُم، وتغيير للعرف الصالح، وتعويق عن النهوض والارتقاء، ليدرك بسهولة معنىٰ هذا الحديث.

- عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ**

---

(١) مسند أحمد: (٢٣٦٣٠)، والسلسلة الصحيحة: (٩٥١).

(٢) مسند أبي داود الطيالسي: (٣/ ٤٦١).

حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ». (١)

الإعجاب بثناء الناس لا ينافي الإخلاص:

وإذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم اطلع عليه الناس دون قصد منه، وأعجبه ثناؤهم عليه، وحمدهم له، فهذا لا يحبط العمل، ولا ينافي الإخلاص، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُطَّلَعُ عَلَيْهِ، فَيُعْجِبُنِي، قَالَ: «لَكَ أَجْرَانِ، أَجْرُ السِّرِّ، وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ». (٢)

بل قد يكون ثناء الناس من البشريات المعجلة عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ». (٣)

---

(١) صحيح مسلم: (١٩٠٥).

(٢) سنن ابن ماجه: (٤٢٢٦)، وسنن الترمذي: (٢٣٨٤).

(٣) صحيح مسلم: (٢٦٤٢).

✍ وختامًا أقول:

يجب الحذر من الرياء:

إن المسلم يجب أن يتقي الرياء ويحذر منه امتثالًا لأمر الرسول ﷺ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ: خَطَبَنَا أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَزْنٍ، وَقَيْسُ بْنُ الْمُضَارِبِ فَقَالَا: وَاللهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ. قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**».(١)

---

(١) مسند أحمد: (١٩٦٠٦)، ومصنف ابن أبي شيبة: (٢٩٥٤٧)، صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب: (٣٦).

بصيرة في الخير والشر (١)

* قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة:٢١٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

إنَّ نظامَ المعيشةِ التي نحياها اليوم غيرُ متوازن في كثير من مناحي الحياة، ويعود سبب ذلك إلىٰ اختيار الإنسان.

وكثيرًا ما يتأثر اختيار الإنسان بموازين الحب والكراهية، وقليلًا ما يتأثر بموازين الخير والشر.

مع أن التعامل بميزان الخير والشر هو الأحق بالاتباع، وهي التي أشار الحق تبارك وتعالىٰ إليها في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ

---

(١) أصل هذه البصيرة ميزان وضعه فضيلة الدكتور محمد سعد قاسم بعنوان: (ميزان الاختيار) ضمن كتابه موازين القيم الذي شرفت بالاعتناء به والتعليق عليه، ولقد استأذنت فضيلته في استخراج بصيرة من كلام فضيلته مع تعليقاتي علىٰ الميزان ولقد أذن لي جزاه الله خيرًا.

لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

- ولنلحظ استخدام القرآن للفظة الخير قال تعالىٰ: ﴿ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء:١٤٩]، وسبحان الله الذي يحاسبنا بالذرات فيقول: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨] وكل ما نفعله فلن نكفره قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١١٥]، بل وكل ما نفعله من خير سنراه واقعًا ويكون لأنفسنا في الدنيا والآخرة. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وهذا حافز قوي لنا لفعل الخيرات والمسارعة فيها وهذا هو خلق المتقين. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون:٦١].

نماذج على التعامل بميزان الحب والكره وترك ميزان الخير والشر:

- **في اختيار الزواج:**

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ ﴾ [البقرة:٢٢١]، فقوله: ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ ﴾

[البقرة:٢٢١] فيها بيان واضح لميزان الخير الذي أراد الله منا أن نلتزم به، وقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١] فيها بيان لحالة النفس وهي حالة تفضيل الحب والميل النفسي على الخير وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]، ومن هنا وجب أن نفهم مراد الله في التعامل بميزان الخير والشر لا بميزان الحب والكره.

- **بنو إسرائيل وتعاملهم بميزان الحب والكره، وليس الخير والشر:**

ومن تعامل بميزان الحب والكره يمكن أن يصل لحالة من لعنهم الله كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩].

- وعند التأمل سنلحظ أن السبب الرئيس هو الخلل في هذا الميزان ولنقرأ ما بعدها ليتضح الأمر قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠] فكثير منهم ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ﴾ [المائدة:٨٠] والسبب هوى النفس وميزان الحب والكره ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة:٨٠] والنتيجة المترتبة على ذلك: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)﴾ [المائدة:٨٠].

ثم يوضح لنا ربنا الميزان المطلوب فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة:٨١]، فتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة:٨١] لماذا؟ لأن الإيمان بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ يستلزم ميزان الخير والشر لا ميزان الحب والكره..

واقع الناس يؤكد التعامل بميزان الحب والكره، وليس الخير والشر:

- وبنظرة نلقيها علىٰ واقع الناس سنجد خللًا واضحًا في هذا الميزان فكثير من الناس يحب صاحب المعصية إما لقرابة أو لصحبة أو لمعاملة، وفي الوقت ذاته يمكن أن يكره صاحب علم وخلق وطاعة والسبب في ذلك: أنه تعامل بميزانه وهو ميزان الحب والكره، ولم يتعامل بميزان الله وهو الخير والشر، ولو تعامل بميزان الخير والشر لأحب صاحب الطاعة ولأبغض صاحب المعصية مهما كان قريبًا منه. - والصحابة الكرام ضربوا أروع الأمثلة في بيان هذا ويكفي أن أشير إلىٰ موقف أبي عبيدة بن الجراح وقتله للكفر في شخص أبيه في غزوة بدر ونزل في هذا قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢].

- **نوح عليه السلام يتعامل بميزان الحب والكره فيعظه الله تعالى:**

ولا يخفىٰ علىٰ عاقل أن الولد له مكانة عند أبيه، ولقد ابتلي نبي الله نوح عليه السلام بكفر ولده، وتعامل معه عليه السلام تعامل الوالد الرحيم فنادىٰ عليه قائلًا:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود:٤٢]، وهنا تعامل بميزان الحب والكره فهو يحب ولده، فرد عليه ولده: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٤٣]، فقال له نبي الله نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣]، والنتيجة الحتمية: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٣].

ثم توجه نوح بالنداء إلىٰ الله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥]، وهذا تعامل بميزان الحب والكره، وجاء الوعظ من الله لنوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦]، وهذا هو ميزان الخير والشر، فسلَّم نوح لأمر ربه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧].

حال الناس عند ميلاد الأنثى:

- نقطة أخرىٰ وهي حالة الناس عند ميلاد الأنثىٰ ميزان الله هو الخير والشر والله يقول: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل:٥٨] فهي بشارة بنص كلام الله ومن المفروض أن يفرح ويسعد ولكن عند التعامل بميزان النفس والهوىٰ أعني الحب والكره تكون حالته ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

[النحل:٥٨] وليس هذا فقط ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٩] وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل:٥٩] ففيه بيان لفساد حكم الهوىٰ ولضلال وإخفاق ميزان الحب والكره خصوصًا ما ترتب عليه من ظلم للبنات وتضييع لحقوقهن في الميراث وغير ذلك.

وهذا كله بسبب الخلل الموجود عند كثير من الناس في التعامل بميزان الحب والكره لا بميزان الخير والشر

النتيجة المترتبة على اختلال الميزان:

يقول تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، ولكن عندما اختلت موازيننا ولم نطبق قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن:٩] رأينا نتيجة البعد عن ميزان الله، وظهرت مظاهر الاضطراب علىٰ اختلاف أنواعه:

- اضطراب نفسي.
- اضطراب فكري.
- اضطراب روحي.

وبالتالي تُرْجِمَ كلُّ نوع من هذه الأنواع في صورة سلوكيات غير حميدة تزيد من تعميق هذه المظاهر في واقع الحياة المعاصرة.

والباحث بعمق في أسباب تلك المظاهر يجد أنها كثيرة، ولكن – بلا شك – سيجد أن من أهمها: عدم – أو صعوبة – تحصيل هذا الإنسان لضرورات حياته ومقوماتها.

– ومن هنا أيضًا ندرك قيمة وقدر الحديث النبوي الشريف الذي يضع أيدينا علىٰ الداء ويصف لنا الدواء في آن واحد.

* فعن عبد الله بنِ محْصن الأَنْصَارِيِّ – رضي الله عنه –، قَالَ: قَالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم: **«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»**.(١)

✍ **وخلاصة الأمر فيما ذكر**: أن من استطاع إخضاع ميزان حبه وكراهيته لميزان الله في الخير والشر فقد فاز برضا الله في الدنيا والآخرة وإلا ففي الصبر علىٰ ما تكره النفس خير كثير.

---

(١) الترمذي: (٢٣٤٦) وانظر صحيح الجامع: (٦٠٤٢).

بصيرة في القدر

إن الإيمان بهذه الآية الكريمة ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩]، من أكبر الدواعي التي تدعو إلىٰ العمل والنشاط والسعي بما يرضي الله في هذه الحياة، لأن الإنسان سيكون علىٰ بصيرة أن كل شيء بقدر كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩].

ومن هنا أقول في هذه البصيرة القرآنية:

إن القضاء والقدر في منهج القرآن ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: (١)

النوع الأول: قضاء يستوجب الصبر:

وهو كل ما يحدث للإنسان بدون تدخل من إرادته، والإيمان بهذا النوع من القضاء عزاء، والصبر عليه واجب، وأجر الصبر والاحتساب أعظم من فقد الدنيا كلها قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠].

- ومن ذلك ذكاء المرء وغباؤه، وطول العمر وقصره، ووسامة الوجه وقبحه، وسعة الرزق وضيقه.

---

(١) هذا التقسيم الثلاثي ذكره الشيخ أبو الوفا درويش، وكذلك الشيخ محمود غريب، وإن اختلفت طريقة العرض والمعالجة عند كل منهما.

✍ **أيها القارئ الكريم:**

إن الدنيا تقطف شبابًا يؤمل بقاؤهم، وترد إلىٰ أَرْذَلِ العمر من نتمنىٰ موته رحمة به أو رحمة للآخرين، وتغيب الحكمة عنا، ولا نملك أمام هذا إلا الصبر والتسليم.

قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج:٥] هذه كلها أمور تجري بها المقادير، ولا نملك دفعها.

- ومن المعلوم والواضح أن هذه الأمور لا تدخل في دائرة التكاليف الشرعية، ولا يحاسب عليها الإنسان.

النوع الثاني: قضاء يستوجب المعالجة:

والمراد به ارتباط الأسباب بالمسببات، مع إيماننا بأنَّ الله خالق الأسباب والمسببات، وواجب المسلم أن يبذل كل جهده في تحصيل الأسباب الموصلة - عادة - للنجاة.

فإذا استنفد طاقته، فما يتمُّ بعد ذلك فهو قدر الله، فالمريض لا بد أن يعالج، وعندما سأل كعب بن مالك رسول الله - ﷺ - فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ دَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ، وَرُقًىٰ نَسْتَرْقِي بِهَا، وَأَشْيَاءَ نَفْعَلُهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ

اللهِ؟ قَالَ: «**يَا كَعْبُ، بَلْ هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ**».(١)

والطالب لا بد أن يذاكر، وقواد الجيوش يعدون ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لقتال عدو الله.

علينا أن نأخذ بكل الأسباب، والأسباب في حد ذاتها من قدر الله، فما يتمَّ بعد ذلك فهو قدر الله.

علينا أن نسعىٰ، وليس علينا إدراك النجاح.

إن بعض الناس يهملون أسباب النجاة، ثم يتهمون القدر.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته ... حتىٰ إذا فات أمر عاتب القدرا

لقد عزم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - علىٰ دخول الشام، فعلم أن بها وباء الطاعون، فامتنع عن الدخول، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُخَالِفَهُ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ، فَغَضِبَ عُمَرُ وَقَالَ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَ هَذَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ أَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَىٰ قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا هَبَطَ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ وَاحِدَةٌ جَدْبَةٌ وَالْأُخْرَىٰ خَصْبَةٌ أَلَيْسَ إِنْ رَعَىٰ الْجَدْبَةَ رَعَاهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَىٰ الْخَصْبَةَ رَعَاهَا بِقَدَرِ اللهِ. قَالَ: ثُمَّ خَلَا بِأَبِي عُبَيْدَةَ فَتَرَاجَعَا سَاعَةً، فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَجَاءَ وَالْقَوْمُ مُخْتَلِفُونَ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، فَقَالَ عُمَرُ: فَمَا هُوَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ**

---

(١) صحيح ابن حبان: (٦١٠٠)، وقال الألباني في «أحاديث مشكلة الفقر» (١٣/ ١١). حسن لغيره.

بِهَا فَلَا يُخْرِجَنَّكُمُ الْفِرَارُ مِنْهُ».(١)، هكذا فهم صحابة النبي - ﷺ - هذا النوع من القدر، فجدوا في الأسباب.

النوع الثالث: قضاء أنت فيه حرٌّ، وفي حدود الحرية محاسب:

وهذا النوع يتعلق بسلوك الإنسان إزاء التكاليف الشرعية.

ذلك لأن التكاليف والمسئولية لا يكونان إلا حيث تتوفر الإرادة الحرة للإنسان.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت:٤٠].

فالقرآن يثبت نوعًا من المشيئة، يوجه بها قدرته إلىٰ ما يختار.

ولكن هذه المشيئة، لا تخرج الإنسان من دائرة العبودية لله، الذي انفرد وحده بفعل ما يريد.

فمشيئتنا عطاءٌ من مشيئة الله سبحانه، كما أن علمنا شعاع من علمه قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

- إن مشيئة البشر واختيارهم لا تتجاوز في النهاية ما أراده الله، فالله - ﷻ - قد شاء أن يعبده كل الكون قهرًا، بلا اختيار، فكل شيء في الكون يمارس

---

(١) الآداب للبيهقي: (ص: ١٤٧).

نشاطه علىٰ وجه واحد بلا اختيار منه، إلا الإنسان فإن الله قد شاء أن يجعل له اختيارًا في عبادته يؤهله للجزاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣١]، فالقرآن أثبت لك مشيئة توجه بها قدرتك إلىٰ طاعة الله، أو تهوي بها في النار.(١)

- كما أثبت لك القرآن إرادة تستطيع بها أن تغير حالك، وتصلح من نفسك مع الله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠].

فقوِّ إرادتك في الخير، ولا تتبع نفسك هواها، وتتمنىٰ علىٰ الله الأماني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد:١١]، فلك مشيئة ولك إرادة، وقدرة علىٰ الإصلاح والتغيير، وثمرة ذلك هي المسئولية عما تحاسب عليه.

- إنَّ راكب السفينة حرُّ الحركة في حدودها، وهو مسئول عما عبث فيها، فإن أراد أن يتجاوز بحريته حجم السفينة، ابتلعته الأمواج.

من آثار الإيمان بالقدر:

يقول الدكتور محمد سعد قاسم حفظه الله:

من آثار الإيمان بالقدر:

١- أن يعرف الإنسان قدْر نفسه، فلا يتكبر ولا يبطر ولا يتعالىٰ أبدًا؛ لأنه

---

(١) منهج القرآن في القضاء والقدر: (ص: ١٦).

عاجز عن معرفة الغيب، ومن ثمّ يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلىٰ ربه تعالىٰ دائمًا. وهذا من أسرار خفاء المقدور.

٢- أنه يطرد القلق والضجر عند فوات المراد أو حصول مكروه وإلىٰ هذا يشير الله تعالىٰ بقوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣].

٣- الإيمان بالقدر يقضي علىٰ كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بين المؤمنين، وذلك مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله [1]؛ لأنه هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك، وهو يعلم أنه حين يحسد غيره إنما يعترض علىٰ من قضىٰ وقدر. [2]

---

(١) إن شعار المؤمن يجب أن يكون: (نؤمن بحكمته فنرضىٰ بقسمته) مستصحبًا قول الله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٢]، ومستصحبًا قول الله: [﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف:٣٢].

(٢) ولقد بيَّن القرآن أن من أهل الكتاب من حسد رسول الله ﷺ علىٰ نبوته وفي هذا اعتراض علىٰ قدر الله تعالىٰ فهو الذي قدّر له ذلك، ونعىٰ القرآن عليهم ذلك حيث يقول: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا =

٤- والإيمان بالقدر يبعث في القلوب الشجاعة علىٰ مواجهة الشدائد، ويقوي فيها العزائم فتثبت في ساحات الجهاد ولا تخاف الموت، لأنها توقن أن الآجال محدودة لا تتقدم ولا تتأخر لحظة واحدة.(١)

فالعاقل- كل العاقل- من ينشغل بالوقوف عند أمر الله فيفعل، وعند نهيه فلا يفعل، مستعينًا بالله تعالىٰ في تفعيل الأمر والنهي في نفسه، وأسرته، ومجتمعه، وعالمه، وعند ذلك يرىٰ قدر الله فيه.

قال الله تعالىٰ: ﴿ **لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١** ﴾ [الرعد:١١].

وعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا

....
=

حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩]، وقال أيضًا: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤ ﴾ [النساء:٥٤].

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس:٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [النحل:٦١].

نَمْكُثُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل:٥-١٠] (١).

وحتىٰ يتجلىٰ لنا هذا بوضوح شديد لا بد من فهم هذه القاعدة الجليلة، وحفظها، وهي: «إن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أراد بنا [وذاك: قضاؤه وقدره]، وأراد منا [وذاك: أمره ونهيه]، فيجب أن ننشغل بما أراده منا، عَمَّا أراده بنا. (٢)

وذلك لأننا نعلم ما أراده الله منا قبل أن نعمله، ولا نعلم ما أراده الله بنا إلا بعد أن نعمله».

فاجعل أخي المسلم شغلك الشاغل فيما أراده الله منك، وليس فيما أراده الله بك. (٣)

البحث عن القدر الذي أخفاه الله عنَّا سبب للخذلان:

الاشتغال بالنظر والتعمق في ما حجب الله علمه عن الناس مثل علم القدر فهو غيب لا يعلم قبل نزوله لذا قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَصْلُ

---

(١) البخاري: (٤٩٤٨)، مسلم: (٢٦٤٧) واللفظ لمسلم.

(٢) هذه القاعدة منسوبة لجعفر الصادق ووردت بعدة صيغ منها: «إن الله أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا أخفاه عنا، وما أراده منا بينه لنا، فما بالنا ننشغل بما أراده بنا عما أراده منا؟!». انظر: فقه أشراط الساعة (ص: ٢٩٨).

(٣) انظر: روافد في بناء الوعي: (٤١).

الْقَدَرِ سِرُّ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَىٰ ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الْخِذْلَانِ، وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ طَوَىٰ عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٣]. فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الْكِتَابِ، كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».(١)

يقول الدكتور محمد سعد قاسم معلقًا علىٰ كلام الإمام الطحاوي(٢):

لأن فيه تضييعًا للوقت والجهد دون تحصيل أي فائدة، وهو تبديد للطاقة الذهنية والمعرفية، بل في أحيان كثيرة يجر إلي إنكار حكمة الله ﷻ في خلقه.

٢- رفع الإنسان نفسه فوق قدرها، لأن هذا مظهر من مظاهر الطغيان، ومما لا يشك فيه عاقل أن كل من تجاوز حده لم يجد له ناصرًا. (٣)

لذلك ربط التوفيق بالتوكل علىٰ الله ﷻ، والتبري من الحول والقوة إلا به سبحانه، وفي القرآن الكريم تربية وتأكيد لهذا المعنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨] فالخذلان: هو سلب العبد

---

(١) شرح الطحاوية: (ص: ٢٤٩)

(٢) انظر: روافد في بناء الوعي: (٤٧).

(٣) والأمثلة كثيرة علىٰ هؤلاء فمنهم: (فرعون، وهامان، وقارون...)، وغيرهم كثير. وفي شأن من هذه حاله يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ ﴾ [الحج: ١٨]، ويقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾[الطارق: ٩- ١٠]، ويقول تعالىٰ: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف:٤٣].

الإعانة التي تقويه علي نفسه والشيطان.

٣- اتباع الأهواء وما تستحسنه النفس قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠].

✍ **لذا قال الإمام ابن حزم:** «فمن حكم في دين الله ﷻ بما استحسن، وطابت نفسه عليه، دون برهان من نص ثابت، أو إجماع، فلا أحد أضل منه(١)، وبالله تعالىٰ نعوذ من الخذلان»(٢)

٤- معاداة أولياء الله ﷻ: قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر:١٠].

---

(١) ومما يستنبط في هذا ما جاء في سورة هود قال تعالىٰ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣].

فلنتأمل الآتي: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ ﴾ [هود:٤٣] هذا عقل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ ﴾ [هود:٤٣]، هذا وحي ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود:٤٣]، هذه هي النتيجة. فكل من قدم عقله علىٰ نصوص الكتاب والسنة الصحيحة غرق في ظلمات بحار الأهواء والبدع، ومن تعود معارضة الشرع بالعقل لا يستقر في قلبه إيمان.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام: (ص ـ ١٣٤)

بصيرة في الهداية والضلال

إن القرآن الكريم يحدِّثنا كثيرًا عن الهدىٰ والضلال، حتىٰ إن مفردات كلمة (هدىٰ) وما اشتق منها جاء ذكرها في القرآن الكريم قرابة مائتي مرة، وقريب من ذلك لفظة (ضلَّ) وما اشتق منها، مما يدل علىٰ ثراء الموضوع واهتمام القرآن الكريم به.

الهداية بمعنى تيسير المعاش لجميع المخلوقات:

وحين نتأمل في مدلول كلمة (هدىٰ)، نجد أنها جاءت في القرآن الكريم علىٰ معنىٰ تيسير الله تعالىٰ للمخلوقات أمر معاشها، وتدبيره لأمورها، بحيث تمضي الحياة لكل الكائنات، رغم كثرتها وتنوعها، بلا تضارب ولا تعارض وإنما لكل مخلوق هدفه، ولكل وسيلته التي تيسر له هذا الهدف.

وبهداية الله للإنسان في هذا الجانب ينطلق في أرجاء الحياة، يبني ويعمر، ويخترع ويبتكر، ويحصل علىٰ حاجات جسده من مطعم ومشرب، وملبس، وغير ذلك من الضروريات أو الكماليات أو التحسينيات.

وفي الدلالة علىٰ هذا النوع من الهدىٰ يقول ربُّ العزة: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلىٰ: ١ - ٣]

الإنسان جسد وروح:

الإنسان ليس جسدًا فقط، وليس مادة فحسب، وإنما هو كيان مؤلف من جسد وروح، وسرُّ تفوقه علىٰ سائر الكائنات لا يعود إلىٰ كيانه المادي، وإنما عنصر الروح وصدق من قال:

يا خادم الجسم كم تشقىٰ لخدمته... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل علىٰ الروح واستكمل فضائلها... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

من اهتم بالجسد فقط قلّ من نفسه:

فإذا اقتصر الإنسان علىٰ اهتمامات جسده، وقصر همته علىٰ المطعم والمشرب دون غيره، فإنه بذلك يحط من قدره، ويصبح أقرب إلىٰ الحيوان منه إلىٰ الإنسان، يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢].

هداية الله في الجانب الروحي أقوى وأبرز من الجانب المادي:

ومن هنا كانت هداية الله تعالىٰ للإنسان في الجانب الروحي أقوىٰ وأبرز منها في الجانب المادي، فأنزل الله لأجل هذه الهداية، الكتب، وأرسل الرسل، وأوصىٰ علىٰ ألسنة الدعاة من المرسلين وأتباعهم بالعمل للآخرة والسعي لمرضاة الله تعالىٰ، وحذّر من الفتنة بالدنيا والركون إليها.

ويبدو هذا الاهتمام واضحًا من المقارنة بين الآيات التي تحدّثت عن

الهداية بمعناها المادي، حيث لا تتجاوز بضع آيات، في حين أن الهداية في جانبها الرُّوحي تصل إلىٰ قرابة مائتي آية، وأن الهداية الحقيقية هي في معرفة الإنسان لربه، واتّباعه لمنهجه، واقتفائه أثر نبيّه، وأن الضلالة هي في مخالفة ذلك، والإعراض عنه.

يقول تعالىٰ علىٰ لسان نبيّه إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات:٩٩]، وفي آية أخرىٰ: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧]، وقال تعالىٰ في حق نبيّه ﷺ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]..

- ولأهمية الهداية بهذا المعنىٰ الثاني (الروحي) كانت وصيّة الله لعباده ورسول الله ﷺ لأمته أن يسألوا ربهم التوفيق لها، والسير علىٰ نهجها، ففي سورة الفاتحة التي هي أم القرآن وأعظم سورة والسبع المثاني أمَرَنَا أن ندعو الله فيها قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وفي الحديث عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُلِ اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**».(١)

أسباب الحصول على الهداية:

والله سبحانه وتعالىٰ يوقفنا علىٰ الأسباب التي بها تحصل الهداية

(١) صحيح مسلم: (٢٧٢٥).

لنسلكها ومن هذه الأسباب:

١- الإيمان: يقول ربُّ العزة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:٥٤].

٢- الجهاد: يقول ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

٣- الاعتصام بالله: يقول ربنا: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ [آل عمران:١٠١]، وغير ذلك كثير.

الأسباب المانعة من الحصول على الهداية:

وكما بيّن الله سبحانه وتعالىٰ لنا الأسباب التي بها تحصل الهداية لنسلكها يُبيّن لنا الأسباب المانعة من الحصول علىٰ الهداية ومن هذه الأسباب لنجتنبها ومن هذه الأسباب:

١- **الظلم**: قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آل عمران:٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة:٥١].

٢- **الكفر**: قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة:٦٧].

٣- **الفسق**: قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة:١٠٨]،

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠].

٤- **الإسراف**: وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨].

٥- **الكذب**: وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٣].

كيف يصل الإنسان إلى الهداية:

إن من يريد الوصول إلىٰ مقصدٍ ما لابدَّ له من دليل يدله، وخريطة يمشي علىٰ ضوئها، وأفراد سبقوه علىٰ هذا الطريق حتىٰ لا يضل ولا يزل.

- ودليل المؤمن هو ربُّ العزة الذي يملك مفاتيح هذه الهداية، والذي قال عن نفسه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٨].

وقال أيضا: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف:١٧]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال أيضًا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب:٤].

- وأما الخريطة التي يمشي المرء علىٰ ضوئها ليصل إلىٰ مقصده فهي

القرآن الكريم، الذي قال الله عنه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥].

* وقال أيضًا: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

* وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

* وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النمل: ٧٦، ٧٧].

* وقال أيضًا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٠].

* وقال أيضًا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١، ٢]

- وأما الأفراد الذين سبقونا على هذا الطريق فهم الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وفي بيان من هم المُنْعَمُ عليهم قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]، ويأتي على رأس هؤلاء جميعًا رسولُنا ﷺ الذي قال الله في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون:٧٣]، وقال أيضًا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، كما أن نموذج أصحابه الأطهار الأبرار نموذج يُحْتَذَىٰ به في تحقيق هذه الهداية، كما قال ربُّ العزة: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ ﴾ [البقرة:١٣٧].

من يترك هدى الله يتركه الله وما اختاره :

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥]، هدىٰ الله هو الإسلام وهو سبيل المؤمنين، فمن يشاقق الرسول ﷺ ـ أي يعاديه ـ فلا يتبع الإسلام ويتبع غير سبيل المؤمنين بعد أن تبين له هدىٰ الله فإن الله تعالىٰ يتركه وشأنه وما اختاره لنفسه من ضلال.

قال الإمام الرازي في قوله تعالىٰ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء:١١٥] أي: نتركه وما اختاره لنفسه ونكله إلىٰ ما توكل عليه (١).

ومن المعلوم أن ما اختاره لنفسه هو سبيل الضلال لأنه ليس بعد الحق

(١) تفسير الرازي: (١١/ ٤٣).

ـ الإسلام الذي تركه ـ إلا الضلال، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢].

الحذر ممن يَصُدُّ عن طريق الهداية:

وبقدر ما يحتاج الإنسان إلىٰ من سبق ليأخذوا بيده إلىٰ الهدىٰ فإنه في حاجة إلىٰ تجنب من يصدّونه عنه، ومن ذلك:

١ - الشيطان:

قال تعالىٰ في حق الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء:١١٩].

* وقال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]

٢ - قرناء السوء ودعاة الشرّ:

* قال تعالىٰ: ﴿ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام:٧١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]

٣ - مناهج الضلال التي تنأى بأصحابها عن منهج القرآن الكريم:

كما قال ربنا تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة:٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

تهديد من يتبع غير هدى الله:

هدىٰ الله هو الإسلام وهو الحق الواجب الاتباع وما عداه هو الضلال الواجب تركه والإقلاع عنه، فمن تمسك به خسر تولي الله له ونصرته إيّاه وكان من الظالمين، قال تعالىٰ مخاطبًا رسوله ﷺ والأمر لأمته: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٢٠].

قال ابن كثير في تفسيرها: في هذه الآية تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طوائف اليهود والنصارىٰ بعدما علموا من القرآن والسنة عياذًا بالله من ذلك. فإن الخطاب مع الرسول ﷺ والأمر لأمته (١).

وفي آية أخرىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥]. والذي جاءه من العلم هو هدىٰ الله وما شرعه له من أمور الإسلام، فإذا فرض مجرد فرض أن تتبع ما يهواه اليهود والنصارىٰ إنك إذن لمن الظالمين، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته.

وفي الآية تهديد ووعيد لمن يتبع أهل الباطل في باطلهم وأهوائهم استمالة لهم، فقد جاء في تفسير المنار بشأن هذه الآية: هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلىٰ الناس مقامًا عند الله تعالىٰ وهو رسول الله ﷺ، هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوىٰ ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم علىٰ ما هم عليه من الباطل، فإنه أورده بالخطاب للرسول ﷺ مع أن المراد أمته ليعلم المؤمنين أن اتباع أهواء الناس ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم الذي يقطع طريق الحق ويردي الناس في مهاوي الباطل (٢).

سنّة الله في المُعْرِض عن هداه ودليلها:

وأما سنة الله في المعرض عن هداه، فهي معيشة الضنك قال تعالىٰ:

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ١٦٣).

(٢) تفسير المنار، ج٢، ص ١٨.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥]، وذكر الله هو قرآنه أو دينه الإسلام، والإعراض عنه يعني تركه وعدم اتباعه، وابتغاء الهدىٰ من غيره.

قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ [طه:١٢٤] أي خالف أمري وما أنزلته علىٰ رسولي وأعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه. (١)

وهذا المُعرض عن هدىٰ الله له المعيشة الضنك أي الضيقة في الدنيا، لأن الضنك أصله الضيق والشدّة.

ووجه ضيق معيشته أنه شديد الحرص علىٰ الدنيا متهالك عليها وعلىٰ الزيادة منها خائف من انتقاصها، لا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه مالم يعمره هدىٰ الله لا يحس بسعادة ولا بطيب العيش(٢). وهذا في الدنيا.

أما في الآخرة فقد مضت سنّة الله في الجزاء أنه سيصيبه عقاب المعرضين عن هداه، ومن هذا العقاب حشره يوم القيامة أعمىٰ لعماه عن آيات الله وهداه، قال تعالىٰ مخبراً عن هذا الجزاء وسببه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي

---

(١) تفسير ابن كثير، ج٣، ص ١٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ج٣، ص ١٦٨، تفسير الآلوسي، ج١٦، ص ٢٧٧.

فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦]، والمعنىٰ أن هذا المعرض عن هدىٰ الله يحشر يوم القيامة أعمىٰ فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه:١٢٥] أي في الدنيا فيقول الله تعالىٰ له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ ﴾ [طه:١٢٦] أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك فأنت قد عميت عنها لأن من عمي عن شيء نسيه وتركه ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٦] أي تترك في العمىٰ كما كنت أعمىٰ عن آيات الله، جزاءً وفاقًا لأن الجزاء من جنس العمل.(١)

وهذا العقاب الذي ينتظر المعرض عن هدىٰ الله هو أشد وأبقىٰ من عذاب الدنيا. وسيصيب أيضًا المسرفين المكذبين بآيات الله ما أصاب المعرضين عن هدىٰ الله من العيش الضنك في الدنيا والعذاب في الآخرة لقوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:١٢٧].

من يعرض عن هدى الله يقيّض له شيطانًا:

والمُعرض عن هدىٰ الله، أي القرآن، يقيض الله له شيطانًا يصاحبه ولا يفارقه، يزين له عمل الشر ويصده عن سبيل الحق، ويحسب أنه علىٰ هدىٰ وصواب، وبهذا جرت سنة الله في المعرضين عن هداه قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن

(١) تفسير ابن كثير: (٣/ ١٦٩)، تفسير الآلوسي: (١٦/ ٢٧٨).

يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

✍ **وجاء في تفسير هاتين الآيتين :**

أن من يتعامىٰ ويتغافل ويعرض عن ذكر الله أي عن القرآن الكريم وما أنزل الله فيه، ويأخذ بأقوال المضلين وأباطيلهم، نقيّض له شيطانًا أي نتح له شيطانًا فهو له قرين دائمًا لا يفارقه، يمنعه من الحلال ويبعثه علىٰ الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ويزين له سيئ الأعمال..

وهذا عقاب له عن إعراضه عن هدىٰ القرآن كما يقال : إن الله تعالىٰ يعاقب علىٰ المعصية بمزيد اكتساب السيئات.

وإن الشياطين ليصدون أولئك المعرضين عن هدىٰ الله عن سبيل الحق ويحسب أولئك المعرضون عن هدىٰ الله أنهم مهتدون إلىٰ الحق. (١)

وهؤلاء الضالون المعرضون عن هدىٰ الله يصدق عليهم قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

الهداية سبيل السعادة الوحيد :

إن الهداية هي السبيل الوحيد لسعادة المرء في دنياه وأُخراه، بأن يشرحَ الله صدر صاحبها ويملأ جوانحه أَمْنًا وسلامًا، في حين أن الضلالة

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٢٨)، تفسير القرطبي: (١٦/ ٨٩)، تفسير الآلوسي: (٢٥/ ٨٠).

تنعكس بآثارها السلبية على أصحابها، فتنقلب حياتهم شقاء وتعاسة.

يقول رب العزة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، فليحرص المسلم على أن يلتمس من ربِّه هداه، وذلك حتى يصل إلى غايته ومنتهاه، ويسعد بطاعة خالقه في دنياه ويوم يلقاه.

☙◊❧

بصيرة في بيان مكانة العقل

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ ﴾ [الفجر:٥]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۝٤٣ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

فضل العقل في الإسلام:

إنَّ العقلَ يحظَىٰ في رحاب الإسلام، بمنزلة كريمةٍ ومرتبةٍ عالية، فبسببه كرَّم اللهُ الإنسان واستخلفه في أرضه وائتمنه علىٰ بعض أسرار كونه، وفضَّله علىٰ كثيرٍ من خلقه، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ [الإسراء:٧٠].

هذا التَّفضيل وذلكم التَّكريم، ليس لكون الإنسان يأكل أو يشرب أو يتناسل، فهذه صفات يشترك فيها مع ما يدبُّ معه علىٰ هذه الأرض، بل هو أقلُّ تزوُّدًا وأضعفُ نسلًا من كثير من هذه الدَّوابِّ، وإنَّما شرف بما وهبه الله من عقل يفكر به، ولسانٍ ينطق به، وبما أودعه بين حنايا نفسه من مَلَكَاتٍ جعلته أهلًا وجديرًا بما خلقه الله من أجله وكلَّفه به، **وتتَّضح مكانة العقل في**

الإسلام، من خلال الأمور التالية:

١ - جعل الإسلامُ العقلَ من ضروريات الإنسان الخمسة، التي يجب المحافظة عليها، وهي: الدِّين، النَّفس، العقل، النَّسل، المال.

وشرع من الأحكام والحدود، ما يحمي العقل ويصونُه من التَّلَف، فحرمت الخمر وكل مسكر من مشروب أو مأكول يخامر العقل ويغطيه، وشرع الإسلام حدَّ شارب الخمر، صيانةً له وحفظًا.

٢ - العقل يسمو بالإنسان علىٰ الملائكة: إذ إنَّ الله خلق الملائكة بعقل دون شهوة، وخلق الدَّوابَّ بشهوة من غير عقل، أمَّا الإنسان فهو مُرَكَّبٌ من عقل وشهوة، فمَن ارتقىٰ مِن البشر بعقله وتغلَّب علىٰ شهواته، كان عند الله أفضلَ من الملائكة، بدليل أنَّ الله يباهي بعبده الصَّائم الملائكةَ، كما ذكر رسول الله -ﷺ-، أمَّا من تغلَّبت شهوتُه علىٰ عقله، فإنَّه ينزل إلىٰ مرتبةٍ أقلَّ من الحيوان.

٣ - الأحكام الشرعيَّة في الإسلام، مرتبطةٌ ببلوغ الإنسان واكتمال عقله، وتسقُط عنه التكاليف الشرعيَّة، إذا ما زال عقله بمرض أو جنون أو إغماء أو نوم، قال -ﷺ-: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّىٰ يَحْتَلِمَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّىٰ يَعْقِلَ**».(١)

٤ - أمر اللهُ الإنسان، أن ينشط عقله ويوقظ ذاكرته، كلَّما اعتراهما الغفلة والنسيان، يذكرهما بالعبادة وذكر الله، ليظلَّ العقلُ يقظًا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر

(١) سنن ابن ماجه: (٢٠٤١)، صحيح الجامع: (٣٥١٢).

رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف:٢٤].

ولهذا كان من دعاء المؤمنين، أن يحفظ الله عقولَهم من النِّسيان والخطأ، فذكر الله تبارك وتعالىٰ دعاءهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة:٢٨٦].

٥ - بين الحق - تبارك وتعالىٰ- أنَّ الكفر والإلحاد وفساد العقيدة وانحراف السلوك، سببُه غشاوة العقول واضطراب الفكر واعتلال النظر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس:٦٢].

* قال تعالىٰ: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان:٤٢ - ٤٣].

* قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

- وبناء علىٰ ما سبق نستطيع أن نقول: إنه لا يوجد دين غير الإسلام كرم

العقل والفكر وأشاد بأولي الألباب والنهىٰ، ودعا إلىٰ النظر والتفكر، وحرض علىٰ التعقل والتدبر، وقرأ الناس في كتابه تمجيد العقل وتعظيمه، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر:٥] أي: لذي عقل، وسمي العقل حجرًا لأنه يحجر علىٰ صاحبه، فلا يقع في القبائح، ولا في خوارم المروءة، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] في ثلاثة عشر موضعًا، و ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية: ١٧]، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٧٣] في سبعة مواضع، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٩] في موضعين، و ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، و ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ ﴾ [الأعراف: ١٨٤] في موضعين، و ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤] في أربعة مواضع، و ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد: ٣] في أربعة مواضع.

ومن أروع ما جاء في القرآن قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: ٤٦]، ومعناه: أنه لا يطلب منهم إلا خصلة واحدة، وهي أن يتوجهوا بعقولهم وقلوبهم إلىٰ الله الذي يؤمنون به، وبخالقيته للكون وتدبيره لأمره، مخلصين في طلب الهداية إلىٰ الحقيقة، بعيدا عن تأثير «العقل الجمعي»، وعن الخوف من الناس أو المجاملة لهم، كل فرد مع صديقه ممن يثق به، ويطمئن إليه، أو يفكر وحده، وهو معنىٰ

قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦]، ثم يتفكروا في أمر النبوة، وسيهديهم فكرهم الحر إلىٰ الحق.

قال الشاعر:

وَأَفْضَلُ قَسم الله للمَرْءِ عَقْلُهُ ... فليسَ مِنَ الخَيْراتِ شيءٌ يُقاربُهُ
إِذا أَكْمَلَ الرحْمَنُ للمرءِ عَقْلَهُ ... فقدْ كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ ومآربُهُ

وقال الشاعر:

لَيْسَ الجمالُ بأثوابٍ تُزَيِّنُنَا ... إِنَ الجَمَالَ جَمَالُ العَقْلِ والأَدَبِ

وقال ابن حزم: وحد العقل: ينطوي فيه فعل الطاعات والفضائل واجتناب المعاصي والرذائل، وقد نصَّ الله تعالىٰ في كتابه أن من عصاه لا يعقل، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقٗا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: ١٠-١١].

وحد الحمق: استعمال المعاصي والرذائل، وهو ضد العقل، ولا واسطة بين الحمق والعقل إلا السخف.(١)

العقل من أعظم النعم التي أكرمنا الله بها:

- إن جميع الأفهام لا تختلف علىٰ أن من أعظم النعم التي أكرمنا الله بها نعمة العقل؛ العقل الذي وهبنا الله إياه لنمتاز به عن الحيوان الأعجم والصخر الصلب، فبالعقل يشرف الإنسان، وبالعقل يكلف المرء، وبه يعرف

(١) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص: ٦٥ - ٦٦ بتصرف.

خالقه جل شأنه، ذلكم العقل الذي يميز به بين الخير والشر والهدىٰ والضلالة، إذا استعمله الإنسان كان سببًا في سلوك طريق الهدىٰ، والبعد عن موارد الردىٰ، العقل الذي يعد من أكبر الطاقات البشرية، إنه لنعمة عظمىٰ وسمة جلىٰ امتن الله بها علينا: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك:٢٣] إنه لا يعلم قدر العقل إلا من وهبه، وإلا كان هو والعير في الفلاة سواء.

✍ **قيل لابن المبارك**: ما خير ما أُعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن؛ قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل.(١)

حكمة الله أن يكون الطفل الوليد بلا عقل اكتسابي:

- ومن تأمل حكمة الله جل وعلا في أن يكون الطفل الوليد بلا عقل اكتسابي لأدرك أثر هذه النعمة عليه، حينما يوهب شيئًا بعدما منع منه، ليكون الإحساس به أشد وقعًا، وأجدىٰ نفعًا: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

✍ **يقول ابن القيم** رحمه الله: لو ولدت أيها الإنسان عاقلًا كحالك في كبرك لتنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص؛ لأنك ترىٰ نفسك محمولًا رضيعًا،

---

(١) روضة العقلاء: (ص: ١٧).

عاجزًا مسجونًا في المهد، أو كنت ممن ابتلي بفقد والديه، فكنت كالواله الحيران، ولكنها محض الحكمة والرحمة بك والتدبير. (١)

العقل الذي تجرد عن الهوى يستطيع القيام بمهمته:

إن العقل البشري الذي يستطيع أن يؤدي وظيفته على أكمل وجه، هو ذلكم العقل الذي تجرد عن الهوىٰ، وخلص من رقة التقليد الأعمىٰ، فلم يتأثر بالآراء والأفكار المنحرفة، التي تدفعه للوقوع في الضيق والضلال، كما أنه لم يعطل قواه باتباع أعمىٰ فينجر به إلىٰ انحراف ذريعٍ وزيغٍ مردٍ، هذا هو العقل الذي يمكن أن يحمل رسالة الإسلام حملًا صحيحًا، وأما الذين كبلوا عقولهم وعطلوها عن موارد النهل الصافي فهم الذين قال الله عنهم: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣]، ولأجل ذلك كان جواب أمثال هؤلاء يوم القيامة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك:١٠-١١]. (٢)

قصة:

حُكي أن جماعة من النصارىٰ تحدثوا فيما بينهم، فقال قائل منهم: ما

---

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ٢٥٧). بتصرف.

(٢) وجماع ما مضىٰ ذكره أبو القاسم الأصفهاني رحمه الله بقوله: العقل نوعان: عقلٌ أُعين بالتوفيق، وعقلٌ كيد بالخذلان.

أقل عقول المسلمين، يزعمون أن نبيهم كان راعيًا للغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة؟ ! فقال له آخر من بينهم: أما هم فوالله أعقل منا، فإن الله بحكمته يسترعي النبي الحيوان البهيم فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلىٰ رعاية الحيوان الناطق، حكمة من الله وتدريجًا لعبده، ولكن نحن جئنا إلىٰ مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكي فقلنا: هذا إلهنا الذي خلق السماوات والأرض فأمسك القوم عنه.(١)

أين موقع العقل؟

إن العقل جوهرة ثمينة، يحوطها العقلاء بالرعاية والحماية؛ اعترافًا بفضلها وخوفًا من ضياعها وفقدانها بالعقل يشرف العقلاء فيستعلمون عقولهم فيما خلقت له، فللعقل قيمة عظيمة جسيمة؛ لكن أين موقعه؟

هناك من يقول: إن إبراهيم عليه السلام ما اهتدىٰ إلىٰ ربه إلا بالعقل، وكذب من قال ذلك!

إن قصة إبراهيم عليه السلام تنادي بغير ذلك وهي معروفة في سورة الأنعام:
﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: جامع الآداب لابن القيم (١/ ٢١٨) من كلام ابن القيم - تحقيق يسري السيد محمد.

وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٩].

أين - في هذه الآيات- ما يدل على أنه اهتدى بالعقل؟! يكذب هذه الدعوة قوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١].

﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ** ﴾، من قبل أن يفكر في هذه القضية أساسًا، فالهداية نعمة من الله، ومنحةٌ إلهية ليس للعقل فيها دور أبدًا، ولذلك يخطئ الناس عندما يقولون: إن الله عرفوه بالعقل.

لا والله! لا يعرف ربنا بالعقل استقلالًا أبدًا، لأن العقل قاصر على ما دخل تحت الحواس؛ ولذلك ما خرج عن الحواس لا يتخيله العقل ولا يستطيع وصفه ولا توصيفه، والعقل لا يستطيع وصف الجنة ولا وصف النار، ولا وصف الملائكة ولا الشياطين.

* قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**».(١)

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا يُشْبِهُ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءَ» (٢).

---

(١) البخاري: (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم: (٢٨٢٤).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ٤١٦).

- فيها نخلٌ ورمان، هل هي كنخلنا ورماننا؟ لا.

- فيها خمر لذة للشاربين هل هي كخمرتنا؟ لا.

- فيها لبنٌ لا يتغير طعمه، هل هو كلبننا؟ لا.

- فيها ماء غير آسنٍ، هل هو كمائنا؟ لا.

- نعم فيها الاسم، لكن الجنس الوصف الطعم مختلف تمامًا ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر فكيف يعقله المرء إذًا؟!

نوافذ العقل علىٰ الدنيا هي الحواس والله تبارك وتعالىٰ لا يقع تحت حاسة بشر، فكيف يمكن أن يهتدي العبد إلىٰ ربه بعقله؟! أبدًا.

الهداية منحة من الله ثم يأتي دور العقل ثانيًا ليثبت هذه المنحة.

إذًا دور العقل أن يكون رقم: (٢)، ولا يكون قبل النقل أبدًا.

وإنما ضل أهل البدع بسبب أصلهم الفاسد، وهو تقديم العقل علىٰ النقل.

أول معصية سببها تحكيم العقل:

إن أول من عارض الله بعقله هو إبليس اللعين، فهو أول من عارض الشارع الحكيم، فقد حكم عقله حين أمره الله ﷻ بالسجود لآدم: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦] فأول معصية كانت في هذا الكون سببها تقديم العقل وتحكيمه.

مناظرة بين العقل والنقل:

قال القائل:

علم العليم وعقل العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالعلم قال: أنا أحرزت غايته ... والعقل قال: أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلم إفصاحًا وقال له ... بأينا الله في قرآنه اتصفا؟
فأيقن العقل أن العلم سيده ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

بصيرة في العقل والجنون

لقد أنعم الله علينا بنعم لا يحصيها عدٌّ، ومنحنا من الخيرات ما لا يحدُّه حد، وتأتي نعمة العقل في قمة هذه النعم، فلولا العقل لاختلت أمورنا واضطربت أحوالنا، وتعاطينا من الأفعال والتصرفات ما تستقبحه النفوس وتزدريه العقول.

✍ **يقول الحسن البصري:**

اعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ أُسًّا وَلِكُلِّ أَدَبٍ يَنْبُوعًا، وَأُسُّ الْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ الْآدَابِ هُوَ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلدِّينِ أَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا، فَأَوْجَبَ الدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ الدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِأَحْكَامِهِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ، وَتَبَايُنِ أَغْرَاضِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ، وَجَعَلَ مَا تَعَبَّدَهُمْ بِهِ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا وَجَبَ بِالْعَقْلِ فَوَكَّدَهُ الشَّرْعُ، وَقِسْمًا جَازَ فِي الْعَقْلِ فَأَوْجَبَهُ الشَّرْعُ فَكَانَ الْعَقْلُ لَهُمَا عِمَادًا. (١)

ويقول الشاعر:

يَعِيشُ الْفَتَىٰ بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ ... عَلَىٰ الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنْ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ

---

(١) أدب الدنيا والدين: (ص: ١٧).

إذَا أَكْمَـلَ الـرَّحْمَنُ لِلْمَـرْءِ عَقْلَـهُ ... فَقَـدْ كَمُلَـتْ أَخْلَاقُـهُ وَمَآرِبُـهْ(١)

ومما أُثر عن نبي الله سليمان عليه السلام قوله: ما ارتدى العبد رداءً أفضل وأجمل من رداء العقل، إن انكسر جبره، وإن ذلَّ أعزَّه، وإن اعوجَّ أقامه، وإن عثر رفعه، وإن افتقر أغناه، وإن انكشف ستره.

أهم وظيفة للعقل:

ولئن كانت للعقل وظائفه التي ترقى به إلى هذا المستوى فإن أهم وظائفه وأعلاه قدرًا أن يستدل الإنسان به على خالقه، ويلتزم بما يأمره به، وينتهي عما ينهاه عنه.

✍ **سئل أحد الحكماء**: أي منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب.

✍ **وسئل آخر عن العقل**، متى يعرف؟، قال: إذا نهاك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل.

- وفي ضوء هذا المعنى نجد أن لفظ العقل ومشتقّاته ورد في القرآن الكريم ٤٩ مرة، ولم يرد في أيٍّ منها العقل بمعناه المادي أو الحسي، وإنما أراد به ما يدل صاحبه على الهدى ويرده عن الردى، وفيما يلي بعض الأمثلة:

* يقول ربُّ العزة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

---

(١) أدب الدنيا والدين: (ص: ١٨).

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

- وقد يستعمل القرآن الكريم لفظة (اللب) ومعناها: ما ذكا من العقل ويستخدمها للدلالة علىٰ نفس المعنىٰ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكريمات، التي تعلمنا أن العقلاء حقًّا هم الذين عرفوا ربَّهم، وسلكوا سبيله، واهتدوا بهديه، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته.

من عطّلوا العقل عن مهمته:

* رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «**مَا اكْتَسَبَ الْمَرْءُ مِثْلَ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَىٰ هُدًىٰ، أَوْ يَرُدُّهُ عَنْ رَدًىٰ**».(١)

* وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنَّهُ قَالَ: «**لِكُلِّ شَيْءٍ عُمِلَ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ عَمَلِ الْمَرْءِ عَقْلُهُ فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفُجَّارِ** ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠]».(٢)

في الوقت نفسه يَنْعِي القرآن الكريم علىٰ من عطَّلوا عقولهم عن تلك الوظيفة، وانطلقوا يهيمون في هذه الدنيا بلا هداية ربَّانية، أو توجيهات إلهيّة، فينفي عنهم العقل، وينزل بهم عن رتبة الآدميين، وفيما يلي بعض الأمثلة:

* يقول ربُّ العزة: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ١٧). شعب الإيمان (٦/ ٣٦٧)، وسنده ضعيف.

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ١٧).

هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٠٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٌۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

* ويقول تعالىٰ فيما يُقرُّ به الكفار ويعترفون يوم القيامة: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠]....إلىٰ غير ذلك من الآيات.

الدلالة الحقيقية للعقل والجنون:

وقد استنبط سلف الأمة الصالح من هذه الإشارات القرآنية الدلالة الحقيقية للعقل والجنون، فلم ينظروا إلىٰ الجانب العقلي إلا من زاوية التكليف من عدمه، فمن وهبه الله العقل والتمييز فهو مكلف شرعًا،

ومحاسب علىٰ ما يقوم به، فإن ابتلي بفقدان العقل والتمييز فقد رفع القلم عنه.

فإذا وهب الله الإنسان عقلًا مميِّزًا، ثم سار في طريق الضلال، وسلك سبيل الغواية، فهذا في ضوء ما ذكرنا من أدلة، وفي نظر السلف الصالح هو المجنون حقًّا، وإن غاص تحت الماء، وطار في الهواء، واخترع وابتكر.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وسئل سفيان الثوريُّ: من المجنون؟ قال: من لم يميِّز رشده من غيِّه.

وسئل خلف بن أيوب عن المجنون: فقال: من عمل لدنياه، ووافق هواه وآثر علىٰ ربّه سواه.

ومرَّ صلة بن أشيم بقوم قد اجتمعوا علىٰ رجل مقيد. فقال: من هذا؟ قالوا: مجنون. فقال: لا تقولوا مثل هذا، وإنما المجنون مثلي ومثلكم، يُعَمِّرُ الدنيا، ويُخَرِّبُ الآخرة.

وقيل لأحد السلف: من المجنون؟ قال: مَن لم يبال ما نقص من دينه بعد أن سلمت له دنياه، ومن خَرَّب آخرته بإصلاحه لدنيا غيره.

عقوبة من عطَّلوا عقولهم عن وظيفتها:

إن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالرجس معناه: اللَّعْنَة فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَاب فِي الْآخِرَة. (١) وهذا هو الجزاء الذي جعله الله لمن آثر الكفر على الإيمان.

وهذا الجزاء نفسه أي الرجس جعله الله تعالىٰ عقوبة لمن عطّلوا عقولهم عن وظيفتها، وساروا بها علىٰ غير هدىٰ.

يقول ربُّ العزَّة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠].

وبالنظر في مجموع الآيتين معًا يتضح لنا أن الذين لا يؤمنون هم الذين لا يعقلون، وأن اللعنة في الدنيا والآخرة هي العقوبة المقرَّرة لمن ألغىٰ عقله ووافق هواه، وآثر علىٰ ربِّه سواه.

فليحرص المرء علىٰ استثمار عقله فيما يعود عليه بالنفع العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة، وليحذر أن يسوقه هواه إلىٰ مخالفة مولاه، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، قال ﷺ: «**الْكَيِّسُ (٢) مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ**». (٣)

---

(١) مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (١/ ٢٨٣). مجمع بحار الأنوار (٢/ ٢٩٠).
(٢) أي: العاقل.
(٣) سنن ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣). سنن الترمذي: (٤/ ٢١٩). ضعيف الجامع: (ص: ٦٢٥).

بصيرة في التفكير والتقليد

إن الله بحكمته جعل لكل عضو وظيفة، ووظيفة العقل هي التأمل والنظر والتفكير، ولو تعطلت هذه القوىٰ بطل عمل العقل، وتوقف عن أهم وظائفه وتبع ذلك توقف نشاط الحياة، مما يتسبب عنه الجمود والموت والفناء.

الحضارة التي تنعم بها البشرية نتاج عقل ذكي ملهم:

إن ما ينعم به البشر من حضارة راقية، ومدنية زاهرة، إنما هي نتاج عقل ذكي ملهم، وثمرة تفكير عميق مشرق.

ولولا يقظة العقل ما اهتدت الإنسانية إلىٰ قوانين الحياة، وعلل الوجود، وسنن الله في الكون، وما ارتقت خطوة واحدة، ولبقيت علىٰ الحالة التي خلقت عليها دون أن تتغير أو تتطور.

ولكن العقل الذكي استطاع بمحاولاته المظفرة، أن ينطلق من إساره، ويحطم القيود التي فرضت عليه زمنًا طويلًا، فأمكنه أن يستخرج من الأرض كنوزها، ويتغلب علىٰ جَدْبها، ويزيد في إنتاجها، ويقرب المسافات البعيدة، ويخفف من الأدواء الفتاكة، ويكتشف هذه المعلومات في البر والبحر والجو، والتي تبلغ بالحياة إلىٰ مستوىٰ رفيع، ما كان لأحد من أجدادنا ليحلم به.

الإسلام يريد للعقل أن ينهض:

إن الإسلام أراد للعقل أن ينهض من عقاله، ويفيق من سُباته، فدعا إلى النظر والتفكير، وعدَّ ذلك من جوهر العبادة فقال أعزُّ من قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس:١٠١]، وقال أعزُّ من قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ ﴾ [الأنعام:١١]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [النمل:٦٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [الروم:٤٢]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ:٤٦].

وقال عليٌّ رضي الله عنه سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «**لا فَقْرَ أَشَدَّ مِنَ الْجَهْلِ، وَلا مَالَ أَعْوَدَ مِنَ الْعَقْلِ، وَلا وَحْشَةَ أَوْحَشَ مِنَ الْعُجْبِ، وَلا اسْتِظْهَارَ أَوْفَقَ مِنَ الْمُشَاوَرَةِ، وَلا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ، وَلا عِبَادَةَ كَالتَّفْكِيرِ...**».(١)

✍ **وقال السري السقطي**: «فكر ساعة خير من عبادة سنة».(٢)

- وعَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَىٰ عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (١٠/ ٢٨٣).
(٢) كشف الخفاء: (١/ ٣٧٠).

ابْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...**﴾» الْآيَةَ كُلَّهَا [آل عمران: ١٩٠].(١)

- وَرُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ، إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَىٰ النُّجُومِ وَإِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لَكِ رَبًّا وَخَالِقًا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَنَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ فَغَفَرَ لَهُ**».(٢)

عاقبة من يجحدون نعمة العقل:

والذين يجحدون نعمة العقل ولا يستعملونه فيما خلق من أجله، ويغفلون عن آيات الله، هم موضع الازدراء والتحقير، والله سبحانه يعتب

(١) صحيح ابن حبان: (٢/ ٣٨٦)، وانظر السلسلة الصحيحة: (٦٨)، «التعليق الرغيب» (٢/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وفي إسناده من لا يعرف. تفسير القرطبي: (٤/ ٣١٤)، تفسير الزمخشري: (١/ ٤٥٤).

عليهم فيقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

ويقول: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام:٤]، ويقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر:٨١]، ويقول: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

وتعطيل العقل عن وظيفته يهبط بالإنسان إلىٰ مستوىٰ أقل من مستوىٰ الحيوان، وهو الذي حال بين الأقدميين وبين النفوذ إلىٰ الحقائق في الآفاق وفي الأنفس يقول أعزُّ من قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

التقليد حجاب التفكير:

إن التقليد هو المانع للعقل من الانطلاق، والمعوق له عن التفكير.

ومن ثم فالله يثني علىٰ الذين يخلصون للحقائق، ويميزون بين الأشياء بعد البحث والتمحيص، فيأخذون الأحسن ويتركون غيره قال أعز من قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧، ١٨].

ويندد بالمقلدين الذين لا يفكرون إلا بعقول غيرهم، ويجمدون علىٰ القديم الموروث المألوف ولو كان الجديد أهدىٰ وأجدىٰ لهم قال تعالىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

والعجيب أن جميع الأمم التي أرسل الله إليها رسلًا قابلوا دعوة الرسل بالتكذيب والإنكار بسبب الموروث المألوف عن الآباء ولقد ضرب القرآن لنا نماذج عديدةً لهؤلاء منها :

١- أرسل الله ﷻ نوحًا ﵇ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسبب الموروث المألوف عن الآباء قال تعالىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون:٢٤].

٢- ثم أرسل الله ﷻ إبراهيم ﵇ فصدوا عن سبيل الله أيضًا بسبب الموروث المألوف عن الآباء قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء:٥١ - ٥٣].

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء:٦٩ - ٧٤].

٣- ثم أرسل الله ﷻ موسىٰ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسبب الموروث المألوف عن الآباء قال تعالىٰ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا

جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٧٧ - ٧٨].

٤- وأرسل الله ﷻ صالحًا عليه السلام إلىٰ ثمود، ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود:٦٢].

٥- وأرسل الله ﷻ شعيبًا إلىٰ مدين، ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود:٨٧].

٦- وجاء نبينا ﷺ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسبب الموروث المألوف عن الآباء أيضًا قال تعالىٰ: ﴿ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف:٢١ - ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴾ [هود:١٠٩].

ميادين التفكير:

والإسلام حين دعا إلىٰ التفكير ورحب به، إنما أراد أن يكون ذلك في دائرة نطاق العقل وحدود مداركه، فدعا إلىٰ النظر فيما خلق الله من شيءٍ في

السموات والأرض، وفي الإنسان نفسه وفي الجماعات البشرية، ولم يحظر ولم يمنع على الإنسان إلا التفكير في ذات الله، لأن ذات الله فوق الإدراك قال أعز من قال: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠]، وقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

ورسول الله ﷺ يقول: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ فَتَهْلِكُوا**».(١)

دعوة القرآن إلى النظر والتفكير في رحاب الكون الفسيح:

إنَّ في القرآن آياتٍ عديدةً تدعونا إلىٰ النظر والتفكير في رحاب الكون الفسيح ولو أردنا سرد هذه الآيات سيطول بنا الكلام جدًّا لذلك نذكر طرفًا منها:

* يقول أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة:١٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(١) العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني: (١/ ٢١٥)، صحيح الجامع: (٢٩٧٦).

لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

* وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق: ٦ - ١١].

* وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٥، ٦]

- وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

* وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

دعوة القرآن إلى النظر في الجماعة البشرية:

وكما دعا القرآن إلىٰ النظر والتفكير في رحاب الكون نجده يدعو في آياتٍ عديدةٍ إلىٰ النظر في الجماعة البشرية يقول أعزُّ من قال: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٥ – ٨]

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

دعوة القرآن إلى النظر في الإنسان نفسه:

* قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم:٩].

* قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل:٦٩].

وهكذا يمضي القرآن في مئات الآيات، يدعو إلىٰ النظر في مجالات الكون الفسيحة والحكمة من وراء هذا النظر أن يهتدي الإنسان إلىٰ مبدعِ العالم ومنشئه وخالقه، وليعرف حقائق الأشياء وخصائصها، كي يتسنىٰ له

الانتفاع بما أُودِعَ فيها من قوىٰ.

وتبدو عناية القرآن في الدعوة إلىٰ النظر في الإنسان ومجتمعه، ليكشف عن صفاته ومميزاته كفرد، ويكشف عن السنن والقوانين التي تحكم مجتمعه، والتي لا يمكن معرفتها إلا بالبحث الدقيق والنظر العميق والملاحظة الواعية.

وجوب التفكير في الآيات المتلوة:

سبق معنا أن عرفنا أن التفكير في الآيات الكونية واجب وكذلك يجب التفكير في آيات الله المتلوة وهي القرآن الكريم وليس من الميسور فهمُ أسرار وإدراك معانيه إلا بعد التضرع إلىٰ الله وأعمال الفكر وإمعان النظر قال أعزُّ من قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وجوب الاجتهاد فيما لا نص فيه:

من مزايا الإسلام أنه يوجب الاجتهاد فيما لا نص فيه من كتابٍ ولا سُنة بل يجعل الإسلام القياس مصدرًا من مصادر التشريع.

والاجتهاد يقتضي فهم الواقع فهمًا دقيقًا، وإدراكه إدراكًا واعيًا، كما يقتضي الإحاطة بعلوم الشريعة وفقه إصرارها.

ولا يُجيز الإسلام أن يخلو عصر من إمامٍ مجتهدٍ يُبَصِّرُ الناس بما يَجِدُّ من قضايا تحتاج إلىٰ معرفة حكم الله فيها.

والمجتهد مأجور علىٰ كل حال، وإن لم يهتد إلىٰ الحق أو يُصِب حكم الله، يقول الرسول ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(١).

إن آفاق التفكير في الإسلام كما يبدو رحبة، وميادينه فسيحة، لا تُحد بحد ولا تقف عند نهاية قال أعزُّ من قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ [البقرة:٢١٩، ٢٢٠].

وما أوسع الدنيا! لكنَّ سعتها ليست بشيء في جانب سعة الآخرة.

نتيجة الدعوة إلى التفكير:

كان من نتاج هذه الدعوة المباركة إلىٰ التفكير، أن أخذت العقول حريتها من النظر والتأمل ونهض كلُّ إمامٍ من أئمة العلم والفكر يبحث ويدرس ويجتهد في العقائد، والفقه، والفلسفة، وسائر العلوم، والفنون، دون أن يجد من يعوق نشاطه الفكري، واستقلاله العقلي، فكان من ذلك كله هذه الحضارة التي نفخر بها نحن المسلمون، والتي كانت هي الأساس التي قامت عليها نهضة أوربا ومدنيتها، وشهد بذلك شاهد من أهلها. قال الأستاذ ليبيري: لو لم يظهر العرب علىٰ مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الحديثة عدة قرون.

---

(١) البخاري: (٧٣٥٢) واللفظ له، ومسلم: (١٧١٦).

بصيرة في خطر العُجْب

إننا يجب أن نعلم أن قصص القرآن الكريم ليست قصصًا فحسب، بل هي قوانين وقواعد.

- **وقصة صاحب الجنتين**: لولا أنها تمثل نماذج متكررة إلىٰ نهاية الحياة، لما أصبحت قرآنًا يتلىٰ، ولنتأمل ما حكاه لنا القرآن.

- **صاحب الجنتين**: أعجب بما لديه من أموال وجنات، واغتر بها ولم يقبل نصح صاحبه، بل قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: ٣٤].

- **هذه الكلمة كلمة**: (أنا) ضيعت هذا الرجل وكبرت عنده نفسه حتىٰ ظن أنه سيكون له عند الله مكانة في الآخرة خير مما هو عليه في الدنيا فقال كما حكىٰ القرآن: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: ٣٦].

- فالعُجْب وظهور كلمة (أنا) ضيعت هذا الرجل، كما ضيعت إبليس من قبله، فعندما كبرت عند إبليس ذاته وتضخمت، حدا به ذلك إلىٰ عدم الانصياع لأمر الله بالسجود لآدم عليه السلام معللًا ذلك بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

وضيعت كلمة (أنا) فرعون لما قال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

- إن الإنسان كلما كان في نعمة، وقال: (أنا)، لولا حكمتي البالغة، لولا خبراتي المتراكمة، لولا أنني يقظ، لولا أنني....... هذه الكلمة تجعل صاحبها مشركًا بالله.

توضيح لمعنى الشرك المراد هنا:

إن الشرك نوعان: شرك جلي ظاهر، وشرك خفي مستتر.

- **الشرك الجلي:**

هو اعتقاد بالنفع والضر في غير الله من الأحياء والأموات، وكذلك الاعتقاد في الشجر والحجر والكوكب والساحر والكاهن، ومن ثمّ تتوجه القلوب بالتعظيم، والألسنة بالسؤال وطلب الحاجات، وهو أمر خطير ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحج: ٣١].

- **الشرك الخفي:**

أما الشرك الخفي فهو الذي يخفىٰ وجوده علىٰ الإنسان من الناحية الشكلية بمعنىٰ أنه لا يعترف بوجوده لكنه متلبس به من الناحية الموضوعية.

ومن أهم صور الشرك الخفي رؤية الإنسان لنفسه بعين التعظيم، واعتقاده في الأسباب التي حباه الله إياها أنها ملك ذاتي له، يمتلكها،

ويستدعيها في الوقت الذي يشاء، وأنه يفضل بها غيره.. هذا الاعتقاد قد يكون في جزئية صغيرة، وقد يكون في كل الجزئيات التي تشكل شخصية الإنسان.

✍ **ولقد أجاد الشيخ الغزالي في توضيح هذا المعنىٰ فقال:** تأملت في قصة الرجل المغرور صاحب الجنتين، الذي أغراه ثراؤه بالتطاول والكفر! فخذله الله، ودمَّر جنتيه، وأمسىٰ بعد الغنىٰ هالكا، لا يجد أيَّ شيء، وأخذ يصيح ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الكهف: ٤٢- ٤٣].

سألت نفسي: بمن أشرك هذا الرجل مع الله؟ لم يسبق في سرد القصة اسم صنم معبود، أو جبار يعتز الأغرار بالانتماء إليه..! وكان الجواب العاجل: لقد كانت نفسه صنمه، وإلهه هواه!!

ليس من الضروري، أن يعتمد الشرك علىٰ صورة تنحت، أو رئيس يتفرعن.. يكفي أن يكون المرء فارغ القلب من الله، فارغ الرأس من الله، مليئا بشهواته وحدها، يذكر دنياه، ويجحد آخرته، ينطلق في الدنيا انطلاق الوحش في الغاب، ما يسمع إلا نداء غرائزه وحسب. إذا لم يكن هذا كفرًا فما الكفر؟(١)

✍ **قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ:** عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ. وَلَيْسَ إلَىٰ مَا يُكْسِبُهُ الْكِبْرُ مِنْ الْمَقْتِ حَدٌّ، وَلَا إلَىٰ مَا يَنْتَهِي إلَيْهِ الْعُجْبُ مِنْ الْجَهْلِ

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم: (ص: ٤٣).

غَايَةٌ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيُطْفِئَ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا انْتَشَرَ، وَيَسْلُبَ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا اشْتَهَرَ. وَنَاهِيَك بِسَيِّئَةٍ تُحْبِطُ كُلَّ حَسَنَةٍ وَبِمَذَمَّةٍ تَهْدِمُ كُلَّ فَضِيلَةٍ، مَعَ مَا يُثِيرُهُ مِنْ حَنَقٍ وَيُكْسِبُهُ مِنْ حِقْدٍ.

- **حَكَىٰ عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ قَالَ**: قِيلَ لِلْحَجَّاجِ كَيْفَ وَجَدْت مَنْزِلَك بِالْعِرَاقِ؟ قَالَ: خَيْرُ مَنْزِلٍ لَوْ كَانَ اللهُ بَلَّغَنِي قَتْلَ أَرْبَعَةٍ فَتَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِدِمَائِهِمْ:

- **مُقَاتِلُ بْنُ مُسْمِعٍ** وَلِي سِجِسْتَانَ فَأَتَاهُ النَّاسُ فَأَعْطَاهُمْ الْأَمْوَالَ، فَلَمَّا عُزِلَ دَخَلَ مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ فَبَسَطَ النَّاسُ لَهُ أَرْدِيَتَهُمْ فَمَشَىٰ عَلَيْهَا، وَقَالَ لِرَجُلٍ يُمَاشِيهِ: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ.

- **وَعَبْدُ اللهِ بْنُ زِيَادِ بْنِ ظَبْيَانَ التَّيْمِيُّ** خَوَّفَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ أَمْرٌ فَخَطَبَ خُطْبَةً أَوْجَزَ فِيهَا، فَنَادَىٰ النَّاسُ مِنْ أَعْرَاضِ الْمَسْجِدِ: أَكْثَرَ اللهُ فِينَا مِثْلَك. فَقَالَ: لَقَدْ كَلَّفْتُمْ اللهَ شَطَطًا.

- **وَمَعْبَدُ بْنُ زُرَارَةَ** كَانَ ذَات يَوْمٍ جَالِسًا فِي طَرِيقٍ فَمَرَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ مَوْضِعِ كَذَا؟ فَقَالَ: يَا هَنَاهُ مِثْلِي يَكُونُ مِنْ عَبِيدِ اللهِ.

- **وَأَبُو شِمَالٍ الْأَسَدِيُّ** أَضَلَّ رَاحِلَتَهُ فَالْتَمَسَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَجِدُوهَا، فَقَالَ: وَاللهِ إنْ لَمْ يَرُدَّ إلَيَّ رَاحِلَتِي لَا صَلَّيْتُ لَهُ صَلَاةً أَبَدًا. فَالْتَمَسَهَا النَّاسُ فَوَجَدُوهَا، فَقَالُوا لَهُ: قَدْ رَدَّ اللهُ رَاحِلَتَك فَصَلِّ. فَقَالَ: إنَّ يَمِينِي يَمِينُ مُصِرٍّ. فَانْظُرْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ كَيْفَ أَفْضَىٰ بِهِم الْعُجْبُ إِلَىٰ حُمْقٍ صَارُوا بِهِ نَكَالًا فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَثَلًا فِي الْآخَرِينَ.

وَلَوْ تَصَوَّرَ الْمُعْجَبُ الْمُتَكَبِّرُ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ جِبِلَّةٍ، وَبُلِيَ بِهِ مِنْ مِهْنَةٍ، لَخَفَضَ جَنَاحَ نَفْسِهِ وَاسْتَبْدَلَ لِينًا مِنْ عُتُوِّهِ، وَسُكُوتًا مِنْ نُفُورِهِ.

- **وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ**: عَجِبْتُ لِمَنْ جَرَىٰ فِي مَجْرَىٰ الْبَوْلِ مَرَّتَيْنِ كَيْفَ يَتَكَبَّرُ، وَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ الْإِنْسَانَ فَقَالَ:

يَا مُظْهِرَ الْكِبْرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ ... أُنْظُرْ خَلَاكَ فَإِنَّ النَّتْنَ تَثْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ ... مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبْرَ شُبَّانٌ وَلَا شِيبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ مِثْلُ الرَّأْسِ مَكْرُمَةً ... وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنْ الْأَقْذَارِ مَضْرُوبُ
أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذْنٌ رِيحُهَا سَهِكٌ ... وَالْعَيْنُ مُرْفَضَّةٌ وَالثَّغْرُ مَلْعُوبُ
يَا ابْنَ التُّرَابِ وَمَأْكُولَ التُّرَابِ غَدًا ... أَقْصِرْ فَإِنَّك مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ

وَأَحَقُّ مَنْ كَانَ لِلْكِبْرِ مُجَانِبًا، وَلِلْإِعْجَابِ مُبَايِنًا، مَنْ جَلَّ فِي الدُّنْيَا قَدْرُهُ، وَعَظُمَ فِيهَا خَطَرُهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسْتَقِلُّ بِعَالِي هِمَّتِهِ كُلَّ كَثِيرٍ، وَيَسْتَصْغِرُ مَعَهَا كُلَّ كَبِيرٍ.(١)

أمثلة من الواقع:

فإذا ما أردنا أمثلة عملية توضح مفهوم الشرك بالنفس والذي يطلق عليه العلماء: العُجب، سنجد أمامنا الكثير والكثير.

- فالطالب الذي حباه الله موهبة الفهم والحفظ قد يقع في هذا النوع من الشرك إذا ما اعتقد في نفسه القدرة الذاتية علىٰ الفهم والحفظ.

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٣٧: ٢٣٨).

- والمرأة التي تحسن إعداد الطعام قد تقع في نفس الأمر باعتقادها في خبراتها وقدرتها علىٰ القيام بذلك متىٰ شاءت.

- وكذلك المدرس إذا اعتقد في قدرته علىٰ شرح الدروس، معتمدًا علىٰ إمكاناته، وخبراته، وتاريخه الطويل في التدريس.

- والداعية الذي يعظ الناس، ويدعوهم فيتأثرون بحديثه، قد يقع في نفس الأمر إذا ما اعتقد في بلاغته وحفظه وقدرته علىٰ التأثير.

- وكذلك كل من يظن أن عنده شيئًا ذاتيًا ليس عند غيره، مهما كان حجم هذا الشيء.(١)

حقيقة العُجب:

يقول ابن المبارك: العُجب أن ترىٰ أن عندك شيئًا ليس عند غيرك.(٢)

فهذا هو جوهر العُجب: أن ترىٰ أن عندك شيئًا ذاتيًا تتملكه، وليس عند غيرك.

أن ترىٰ أن عندك مالًا.. أولادًا.. ذكاءً.. موهبة.. كساءً ليس عند غيرك.

فإن قلت ولكن بالفعل عندي من هذه الأشياء ما لا أجده عند غيري.

نعم كل منّا عنده أشياء ليست عند غيره، ولكن هذه الأشياء ملك من؟!

---

(١) حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا: (ص: ١٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ٨/ ٤٠٧.

يقول تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠].

فكل ما معنا من أصغر شيء إلىٰ أكبره ملك لله ﷻ، أعارنا إياه لننتفع به، ونمتحن فيه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فلا يملك أحد – غير الله – شيئًا في هذا الكون ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢].

فإن اعتقد أحدنا أن المال الذي معه هو ماله لا مال الله، وفرح به، واطمأن لوجوده معه فهذا هو الإعجاب بالمال كمن قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. ويتسع هذا المفهوم ليشمل كل شيء يفرح به الإنسان، ويطمئن إلىٰ وجوده معه علىٰ أنه ملك ذاتي له.

حمد النفس:

ومن معاني العُجب كذلك رؤية أحدنا لنفسه بعين الرضا والفرح فيما علمت أو عملت وحمدها علىٰ ذلك، ولو في جزئية صغيرة، ونسيان أن الله ﷻ هو صاحب كل فضل نحن فيه.(١)

قال المحاسبي: العُجب هو حمد النفس علىٰ ما عملت أو علمت،

---

(١) حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا: (ص: ١٩)

ونسيان أن النعم من الله ﷻ. (١)

✍ **ويؤكد علىٰ هذا المعنىٰ أبو حامد الغزالي فيقول:** العُجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعم. (٢)

✍ **سئل رياح القيسي:** يا أبا مهاجر ما الذي أفسد علىٰ العمال أعمالهم؟ فقال: حمد النفس، ونسيان النعم. (٣)

فالعُجب خاطر يهيج في داخلك يدعوك لاستعظام عملك واستكثاره فتقول في نفسك: لقد قويت وصبرت واستطعت فعل كذا... لقد جاهدت... لقد فهمت كذا... صمت في يوم شديد الحر... لقد أنفقت كذا... فرحًا من نفسك بقوتها، معظمًا لها مع نسيان نعمة الله عليك في القيام بذلك. (٤)

الداء الخبيث:

إعجاب المرء بنفسه ولو في جزئية صغيرة يؤدي به إلىٰ استعظامها، ورؤيتها أكبر من غيرها في هذه الجزئية، والاعتقاد في نفعها، وفي أنه يمكنه بذاته أن يستدعيَ موهبته في أي وقت يشاؤه ليظهر من خلالها فضله وتميزه علىٰ غيره.

هذا المفهوم قد يصغر عند البعض، وقد يكبر عند البعض الآخر.

---

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص ٤٢٠.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٥٧٤.
(٣) الرعاية لحقوق الله ص ٤٢٩.
(٤) الرعاية لحقوق الله بتصرف ص ٤٢١، ٤٢٢..

ويظن الكثير منا أن داء الإعجاب بالنفس لا يصيب إلا أهل التصدر بين الناس وأصحاب الإمكانات والمواهب العالية فقط، والحقيقة أن هؤلاء بالفعل أكثر عرضة من غيرهم للإصابة بهذا المرض، إلا أنه لا يصيب هؤلاء فقط، بل يحاول مع الجميع، وينتظر اللحظة المناسبة للتمكن من نفس أي إنسان.

فإن كنت في شك من هذا فما تفسيرك لحالة فقير معدم مجهول بين الناس ومع ذلك هو عند نفسه كبير، بل يرىٰ كذلك تميزه علىٰ غيره بما لديه من مواهب متوهمة؟!

إنه داء خبيث يعرف طريقه جيدًا إلىٰ النفوس، فما من موقف إيجابي يقوم به الإنسان - قولًا كان أو فعلًا - إلا ولهذا الداء محاولة للتأثير علىٰ نفسه، والعمل علىٰ تضخيمها والإعجاب بها ونسيان المنعم سبحانه وتعالىٰ.

✍ **قيل لداود الطائي**: أرأيت رجلًا دخل علىٰ هؤلاء الأمراء، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟! فقال: أخاف عليه السوط. قيل: إنه يقوىٰ عليه(١) فقال: أخاف عليه السيف قيل: إنه يقوىٰ عليه. قال: أخاف عليه الداء الدفين؛ العُجب. (٢)

فالعُجب آفة العقل - أي عقل - يدعوه دومًا إلىٰ استعظام قوله أو عمله أو أفكاره وحمد نفسه علىٰ ذلك.

---

(١) يعني أنه وطن نفسه علىٰ احتماله إن وقع واحتسابه عند الله تعالىٰ.
(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين لابن النحاس ص ٥٢.

اللحظات العابرة:

إذن فالعُجب داء لا يكاد يسلم منه أحد، وأخطر ما يقوم به هو تضخيمه للذات، ومن ثم تكوينه لصنم داخلي في نفس صاحبه يحمل اسمه. مع ملاحظة الفارق بين لحظات الإعجاب بالنفس العابرة، وبين تأصل هذا الداء داخل الإنسان.

ومع ذلك فإن تجاوب المرء مع تلك اللحظات وعدم مقاومتها سيؤدي إلىٰ تمكن الداء من نفسه شيئًا فشيئًا، ومن ثم تكوين الصنم. (١)

تأمل معي هذا الخبر لتدرك خطورة تلك اللحظات، والعمل علىٰ مقاومتها وإغلاق الأبواب أمامها.

- تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «لَبِسْتُ مَرَّةً دِرْعًا لِي جَدِيدًا، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأُعْجِبْتُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «مَا تَنْظُرِينَ؟ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِنَاظِرٍ إِلَيْكِ» قُلْتُ: وَمِمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: «أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَهُ الْعُجْبُ بِزِينَةِ الدُّنْيَا مَقَتَهُ رَبُّهُ عز وجل، حَتَّىٰ يُفَارِقَ تِلْكَ الزِّينَةَ»، قَالَتْ: فَنَزَعْتُهُ فَتَصَدَّقْتُ بِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «عَسَىٰ ذَلِكَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكِ». (٢)

---

(١) حطم صنمك وكن عند نفسك صغيرًا: (ص: ٢١).

(٢) العجب لعمر بن موسىٰ ص ٩٨ - نقلًا عن حلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٣٧.

بصيرة في بيان ضعف الإنسان

خلق الله ﷻ الإنسان ضعيفًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

خلقه ضعيفًا في كل شيء، فلا يستطيع أن يقاوم وساوس الشيطان. وليس بمقدوره أن يقاوم نفسه وشهواتها. ضعيفًا أمام المال والنساء والشهرة والأضواء.

ضعيفًا في جسمانه.. ضعيفًا أمام سلطان النوم.. ضعيفًا أما أصغر الفيروسات.. فالأصل في الإنسان الضعف، وكل مظهر من مظاهر مقاومته لهذه الأشياء فهي بفضل وإعانة من الله ﷻ، ولو تركه لضعفه ما قاوم نظرة محرمة، ولا مالًا حرامًا، ولا مرضًا من الأمراض: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ولكننا كثيرًا ما ننسىٰ هذه الحقيقة، فترىٰ الواحد منا يصدق نفسه بأنه يستطيع مقاومة فتنة النساء، أو المال.. ويستطيع السهر وعدم النوم.. ولا يغريه بريق الذهب و.....

فما الحل إذن لكي يقف الإنسان علىٰ حقيقة ضعفه؟!

الحل يكمن في حسن التعامل مع الدواء الرباني الذي يتمثل في رسائله

للبشر، والتي تكشف لهم حقيقة ضعفهم. هذه الرسائل تأتي الجميع بدون استثناء، وما علينا إلا أن نحسن استقبالها ونفهم المراد منها..

فمن الرسائل الإلهية التي تكشف ضعف الإنسان أمام نفسه:

١ - أنه عاجز، لا يستطيع جلب النفع لنفسه، أو دفع الضر عنها:

من الحقائق أن الإنسان عاجز، فهو كالشخص الذي أصاب الشلل أنحاء جسده.. هل يستطيع دفع ذبابة وقفت علىٰ عينه؟! وكذلك نحن جميعًا.. عجزة يتمثل فينا قوله تعالىٰ: ﴿**قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ**﴾ [الأعراف: ٨٨]. نريد الشيء ولا يحدث، ولا نريده ويحدث..

ومن رحمة الله ﷻ بعباده، تذكيره الدائم لهم بهذه الحقيقة؛ ليشتد شعورهم بالحاجة إليه، وابتعادهم عن الكبر وصوره، والتذكير الإلهي بحقيقة عجز الإنسان يتمثل في صور القهر المختلفة والتي لا يكاد يمر يوم إلا وفيه الكثير منها:

أ- وقوع حشرة عليه كالبعوضة - مثلًا - وعدم قدرته علىٰ التخلص منها أو تفادي لدغتها، وكذلك بعض الزواحف التي يفاجأ الإنسان بوجودها كل فترة، وينتابه شعور بالضعف أمامها.

ب- عدم القدرة علىٰ القيام بالطاعة في بعض الأحيان، فتجد الواحد منا يسمع أذان الفجر ولا يستطيع النهوض للصلاة، ويتمنىٰ صيام يوم من الأيام تطوعًا لله ولا يقدر علىٰ ذلك.

ج- أن يتركك فريسة لمرض من الأمراض ليكشف حجم ضعفك أمام

ميكروب لا يكاد يرىٰ بالعين.

د- ومنها أن يتركك لوساوس الشيطان فتظن سوءًا بالآخرين، وتحسدهم، وتتمنىٰ زوال الخير عنهم ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

هـ - يريد الرجل أن تلد زوجته ولدًا فتأتي أنثي، والأم تريد أن يكون وليدها يشبهها فيشبه أباه..

ز- يذهب أحدنا إلىٰ الفراش متعبًا ويريد النوم فلا يستطيع، وفي يوم آخر يريد السهر لإنجاز بعض أعماله فيغلبه النوم.

ح- نريد الشمس ساطعة غدًا ونحن نتنزه فتمتلئ السماء بالغيوم. نريد تذكر شيء ما فلا نستطيع....

وهكذا من صور القهر الإلهي العديدة والتي تمر علينا جميعًا لتشعرنا بعجزنا التام.

إذن فمن أهم الوسائل التي تكشف للإنسان حقيقة ضعفه: حسن استقباله لرسائل المنع التي تأتيه كل يوم ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

٢ - من الرسائل أنه جاهل:

من طبيعة الإنسان الجهل بعواقب الأمور ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والرسائل التي تذكر الإنسان بحقيقة جهله كثيرة، ولا يكاد يمر يوم إلا وفيه بعض منها..

مثال ذلك: الحوادث التي تمر بالعبد وكأنها تقول له: لو كنت تعلم الغيب ما فعلت ذلك.

فمن يأكل طعامًا ثم يتعب منه أو يصاب بالتسمم، لو كان يعلم الغيب ما أكله.

والذي يشتري ثوبًا فيجده صغيرًا عليه، يكشف له مدىٰ جهله بعواقب الأمور. وكذلك الطالب الذي يذاكر موضوعًا معينًا ويركز فيه جهده، ثم لا يجده أمامه في الامتحان..

فالتوقف عند هذه الأشياء، وتتبعها يُرسِّخ في نفس الإنسان حقيقة جهله، ويدفعه دومًا لاستخارة ربه في كل شيء.

٣ - من الرسائل أنه فقير محتاج:

لو تفكرنا في طبيعة الإنسان سنجده الفقير المحتاج، فالإنسان يحتاج أشياء لا تعد ولا تحصىٰ، والإنسان فقير فقرًا ذاتيًا ومطلقًا..

- فالواحد منا يحتاج دومًا إلىٰ الهواء والأكسجين و الماء والطعام والنوم ليرتاح. ويحتاج إلىٰ حفظ ضربات قلبه، وجريان دمه.

- ويحتاج إلىٰ الدواب لتحمله، والشجر ليظلله.

- ويحتاج إلىٰ إعانة لفعل الطاعة.

- ويحتاج إلىٰ عصمة من فعل المعصية.

- ويحتاج ويحتاج ويحتاج ويحتاج........................

معنىٰ ذلك أن الله ﷻ لو تخلىٰ عن الإنسان وعن إمداده باحتياجاته لهلك، ولصار من أهل الفجور، ولتخطفته الشياطين.

فكيف لنا أن نوقن بهذه الحقيقة وهي الفقير المحتاج؟

الحل في الدواء الرباني..

فعندما يزداد خفقان قلبك، عليك أن تتذكر مدىٰ فقرك إلىٰ الله في حفظ وتعهد هذا القلب.

وعندما يدخل رمش في عينك، عليك بتذكر مدىٰ حاجتك إلىٰ الله في حفظ رموشك.

وعندما يزداد ضغط الدم، أو يصاب أحدنا بالصداع أو آلام في البطن أو الصدر، عليه أن يتذكر مدىٰ احتياجه إلىٰ الله في حفظ أعضائه وأجهزته ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

- عند جدب السماء وانقطاع الماء، ماذا علينا أن نتذكر؟! ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].

- وعندما يُحال بينك وبين الطاعة، عليك أن تتذكر مدىٰ احتياجك لإعانة الله لك في كل طاعة ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

الرسائل الإلهية:

إذن فأهم وسيلة لمعرفة حقيقة الإنسان: حسن التعامل مع رسائل المنع التي تصله من الله بصفة يومية.

رسالة المرض: المرض علىٰ سبيل المثال يحمل رسالة تقول لكل منا: أنت ضعيف لم تستطع مقاومتي.

- أنت عاجز لا تستطيع شفاء نفسك ودفع الضر عنها.

- أنت جاهل لم تعرف أنك ستمرض في هذا الوقت.

- أنت فقير إلىٰ الله في دفع هذا المرض، ودوام حفظ عافيتك.

رسالة الأرق: أنت ضعيف أمام الأرق.

- عاجز لا تستطيع جلب النوم.

- جاهل لا تعرف متىٰ ستنام وإلا لذهبت إلىٰ الفراش في هذا الوقت.

- فقير إلىٰ الله في جلب النوم، وحفظك وأنت نائم..

من هنا تتضح لنا أهمية تتبع مواضع المنع، والتفكر فيها وما تحمله من دلالات والتي من شأنها أن تعرفنا بحقيقتنا ومدىٰ احتياجنا إلىٰ مولانا..

- يُذكر أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ بعض أنبيائه: «أَدْرِكْ لِي لَطِيفَ الْفِطْنَةِ، وَخَفِيَّ اللُّطْفِ، فَإِنِّي أُحِبُّ ذلِكَ. قَالَ: يَا رب وَمَا لَطِيفُ الْفِطْنَةِ؟ قَالَ: إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْكَ ذُبَابَةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا أَوْقَعْتُهَا فَاسْأَلْنِي أَرْفَعْهَا. قَالَ: وَمَا خَفِيُّ اللُّطْفِ؟ قَالَ: إِذَا أَتَتْكَ حَبَّةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا ذَكَرْتُكَ بِهَا»، وقد قال تعالىٰ عن

السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].(١)

وحبذا لو تم ربط التفكر في هذه الآيات والرسائل الإلهية بالإكثار من ذكر (لاحول ولا قوة إلا بالله)، وكذلك كثرة مناجاة الله، والتعبير عن حالة الضعف والعجز والجهل وعظيم الاحتياج إليه، وأنه لا غنىٰ لنا عنه، ولا قيمة لنا بدونه.

* **كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام يَقُولُ:** «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ لَا أَمْلِكُ مَا أَرْجُو، وَلَا أَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَا أُحَاذِرُ، وَأَصْبَحَ الْأَمْرُ بِيَدِ غَيْرِي، وَأَصْبَحْتُ مُرْتَهَنًا بِعَمَلِي، وَلَا فَقِيرَ أَفْقَرُ مِنِّي».(٢)

العجز والفقر الذاتي:

إن المتأمل لسير الرسل والأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وهم أكمل البشر، نجد أنهم كانوا يعيشون في حقيقة عجزهم وفقرهم الذاتي والمطلق لله عز وجل، فهذا شعيب- عليه السلام- يقر بها عندما يخيره قومه بين العودة إلىٰ ملتهم أو إخراجه ومن معه من قريتهم، فيرد عليهم قائلًا: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا(٣) ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٨- ٨٩].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ٣٤).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ٧٩).

(٣) وقوله: (إِذْ نَجَّانَا) أي: نجّىٰ أصحابنا منها، من طريق التغليب بإدخال نفسه في زمرتهم، مع أن الأنبياء معصومون من الكفر. التفسير المنير للزحيلي (٩/ ٧).

وبمثل هذا أجاب إبراهيم- عليه السلام- قومه في حواره معهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وكذلك كان حال موسىٰ- عليه السلام- عندما أخذته ومن معه الرجفة ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰيَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وكان رسولنا محمد ﷺ يعيش بكيانه كلّه في هذه الحقيقة.. فهذا عبد الله ابن حوالة الأزدي رضي الله عنه يقول: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَغْنَمَ عَلَىٰ أَقْدَامِنَا فَرَجَعْنَا، فَلَمْ نَغْنَمْ شَيْئًا، وَعَرَفَ الْجَهْدَ فِي وُجُوهِنَا فَقَامَ فِينَا، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَكِلْهُمْ إِلَيَّ، فَأَضْعُفَ عَنْهُمْ، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَعْجِزُوا عَنْهَا، وَلَا تَكِلْهُمْ إِلَىٰ النَّاسِ فَيَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ**» ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِي، أَوْ قَالَ: عَلَىٰ هَامَتِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا ابْنَ حَوَالَةَ، إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتْ أَرْضَ الْمُقَدَّسَةِ فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ**»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «عَبْدُ اللهِ بْنُ حَوَالَةَ حِمْصِيٌّ». (١)

(١) سنن أبي داود: (٢٥٣٥)، وانظر: صحيح أبي داود: (٢٢٨٦).

بصيرة في الأنانية

قال تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

اقتضت الحكمة الإلهية لعمارة الأرض واستمرار الحياة وازدهارها، أن تكون «الفردية»، وبعبارة أوضح «الأنانية» جزء من الكيان الفطري للإنسان، فالإنسان بما ركب فيه من دوافع نفسية- «أناني» يحب الخير لنفسه، والمنفعة لذاته، قبل كل شيء، وفي الإنسان بلا شك نزعة اجتماعية غيرية، فطرية كذلك، ولكنها، لا تقاوم نزعته الذاتية لو خليت وشأنها.

ومن هنا ترىٰ الإنسان (كل إنسان) حريصًا علىٰ أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع، حريصًا علىٰ الاستئثار به دون غيره، حتىٰ أنه ليشيب ويهرم، ويشب معه الحرص والشح، ولذا وصفه خالقه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وبقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وصور رسول الله ﷺ مبلغ حرص الإنسان علىٰ الدنيا وطمعه في متاعها فقال: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَالِثٌ، وَلَا يَمْلَأُ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ تَابَ**». (١)

(١) رواه الترمذي: (٢٣٣٧)، وانظر السلسلة الصحيحة: (٢٩٠٩).

خطر تمكن الأنانية من النفس:

إذا تُرك الإنسان لهذه الأنانية تسيطر علىٰ نفسه، وتحكم سلوكه وتوجه علاقاته بالناس، فلن نجد فيه إلا إنسانًا جشعًا شحيحًا، كل همه أن ينتفع ولا ينفع، وأن يأخذ ولا يعطي، يريد أن يربح، ولا يريد أن يعمل، يقول دائمًا: لي.. ولا يقول يومًا: عليّ، ضنين بكل ما عنده، شَرِهٌ إلىٰ ما عند غيره.

أحوال من تحكمت فيهم الأنانية:

إن من تحكمت فيه صفة الأنانية، فحتمًا سيكون واحدًا من صنفين وهذان الصنفان بيانهما كالتالي:

- **أولا: الصنف الأناني الحيواني:**

وهذا النوع هو الذي يعيش حياته، غارقًا في لذات حسّه، دائرًا حول مطامح نفسه، فأقصىٰ غايته، وجل غايته، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة ذاته، يطوف بها كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلىٰ ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلىٰ شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية وهي النفس، لا يبالي أن يضحيَ بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه، ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سرًا وخفية، فرارًا من طائلة العقاب والقانون.

هذا الأناني لا يحجزه ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا يحجزه إيمان، لأنه لا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده، ولا يحجزه عقل لأن شهواته عطّلت عقله، وأهواؤه أغلقت منافذ تفكيره، قال تعالىٰ مبيّنا حال هؤلاء: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الصنف الأناني البهيمي حذّر القرآن منه فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

هذا الصنف البهيمي الأناني عابد هواه قد خرّب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنىٰ مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلًا.

- **ثانيًا: الصنف الأناني الشيطاني:**

ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس، والإضرار بهم، والكيد لهم، كأن رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله، والعدوان علىٰ خلق الله.

استحالت نعم الله في يديه إلىٰ سياط للإيذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير.

هذا الصنف الأناني الشيطاني، يشبه الأناني الحيواني، فكل منهما يعيش لدنياه العاجلة ولأنانيته البشعة ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فالأناني الحيواني اتجاهه شهواني، والأناني الشيطاني اتجاهه عدواني.

فالأناني الشهواني فقد خصيصة الإنسان، واستحال إلىٰ حيوان، والأناني العدواني فقد خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلىٰ شيطان.

فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء، وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرعد: ٢٥].

هذا الصنف الشيطاني مثل النمرود الذي ذكر الله لنا خبره مع الخليل إبراهيم فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ومن هذا الصنف أيضًا فرعون الذي قتل الأطفال وشرّد الناس واستذل النساء قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص:

٤].

فهذا الصنف الشيطاني إذا تمكن من رقاب البشر يومًا، كان جبارًا مجرمًا، وإن لم يكن له سلطان نمرود ولا فرعون، كان طاغية صغيرًا، أو ذليلًا لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك علىٰ فرعون ووزيره وجنوده جميعًا، لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة والصغار.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨] وقال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٠ - ٤٢].

هذا الصنف الشيطاني قد يغطي باطنَهُ الذي خَبُثَ بظاهر مزخرف، ولسان يخدع الناس بمعسول القول، وحلو الكلام.

فإذا سبرت غوره، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطنًا خرابًا، وضميرًا ميّتًا، ونفسًا متطاولة علىٰ الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة علىٰ الشر، معرضة عن الخير.

كالذي وصفه القرآن فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ

ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

حال المجتمع الذي تنتشر فيه الأنانية:

إن البلية كل البلية أن تشيع هذه الروح الخبيثة في مجتمع، فيقول كل امرئ فيه: نفسي.. نفسي، ولا يقول: أمتي.. أمتي.

والإنسان إذا تُرك ونزعته الفردية، فإنه يؤثر -غالبًا- السلامة، ولا يرضىٰ بتعريض نفسه لخطر أو أذىٰ، من أجل فكرة أو رسالة أو مصلحة كبرىٰ، ولو سَرَت هذه الروح، روح طلب السلامة، لوقفت عجلة الرقي، وأفلت شمس الحضارة، وانطمست معالم الحق، وغاضت ينابيع الخير فإن رسالات النبيين، وأفكار المصلحين، لم تعل كلمتها إلا ببذل النفس والمال، والتضحية بكل غال وعزيز، من وطن وأهل وعشيرة.

ليس هذا في عالم المعاني والأفكار فحسب، بل نجد الأعمال العظيمة، والمشروعات الضخمة، والانقلابات الكبيرة في عالم الإنتاج والعمران والاقتصاد والصناعة والتجارة إنما جاءت نتيجة مخاطرات ومغامرات وتضحيات في مبدأ الأمر.

إن الذي يجعل كل همه في طلب السلامة لا يصنع شيئًا ذا بال، ومن قبل **قال الطغرائي في لاميَّته:**

حب السلامة يثني هم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقًا ... في الأرض أو سلمًا في الجو فاعتزل

✍ **وقال أبو الطيب:**

ذريني أنل ما لا ينال من العلىٰ ...فصعب العلىٰ في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة...ولابد دون الشهد من ابر النحل

والمجتمع الذي يريد أن يبني مجدًا، ويشيد حضارة، وينهض برسالة، في حاجة إلىٰ جهود مضاعفة للبناء والرقي والنهوض، وفي حاجة إلىٰ عقول لا تسأم التفكير، وإلىٰ سواعد لا تشكو التعب، وإلىٰ عزائم لا تشكو الملل والفتور، وفي حاجة إلىٰ الإنسان الذي يعطي قبل أن يأخذ، ويؤدي الواجب قبل أن يطلب الحق، والإنسان الذي تقر عينه بفراق الأهل من أجل الأمة، بالغربة عن البيت من أجل الوطن، ويطيب نفسًا ببذل المال عند الحاجة، وبذل الروح عند الضرورة، ويضحي بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، ويرضىٰ بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت الزؤام في سبيل ما يؤمن به من الهدىٰ والحق.

فليت شعري أين يوجد هذا الإنسان؟

ومن أي مدرسة يتخرج؟

لعمري إن المدرسة الفذة التي تخرج هذا الصنف من الناس هي مدرسة الإيمان.(١)

---

(١) انظر: الإيمان والحياة (ص: ٣٢٠-٣٢٢)

الإيمان ينتصر على الأنانية:

وعنصر الإيمان إذا دخل المعركة أطفأ لهب الخصومة، فصارت نارها بردًا وسلامًا، وحطم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحًا وإيثارًا، وحلق بالمؤمن من المتاع الأدنىٰ إلىٰ المثل الأعلىٰ.

وفي القصة التي روتها أم سلمة زوج الرسول مثل واضح علىٰ مبلغ أثر الإيمان: رجلان يختصمان في مواريث وليس لهما بينة إلا دعواها، كلاهما يقول: هذا حقي، وينكر علىٰ صاحبه أن يكون له حق.. ويحتكم الرجلان إلىٰ رسول الله ﷺ وفي صدر كل منهما فرديته وأنانيته، فيصدع الرسول آذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»**.(١)

سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادرة، فلمست أوتار الإيمان من صدريهما، وأيقظت فيهما خشية الله والدار الآخرة، فبكىٰ الرجلان، وقال كل منهما لصاحبه: حقي لك!

فقال النبي ﷺ: **«أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِمَا، وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ تَحَالَّا»**(٢) أي: ليحل كل منكما صاحبه وليسامحه فيما عسىٰ أن يكون حقه.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٩٦٧).

(٢) سنن أبي داود: (٣٥٨٤)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن.

هنا كانت كلمة الإيمان، وكلمة الضمير الذي أيقظه الإيمان، هي القول الفصل، والقضاء العدل في قضية يعجز القانون المجرد، والقضاء الظاهر، عن معرفة الحق فيها مادام الطرفان متنازعين، ولا بينة لأحدهما. (١)

وقد قص النبي ﷺ على أصحابه قصة رجلين مؤمنين، ضربهما مثلًا لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من العفاف والزهد والإيثار

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«اشْتَرَىٰ رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَىٰ العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَىٰ العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَىٰ رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الغُلَامَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا»**(٢).

وهكذا يرىٰ الناس لونًا ممتازًا من النفوس: رجلان وأمامهما جرة فيها ذهب لا يتقاتلان عليها. ولكن يتدافعانها، يقول كل منهما لصاحبه: هي لك.. علىٰ حين نرىٰ الإنسان دائمًا يقول: هذا لي! (٣)

---

(١) الإيمان والحياة: (ص: ٥١٩-٥٢٠)

(٢) صحيح البخاري: (٣٤٧٢) واللفظ له، صحيح مسلم: (١٧٢١).

(٣) الإيمان والحياة: (ص: ٥٢٠)

• **نصيحة:**

- ومن باب النصح أختم هذه البصيرة القرآنية بشيء أظن أنه حريٌ بنا أن نتنبه إليه وهو الحذر من «النظرة الآنية» التي تعني بهموم الحاضر في غفلة من المستقبل، كأن المهم عندها أن تتخفف من عبء هذه الهموم الذي يؤودها حملها، ولا عليها إذا ألقت الحمل من فوق كاهلها ليحمله الجيل التالي، أو الأجيال التالية، أضعافا مضاعفة.

فهي في الواقع نظرة موغلة في الأنانية، لا تليق بنظرة الأبوة الحانية، التي تجعل الأب يشد الحجر علىٰ بطنه من الطوىٰ، ليوفر اللقمة لولده وفلذة كبده.

ولهذا كان من العيب كل العيب علىٰ هذا الجيل أن يأكل رزق الأجيال القادمة مما أفاء الله به من النفط وغيره من المعادن، أو مصادر الرزق الموقوتة بزمن يقصر أو يطول، لكنه محدود.

كما لا يجوز له أن يتوسع في الاستهلاك، ويستقرض المليارات بالربا الماحق الممحوق، ليحمل أعباء هذه الديون إلىٰ الأجيال التي لم تطرق بعد أبواب الحياة.

قد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه، قوله: لا يعجبني الرجل يأكل رزق أيام في يوم واحد.

يعيب الصديق ـ بقوله هذا ـ الرجل المتلاف الذي يسرف في النفقة، ويتوسع في الاستمتاع، حتىٰ يستهلك في يوم واحد، ما كان يمكن أن يكفيه أياما، وقد يعتريه بعد السعة ضيق، فيندم علىٰ سرفه فيما فات، ولات ساعة

مندم.

وإذا كان هذا معيبا في شأن الفرد فهو أشد عيبا في شأن المجتمع، حين يأكل رزق أجيال في جيل واحد، كالأب المسرف الذي ينفق كل ثروته في حياته، ويدع ورثته من بعده ولا مورد لهم، يقيهم هوان العيش وذل السؤال، وهو ما منعه النبي ﷺ، حين نهىٰ سعد بن أبي وقاص، أن يوصي بما له كله أن ثلثيه أو نصفه وهي وصية في البر والخير، ولم يأذن له بأكثر من الثلث، قال: «**وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَوْ كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**».(١)

إن عقلية «أحيني اليوم، وأمتني غدًا» عقلية متخلفة يرفضها المنطق، ويرفضها الخلق، ويرفضها الإسلام. (٢)

(١) صحيح البخاري: (١٢٩٥)، صحيح مسلم: (١٦٢٨).
(٢) الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي: (ص: ١٥٦).

بصيرة في العزم

الله ﷻ هو رب كل شيء ومليكه، ومدبر أمره.. هذه هي الحقيقة التي يقوم عليها الوجود كله.

أما الإنسان- أي إنسان- فهو مخلوق من مخلوقات الله، حياته كلها متعلقة بإمدادات ربه إليه، ولو تركه لحظة واحدة لتوقف فيه كل شيء.

والإنسان إذ يعيش في الحياة بفضل إمدادات ربه؛ فإنه- يقينا- لا يقدر علىٰ فعل أي شيء- مهما صغر- إلا إذا أذن له الله بفعله، وفتح له خزائنه.

لذلك كان من الضروري أن نُقَدِّم المشيئة الإلهية عند العزم علىٰ فعل أي شيء.

نُقَدِّمها ونحن علىٰ يقين بأن الأمر كله لله ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤].

ولئن كان الله ﷻ قد خاطب رسوله محمد ﷺ- وهو سيد البشر- قائلًا: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فماذا عن بقية البشر؟؟

هل يمكن أن يكون لأحد منهم صلاحية أو قوة ذاتية في هذا الكون؟! ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالله ﷻ هو خالق كل شيء، وهو ربه يمده بما يحتاجه، وما الإنسان إلا

مخلوق صغير ضئيل في هذا الكون الرحيب، لا يمكنه- بمفرده- أن يُنفذ إرادته، فإرادته لا تنفذ إلا من خلال موافقة الله علىٰ إنفاذها، ومن ثمّ إمداده بما يظهرها.. من هنا ندرك بعضا من معاني قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦].

فلو حشد المرء ما يمكن حشده من أسباب فلن يصل إلىٰ النتيجة المتوقعة لها إلا إذا أَذِن الله وفتح له خزائن ذلك قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

وعندما قام نبي الله يوسف- عليه السلام- بتدبر أمر الحيلة التي من خلالها كان ينوي استبقاء أخيه معه، ونجح في ذلك، نجد التعقيب القرآني يُذكّر بحقيقة الأمر وبأن ما حدث فإنما حدث بإذن الله ومشيئته وإمداده حتىٰ يرسخ المعنىٰ في الأذهان قال تعالىٰ: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

ما هو العزم؟

فإن قلت: ولكن ما هو العزم؟! هل هو كل ما يفكر فيه الإنسان ويُحدِّث به نفسه؟

أجاب العلماء عن هذه الأسئلة وقالوا بأن ما يدور داخل الإنسان إما أن يكون هاجسًا، أو خاطرًا، أو حديث نفس، أو همًّا، أو عزمًا.

فالهاجس هو بداية التفكير بصورة عامة، فإذا اتجه التفكير إلىٰ شيء بعينه سُمّي: (خاطرًا)، فإذا قلَّب الإنسان فكره في هذا الشيء من داخله وباطنه سُمّي (حديث نفس)، فإذا تحركت إرادة الإنسان إلىٰ فعل شيء ما سمي: (همّا)، لأن الهم هو ترجيح قصد الفعل بأن يميل إلىٰ الشيء ولا يصمم علىٰ فعله. والهاجس والخاطر وحديث النفس لا إثم علىٰ صاحبه ما لم يتحدث أو يعمل به كما في الحديث: **«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ»**.(١)

(والهمّ) يماثل الثلاثة السابقة في رفع الإثم والمسئولية عن صاحبه ما لم يقل أو يعمل، ويفوقها في إثبات الثواب لصاحبه كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»**.(٢)

أما (العزم) فهو فوق (الهم)، وهو أعلىٰ مراتب القصد، وهو العقد القلبي الذي يتقرر علىٰ أساسه القول والعمل، لذلك كان (العزم) أول درجات المسئولية قبل القول والعمل، ويترتب عليه الثواب والعقاب.(٣)

---

(١) صحيح البخاري: (٢٥٢٨).

(٢) صحيح البخاري: (٦٤٩١)، صحيح مسلم: (١٣١).

(٣) الموسوعة الفقهية مجلد ٣٠ بحث العزم ص٨٨.

أي أن العزم هو الحرص والتصميم الجازم علىٰ فعل شيء ما.

✍ **وقد سُئل سفيان الثوري**: أيؤاخذ العبد (بالهمة)، قال: إذا كانت عزما أُوخِذ. (١)

والنية: هي القصد، أي عزم القلب علىٰ أمر من الأمور.. وعلىٰ ذلك فهي أقرب لمعني العزم، لذلك كان من شروط التوبة النصوح: العزم، أي التصميم الجازم أن لا يعود إلىٰ فعل المعصية التي ارتكبها.

أولو العزم:

إذن فالمطلوب من العبد العزم والإصرار علىٰ فعل الخير ليكون المدد من الله ﷻ علىٰ قدر هذا العزم، ويتفاوت العزم من شخص لآخر، ولقد وصل نفر قليل من البشر لأعلىٰ درجات العزم علىٰ فعل ما يرضي الله ﷻ من الاستقامة علىٰ أمره، ودعوة الخلق إليه، مع الاستعداد لتحمل أشد الصعوبات وأقسىٰ الآلام في سبيل ذلك، وهؤلاء هم الذين سماهم الله ﷻ «أولو العزم من الرسل» وهم: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. قال تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥]. فالإمداد علىٰ قدر الاستعداد.. تأمل قوله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١].

فحجر الزاوية -إذن- في قضية الإمداد هو العزم والتصميم، لذلك أوضح القرآن أن أهم أسباب مخالفة أبينا آدم- عليه السلام- وأكله من الشجرة التي

(١)الموسوعة الفقهية مجلد ٣٠ بحث العزم ص٨٨.

نُهي عنها هو قلة عزمه في ذلك ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥].

عزم الأمور:

وإن كانت قوة العزيمة تختلف من شخص لآخر، فإن الأمور كذلك تختلف في قدر العزيمة المطلوبة لبلوغها، فهناك أمور تحتاج إلىٰ عزيمة شديدة مثل ما ذكر في قوله تعالىٰ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقوله تعالىٰ علىٰ لسان لقمان: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧] وقوله: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

فالصبر من الأمور التي تحتاج إلىٰ عزيمة شديدة، فمع أنه- كغيره- يتنزل من عند الله ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٧]، إلا أنه يحتاج إلىٰ عزيمة شديدة من العبد لكي يتنزل عليه من الخزائن الإلهية كما فعلت البقية الباقية مع طالوت عند مواجهة جالوت وجنوده ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٠- ٢٥١].

البداية من العبد:

إذن فالبداية منك أيها الإنسان.. لا تلم أحدًا علىٰ تقصيرك.. علىٰ مستواك.. علىٰ عدم نجاحك.. فالإمداد علىٰ قدر الاستعداد، فمن يرد شيئًا ويصمم علىٰ بلوغه يصل إليه.. لا، لا، بل يوصله الله إليه ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].ويؤكد علىٰ هذا المعني قوله ﷺ: «.. **وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**».. والمتأمل للحديث من أوله يجده يدور في نفس المعنىٰ «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**». (١)

فالتاء هنا للطلب أي أن الذي يريد العلم عليه أن يطلب ذلك، ويعزم عليه فُيعلِّمه الله، والذي يريد الحلم عليه أن يعزم عزيمة صادقة علىٰ بلوغه، فيرزقه الله الحلم، وهكذا في كل الأمور مثل العفة والصبر.. ففي الحديث «.......**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**......». (٢)

* فلو أراد (متخاصمان) الصلح بصدق وعزما علىٰ ذلك، أصلحهما الله ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥].

* ومَن يُرد الهداية بصدق يهده الله ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ۝١٤﴾

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٢٣٢٨) والسلسلة الصحيحة (٣٤٢).

(٢) البخاري: (٦٤٧٠)، مسلم: (١٠٥٣).

[الجن: ١٤].

* والذي لا يريد الهداية لا يهديه الله ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ [التغابن: ٦].

* ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ٨٦].

والذي يريد أن يدعو الناس إلىٰ الله ويحببهم فيه، عليه أن يعزم عزيمة صادقة ويشتد حرصه علىٰ ذلك.. جاء في الأثر: لما أهبط الله آدم إلىٰ الأرض قال له: يا آدم أحبني، وحببني إلىٰ خلقي، ولا تستطيع ذلك إلا بي، ولكن إذا رأيتك حريصًا علىٰ ذلك أعنتك عليه. (١)

والذي استدان من شخص (ما) مبلغا من المال، وهو في قرارة نفسه ينوي بصدق ويعزم علىٰ أدائه، رزقه الله ما يسد به دينه، كما في الحديث «**مَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ يَنْوِي أَدَاءَهُ كَانَ مَعَهُ مِنَ اللهِ عَوْنٌ، وسَبَّبَ اللهُ لَهُ رِزْقًا**». (٢)

عزيمة امرأة:

عندما صدق عزم امرأة عمران في أن يكون الجنين الذي تحمله في بطنها لله، وألا يكون فيه أي حظ من حظوظ النفس، كافأها الله ﷻ بولادة مريم الصديقة، والتي أصبحت بعد ذلك أمًّا لرسول الله عيسىٰ ﵇ ﴿إِذۡ قَالَتِ

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص (١٢٧).
(٢) المعجم الأوسط (٧٦٠٨)، السلسلة الصحيحة: (٢٨٢٢).

ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

إن تصدق الله يصدُقُك:

* عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عِكْرِمَةُ بْنُ خَالِدٍ، أَنَّ ابْنَ أَبِي عَمَّارٍ، أَخْبَرَهُ عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ فَأَوْصَىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ، غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبْيًا «فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ» فَأَعْطَىٰ أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَىٰ ظَهْرَهُمْ فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا فَقَالَ: «**قَسَمْتُهُ لَكَ**» قَالَ: مَا عَلَىٰ هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِ اتَّبَعْتُكَ عَلَىٰ أَنْ أُرْمَىٰ هَاهُنَا وَأَشَارَ إِلَىٰ حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ قَالَ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ فَلَبِثُوا قَلِيلًا**» ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَهُوَ هُوَ**» فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ: «**صَدَقَ اللهَ فَصَدَّقَهُ**» ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ «**اللهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ**». (١)

ولنتأمل ما قاله رسول الله ﷺ للأعرابي: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**» نعم،

---

(١) أخرجه النسائي (٢٠٩١)، صحيح الجامع: (٣٧٥٦).

فهذا هو مفتاح الوصول إلىٰ المعالي: صدق الإرادة والعزيمة، ولقد كان الرجل بالفعل صادقًا فيما طلبه، فحرك الله ﷻ الأحداث في اتجاه تحقيق مقصده ليس بالموت شهيدًا فقط، ولكن بأن يموت بالطريقة التي عزم عليها وتاقت لها نفسه ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ ۝٢١﴾ [محمد: ٢١].

أصدق الله فيه:

وتنقل لنا كتب السيرة في قصة إسلام أسيد بن حضير، أن أسيدًا دخل غاضبًا يحمل حربته، ويريد شرًا بمصعب بن عمير، وعندما رآه أسعد بن زرارة علىٰ هذه الحال قال لمصعب: ويحك يا مصعب، هذا سيد قومه، وأرجحهم عقلا: أسيد بن حضير، فإن يُسلم يتبعه في إسلامه خلق كثير، فاصدق الله فيه. فلما صدق (مصعب) الله في (أسيد): فتح الله قلب أسيد، وانشرح صدره، وانفرجت أساريره، ودخل في الإسلام.(١)

الخليفة الخامس:

عندما تولىٰ عمر بن عبد العزيز إمارة المؤمنين عزم أن يسير بالأمة بسيرة الخلفاء الراشدين، ويعيدها إلىٰ ما كانت عليه، وذلك بعد سنوات طويلة من انقضاء تلك الخلافة الراشدة، وما حدث بعدها من بعض الانحرافات، والمظالم التي أبعدت الأمة عن النهج القويم.

لقد عزم عمر علىٰ هذا ولا يملك سوىٰ هذا العزم الصادق، فالأجواء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

المحيطة به لم تكن لتشجعه علىٰ هذا، وأعوانه لم يكونوا آنذاك كأعوان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي- رضي الله عنهم أجمعين-، لكنه صدق في عزمه، وأرسل رسالة إلىٰ سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب يطلب منه أن يرسل له كل ما عنده من سيرة جده عمر بن الخطاب من أقضية وسنن حتىٰ يسير علىٰ هديه، فكان مما كتبه له: «أما بعد، فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من ولاية أمر المسلمين عن غير مشورة مني ولا طلب، فأسأل الله الذي ابتلاني بهذا الأمر أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث لي بكتب عمر بن الخطاب، وأقضيته وسيرته، فإني عازم علىٰ أن أتبع سيرته، وأسير علىٰ نهجه إن أعانني الله علىٰ ذلك، والسلام».

فأرسل إليه سالم بن عبد الله برسالة تؤكد له المعنىٰ الذي تتحدث عنه هذه الصفحات، بأن الأمر وإن بدا صعبا إلا أن صدق العزم يذلل جميع الصعاب وكيف لا والذي يحرك كل شيء هو الله، والله يريد منا صدق العزم ليحقق لنا ما نريد، حسبما تقتضيه حكمته وعلمه المحيط جل شأنه.

يقول سالم في رسالته لعمر: «أما بعد، فقد جاءني كتابك الذي تذكر فيه أن الله عز وجل ابتلاك بإمرة المسلمين من غير طلب منك ولا مشورة، وأنك تريد أن تسير بسيرة عمر، فلا يَفُتْك أنك في زمان غير زمان عمر، وأنه ليس في رجالك من يماثل رجال عمر، ولكن اعلم أنك إن نويت الحق وأردته، أعانك الله عليه، وأتاح لك عمالا يقومون لك به، وأتاك بهم من حيث لا تحتسب، فإن عون الله للعبد علىٰ قدر نيته، فمن تمت نيته في الخير تم عون

الله له، ومن قصرت نيته نقص من عون الله له بقدر نقص نيته». (١)

ولقد كان عمر بن العزيز صادقًا فيما ادعىٰ، وكان عزمه أكيدًا، فماذا حدث؟

لقد أعاد الله ﷻ به الأمة إلىٰ ما كانت عليه في السابق حتىٰ سماه العلماء والمؤرخون «الخليفة الخامس».. كل ذلك حدث في زمن قياسي في نحو سنتين.. فماذا تقول بعد ذلك؟!

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

قصة الطالب والمسألتين:

ينقل صاحب «الإيمان وإيقاظ القوي الخفية» قصة عجيبة تؤكد المعني الذي نتحدث عنه من أن العزيمة الأكيدة هي مفتاح الوصول للمعالي.. يقول: هناك قصة لشاب غفا أثناء حصة الرياضيات، واستيقظ علىٰ صوت جرس انتهاء الحصة، ونظر إلىٰ السبورة وقام بكتابة المسألتين الموجودتين فوقها، وقد افترض أنهما الواجب المدرسي لهذا اليوم، فعاد إلىٰ البيت وأخذ يجتهد طيلة النهار والليل لحلهما... لم يستطع الشاب حل أي منهما، إلا أنه واصل المحاولة بقية الأسبوع، وفي نهاية الأمر، استطاع حل إحداها وذهب بها إلىٰ الفصل، فلما رآها المدرس أصيب بالذهول فقد اتضح أن المسألة

(١) صور إيمانية من حياة الصحابة والتابعين: (١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

التي قام بحلها كان المفترض عدم وجود حلٍّ لها [١]، وكان المدرس قد كتبها علىٰ السبورة من باب تعريف الطلاب ببعض المسائل التي لم يتوصل أحد إلىٰ حلها.

دواؤك فيك وما تُبصر ... وداؤك منك وما تشعر

وتزعم أنك جِرْم صغير ... وفيك انطوىٰ العالم الأكبر

(١) الإيمان وإيقاظ القوي الخفية: (٤٨).

بصيرة في النور والظلمة

يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [النور: ٣٥].

أقسام النور الذي يمدنا الله به نوعان:

١- نور مادي ٢- نور معنوي.

- **أولًا: النور المادي:**

- يتمثل فيما يسّره الله لنا من أسباب تستنير بها حياتنا من شمس وقمر ونجوم، ويشير ربنا إلىٰ هذه الأسباب التي ينبعث منها النور المادي في نحو قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ﴾ [يونس: ٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح: ١٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجر: ١٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان: ٦١].

* وبيّن أنها مسخرة لنا فقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

- كما يتمثل النور المادي فيما يسّره الله لنا من إمكانات نتغلب بها على الظلام إذا جاء الليل من مصابيح وسُرُج تستخدم فيها مصادر الطاقة من وقود وكهرباء نحصل عليها من طاقة المياه أو الرياح أو غير ذلك.

* قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣].

* وفي معرض التفضل والامتنان بهذا النور المادي يقول رب العزة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

لكن هذا النور المادي لا يخص الله به قومًا دون آخرين، وإنما هو حق لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم.

- **ثانيا: النور المعنوي:**

الله تبارك وتعالىٰ لا ييسر النور المعنوي إلا لأهل طاعته، ولا يمنحه إلا لأهل محبته، يقول رب العزة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وبواسطة هذا النور الإلهي يمضي الإنسان في حياته وفق هداية ليس فيها ضلال، ومعونة من الله ليس فيها إهمال، في حين أن الحرمان من هذا النور يجعل صاحبه يتخبط ويمضي في حياته علىٰ غير هدىً، ولا ينفعه ما يعيش فيه من نعيم مادي.

يقول رب العزة: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

أسباب الحصول على النور المعنوي:

لكي يصل الإنسان إلىٰ هذا النور لابد له من أدوات للحصول عليه وهذه الأدوات هي:

١- الاتصال بين العبد وبين مصدر هذا النور، وهو الله رب العالمين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويؤكد لنا ربنا في كتابه أن الدنيا كلها لو اجتمعت فلن تقدر علىٰ أن تعطي للعبد ذرة من هذا النور، فيقول ربنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

[النور: ٤٠].

٢- العمل بالمنهج الذي يوصله إلىٰ هذا النور وهو القرآن الكريم، ولقد وصف الله كتابه في عديد من الآيات بأنه النور، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ (١) إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥- ١٦]، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

٣- التعلق بالبيئة التي يوجد فيها هذا النور، وهذه البيئة التي يوجد فيها النور منها المساجد، التي ورد الحديث عنها في سياق الحديث عن نور الله تعالىٰ في السورة المسماة بسورة النور، حيث يقول رب العزة: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٥- ٣٦].

---

(١) أنواع الظلمات:

١- ظلمة الكفر والشرك، ٢- ظلمة البدع،
٣- ظلمة الكبائر الباطنة، ٤- ظلمة الكبائر الظاهرة،
٥- ظلمة المعاصي، ٦- ظلمة الوقوع في المكروهات.

* وفي الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

ومن هذه البيئات التي يوجد فيها النور مجالس العلماء، كما يقول الحسن البصري رضي الله عنه: الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء. وهكذا في مجالس الخير والطاعة التي يتعاون فيها أصحابها علىٰ مرضاة الله تعالىٰ.

* ولقد أمرنا النبي ﷺ بالجلوس مع الصالحين وحذّرنا من مجالسة الفاسدين فقال: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٢).

آثار النور على من وهبهم الله إياه:

لقد حدثنا ربنا تبارك وتعالىٰ عن آثار هذا النور في حياة من وهبهم إياه فبين لنا الآتي:

١- أن التوفيق الدائم يصاحب أهل النور، حيث يقول ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

٢- بيّن أن منقلب هؤلاء يوم القيامة إلىٰ نور فقال ﷻ: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ

(١) سنن ابن ماجه: (١/ ٢٥٧)، سنن أبي داود: (١/ ١٥٤)، سنن الترمذي: (١/ ٤٣٥).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٦٣).

ﱡﭐ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ﱠ [التحريم: ٨].

٣- ينعكس هذا النور علىٰ قلوب أصحابه ووجوههم في الدنيا، فتنشرح به صدروهم، وتضاء به وجوههم، وفي هذا يقول الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عباس: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ... (١)

موانع الوصول إلى النور:

وللنور عوامل تساعد علىٰ اكتسابه كما هو معلوم، وأيضا له عوامل وأسباب تحرم الإنسان من هذا الخير، وتحول بينه وبين الوصول إليه، وهذه الأسباب كالآتي:

١- الكفر بالله مانع من الوصول للنور كما قال ربنا سبحانه وتعالىٰ: ﱡﭐ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﱠ [البقرة: ٢٥٧].

٢- المعصية أيضًا تمنع من الوصول إلىٰ النور كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما في سياق كلامه السابق ذكره: وَإِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.(٢)

---

(١) مواقف حلف فيها النبي صلى الله عليه وسلم (ص: ١٠٦). وانظر الداء والدواء (ص: ٥٤).

(٢) المرجع السابق.

أهمية النور في حياة المسلم:

إن هذا النور له أهميّته في حياة المسلم، ولنا أن نتصور الإنسان إذا انقطع النور المادي عن منزله أو حجرته أو شارعه، فإذا به يتخبط في الجدران، ويتعثر في الأشياء، وتضطرب كلُّ أحواله، ولا يهدأ له بال، ولا يقرّ له قرار حتىٰ يضاء المكان، وتتبدد الظلمة، وهكذا حال الإنسان إذا حُرِمَ من نور الله تعالىٰ، فإذا به يتخبط، ويظل حائرًا حتىٰ يهتدي إلىٰ صراط الله المستقيم.

* لأجل ذلك كان النبي ﷺ يسأل ربَّه أن يهبه نورًا في جميع أعضائه وفي جهاته، فكان يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا**».(١)

* ولفظ مسلم: «**اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَعَظِّمْ لِي نُورًا**».(٢)

* وقال النبيِّ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ**

---

(١) صحيح البخاري: (٦٣١٦).

(٢) صحيح مسلم: (٧٦٣).

هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «**بَلَىٰ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**».(١)

فاللهم اهدنا إلىٰ نورك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

---

(١) مسند أحمد: (٦/ ٢٤٦) وانظر السلسلة الصحيحة رقم: (١٩٩).

بصيرة في إعداد النفس وبناء الذات

قال تعالىٰ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

لأن الإصلاح يبدأ بصلاح النفس أولًا، فإن الحق تعالىٰ يقسم بها، ولقد سوىٰ الله النفس بخلقها مستوية كاملة التركيب في جانبها المادي، وهي دليل علىٰ قدرته تعالىٰ وعلمه.

ثم يمنحها خاصية الفهم وإدراك أن هذا جميل وذاك قبيح ثم بالقدرة علىٰ الاختيار الحر في جانبها المعنوي.

ويعني ذلك أن يتحمل الإنسان مسؤولية اختياره بحسن استثمار هذه النعم التي جعلت منه بشرا سويًا.

والحق سبحانه وتعالىٰ يعين النفس علىٰ الصعود بالترغيب ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس: ٩] ثم الترهيب ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ١٠]

نهج القرآن في إعداد النفس الإنسانية:

- **أولًا بناء الذات:**

وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا

ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

إن مجرد أماني الإصلاح الحالمة لا تعطينا دقيقًا، وإنما المطلوب تغيير النفس والحكماء يقولون: غير نفسك تغير التاريخ.

ونذكر من دروس أحد أن القرآن الكريم قال في تعقيبه عليها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إنه يتفهم من دروس التربية القرآنية حسن التعامل مع السنن الكونية التي لا تحابي أحدًا وأن النصر إنما يتنزل طبق قانون صارم لا يجامل، وعند الهزيمة ينبغي مراجعة الربح والخسارة وأن من مظاهر الهزيمة أن نبحث عن أسبابها خارج الذات وإنما هي: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أنتم الذين مهدتم لها بالغفلة عن سنن الله تعالىٰ في تدبير الكون فكان ما كان. ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

والآية الكريمة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ تلقي علىٰ هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه وفي إطار المشيئة الكبرىٰ فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوىٰ، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾.. وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو! وتشعر الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع

إلىٰ الموازين الإلهية الثابتة، ليظل علىٰ يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوىٰ إلىٰ المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه. وبذلك يظل قريبا من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق! ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود.(١)

• **ثانيًا التركيز على المثل الأعلى:**

إذا كان إصلاح النفس الإنسانية هدف المؤسسات التربوية، فهل حققت هذه المؤسسات غايتها فاستقامت النفوس علىٰ سواء الصراط؟

إن التربية الحديثة تنمي القدرات كاشفة عن أسرار الإنسان لكنها تنمي الإرادة ولا تركز علىٰ المثل الأعلىٰ.

- وفي المقابل تذهب بعض مدارس التربية المتشددة إلىٰ تنمية إرادة الخير ثم ربطها بالمثل الأعلىٰ، ولكنها لا تنمي وبنفس القوة القدرة علىٰ الوصول إلىٰ المأمول والنتيجة واحدة وهي: القلق والتمزق والحيرة.

أما المنهج القرآني لبناء الذات فإنه يركز علىٰ المثل الأعلىٰ وهذا في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٩١٨).

[الكهف: ٤٥- ٤٦].

- ولنتأمل هذا السياق القرآني، لأننا سنلحظ أن هدف السياق القرآني هنا الارتفاع بالإنسان إلىٰ أعلىٰ، يسمو به فوق جواذب الأرض إلىٰ المثل الأعلىٰ هناك وهو المقصود بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ [الكهف: ٤٦].

والباقيات الصالحات هي كل عمل وقول دعاك إلىٰ الاشتغال بمعرفة الله، ومحبته وخدمته، يقول ابن عجيبة ﷺ: وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ وهي أعمال الخير بأسرها، أو: الصلوات الخمس، أو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، زاد بعضهم: «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». قال عليه الصلاة والسلام: «**هي من كنز الجنة، وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات، يأتين يوم القيامة مقدمات ومعقبات**» (١).

✍ **وقال الشنقيطي**: وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَنْبِيهُ النَّاسِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ ؛ لِئَلَّا يَشْتَغِلُوا بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ الَّذِي أَشَارَ لَهُ هُنَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ أُخَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٣/ ٢٧٤).

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [آل عمران: ١٤- ١٥].

* وَقَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

* وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥].

* وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧].

* وَقَوْلِهِ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ الِاشْتِغَالُ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَمَّا يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ، وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ كُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْأَعْمَالُ الَّتِي تُرْضِي اللهَ، سَوَاءٌ قُلْنَا: إِنَّهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، كَمَا هُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ: مِنْهُمُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَأَبُو مَيْسَرَةَ، وَعَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ، أَوْ أَنَّهَا: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَعَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ، وَجَاءَتْ دَالَّةٌ عَلَيْهِ أَحَادِيثُ مَرْفُوعَةٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، وَعَائِشَةَ رضي الله عنهم.

✍ **قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللهُ عَنْهُ**(١): التَّحْقِيقُ أَنَّ «الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» لَفْظٌ عَامٌّ، يَشْمَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَالْكَلِمَاتِ الْخَمْسَ الْمَذْكُورَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُرْضِي اللهَ تَعَالَىٰ: لِأَنَّهَا بَاقِيَةٌ لِصَاحِبِهَا غَيْرُ زَائِلَةٍ. وَلَا فَانِيَةٍ كَزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِأَنَّهَا أَيْضًا صَالِحَةٌ لِوُقُوعِهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي اللهَ تَعَالَىٰ. (٢)

إن القرآن لا يفطم النفس عن مناعم الدنيا بصورة كلية، بل كيف يفطمهم والناس أبناء الدنيا، وإذا كانوا كذلك فكيف يلامون علىٰ حب أمهم الدنيا؟

إن الإسلام لا ينهىٰ عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها في ميزان الخلود ولا يزيد. إنها زينة ولكنها ليست قيمة.

فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا علىٰ أساسهما في الحياة، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات.

وإذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين فإن الباقيات الصالحات خير ثوابًا وخير أملًا، عند ما تتعلق بها القلوب، ويناط بها الرجاء، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء. (٣)

- والمنهج الإسلامي لا يقف عند التركيز علىٰ المثل الأعلىٰ، ولكن يلاحق الإنسان بالنموذج قال تعالىٰ: ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**

---

(١) هو الشنقيطي رحمه الله صاحب أضواء البيان.

(٢) أضواء البيان: (٣/ ٢٨٠/ ٢٨١).

(٣) في ظلال القرآن: (١٢/ ١٧٥). بتصرف.

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]، إن الصاحب كما يقولون ساحب صديقه إلىٰ البوار أو إلىٰ النجاة.

- وإذ يتبادل الأصدقاء الأشرار التُّهم يوم القيامة، إذ بالصحاب الأبرار بنجوة من هذا الهوان يقول لهم ربهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٠].

- ولقد كان من توجيهات الإسلام: «**لا تُصاحِب إلا مُؤْمنًا، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ**».(١)

- إنه الصاحب الذي له قيم أصلية أصيلة، وفي تصرفاته يلوح المثل الأعلىٰ، هو أتقىٰ منك، والحكمة وراء ذلك أن تظل في صحبته شاعرًا بالنقص، فلا تكف نفسك عن محاولة اللحاق به، وليس هو بالأقل منك طاعة، فتغتر برؤيته، فتفتر عن العبادة.

- وفي قضية المطاعمة لفتة رائعة من الإمام المناوي حيث يقول في قوله: «**ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ**»: لأن المطاعمة توجب الألفة وتؤدي إلىٰ الخلطة، بل هي أوثق عرىٰ المداخلة، ومخالطة غير التقي يخل بالدين، ويوقع في الشبه والمحظورات، فكأنه ينهىٰ عن مخالطة الفجار، إذ لا تخلو عن فساد إما بمتابعة في فعل أو مسامحة في إغضاء عن منكر، فإن سلم من

(١) أبو داود: (٤٨٣٢)، والترمذي: (٢٣٩٥). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٩٥).

ذلك ولا يكاد، فلا تخطئه فتنة الغير به، وليس المراد حرمان غير التقي من الإحسان، لأن المصطفىٰ ﷺ أطعم المشركين وأعطىٰ المؤلفة المئين، بل يطعمه ولا يخالطه.

والحاصل أن مقصود الحديث كما أشار إليه الطيبي النهي عن كسب الحرام، وتعاطي ما ينفر منه المتقي، فالمعنىٰ لا تصاحب إلا مطيعا ولا تخالل إلا تقيًّا.(١)

كيف تتم السعادة:

وإذا كنا نتكلم عن إعداد النفس فلابد أن نبحث عن سعادتها، وسعادتها الحقيقية تكمن في قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**».(٢)

✍ **يقول النيسابوري**: الإيمان الحقيقي ليس بمجرد التصديق والإقرار ولكنه سيضرب علىٰ محك الاعتبار وهو تحكيم الشرع لا الطبع والنبوة لا البنوة والمولىٰ لا الهوىٰ ووارد الحق لا موارد الخلق فيما اختلفت آراؤهم وتحيّرت عقولهم ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي مرآة أَنْفُسِهِمْ صورة كراهة من القضاء الأزلي والأحكام الإلهية.(٣)

---

(١) فيض القدير: (٦/ ٤٠٥).
(٢) السنة لابن أبي عاصم: (١/ ١٢). وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح: (٢٨).
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: (٢/ ٤٤٤).

الحب وحده لا يكفي:

وإذا كنا نتكلم عن إعداد النفس وبناء الذات، فلابد أن نقول: إن الحب وحده لا يكفي، ولنتأمل لقد قال الرسول ﷺ لمعاذ مرتين: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**». (١) إلا أنه وصَّاه وهو ذاهب إلىٰ اليمن قائلًا: «...... **وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ**» (٢)، والمراد من ذلك أن حُبَّه للرسول ﷺ، وحُبَّ الرسول ﷺ له لن يحميه من عقاب لو أنه ظلم.

- وكذلك قصة الرجل الذي كان يجاء به مخمورًا ليقام عليه الحد عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَىٰ بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»(٣)، فحب الله والرسول ﷺ لم يمنعه من معصيتهما، وكذلك لم يمنعه من إقامة الحد عليه، فلا شفاعة في حدٍّ من حدود الله تعالىٰ.

في مجال التطبيق:

لقد كانت طاعة الرسول ﷺ فوق هوىٰ الإنسان، مهما كان الهوىٰ غلابا:

(١) سنن أبي داود: (٢/ ٨٦)، وانظر: صحيح الجامع: (٣٠٦٣).
(٢) صحيح البخاري: (١٤٩٦).
(٣) صحيح البخاري: (٦٧٨٠).

١ -قصة عَبْدِ اللَّهِ بْن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ الذي طلب أن يقتل والده لو أمره الرسول ﷺ بذلك:

✍ **قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ**: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ فِيمَا بلغك عَنهُ، فَإِن كنت فَاعِلًا فَمر لي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ بِهَا مِنْ رَجُل أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيقْتُلَهُ فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَىٰ قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ فَأَدْخُلَ النَّارَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**». (١)

٢ -المرأة التي تصدقت بالإسورتين لَمَّا سمعت الوعيد على عدم الزكاة:

* عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا، وَفِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ لَهَا: «**أَتُعْطِينَ زَكَاةَ هَذَا؟**»، قَالَتْ: لَا، قَالَ: «**أَيَسُرُّكِ أَنْ يُسَوِّرَكِ اللهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ؟**»، قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا، فَأَلْقَتْهُمَا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَتْ: هُمَا للهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ. (٢)

٣ -المرأة التي كانت تصرع، وطلبت الستر مع الصبر:

عَنْ عِمْرَانَ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ

(١) السيرة النبوية لابن كثير: (٣/ ٣٠١).

(٢) سنن أبي داود: (٢/ ٩٥)، وانظر: صحيح أبي داود: (١٣٩٦).

عبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. (١)

- **كلام دقيق لمعن بن عدي:**

* قَالَ عُرْوَةُ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّاسَ بَكَوْا عَلَىٰ رَسُوْلِ اللهِ -ﷺ- وَقَالُوا: ليتنا متنا قبله، نخشىٰ أن نفتن بَعْدَهُ، فَقَالَ مَعْنٌ: لَكِنِّي وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي مُتُّ قَبْلَهُ حَتَّىٰ أُصَدِّقَهُ مَيْتًا كَمَا صَدَّقْتُهُ حَيًّا. (٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٥٦٥٢)، صحيح مسلم: (٢٥٧٦).
(٢) تاريخ الطبري: (٣/ ٢٠٧)، سير أعلام النبلاء: (٣/ ١٩٦).

بصيرة في معرفة الوطن

قال تعالىٰ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمد: ٦]، هذه آية كريمة تدلل علىٰ معرفة الوطن الأصلي وهو الجنة، وانطلاقًا من هذه الآية أقول مستعينًا بالله:

إن الله قدَّر أن أعيش بعيدًا عن وطني عدَّة سنوات، وفي خلال هذه المدة **لاحظت أمرين.**

الأمر الأول: أن الإنسان يشتاق إلىٰ وطنه حين تقاسي نفسه الغربة بحثًا عن رزق، أو لطلب علم، مع أن بلاد الغربة كثيرًا ما تكون أجمل وأطيب من الوطن وأكثر رفاهية وترفًا، ومع ذلك تحن النفس إلىٰ الوطن الأول علىٰ فقره وبساطته.

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَىٰ ... مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ.(١)

ومن هنا تساءلت، إذا كانت النفس تحنُّ لوطن هو في الدنيا أيضًا، فكيف بالوطن الأصلي وهو الجنة؟!

إن الجنة هي الوطن الأصيل الذي كان فيه أبونا آدم عليه السلام، قبل أن يُخْرج

(١) الداء والدواء: (ص: ١٨٧).

منها، يقول الإمام ابن القيم:

فَحَـــي عَلَـــىٰ جَنَّـــاتِ عَـــدْنٍ... فَإِنهَا مَنَازِلُكَ الأولَىٰ وَفِيهَا المُخَيِّمُ
وَلكِنَّنَـــا سَـــبْيُ العَـــدُوِّ، فَهَـــلْ... تَرَىٰ نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ؟.(١)

- والوطن الأصلي وهو الجنة أروع وأطيب وأجمل وأعلىٰ وأغلىٰ بل فيها ما لا يتخيله عقل قال تعالىٰ: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧].

* وعن سَهْل بْن سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ، يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ، ثُمَّ قَالَ ﷺ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: «**فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**» ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** ﴿١٦﴾ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].(٢)

العاقل هو الذي يذكّر نفسه بجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ:

إن أعقلَ الناسِ همُ الذين يعملون للآخرةِ لأنها خيرٌ وأبقىٰ، وإنَّ أحمق هذه الخليقة هم الذين يرون أنَّ هذه الدنيا هي قرارُهم ودارُهم ومنتهىٰ أمانيهم، فتجدَهم أجزعَ الناسِ عند المصائبِ، وأندهم عندَ الحوادثِ، لأنهمْ لا يرون إلَّا حياتهمْ الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلَّا إلىٰ هذهِ الفانيةِ، لا

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ٧١).
(٢) صحيح مسلم: (٢٨٢٥).

يتفكرون في غيرِها ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكّر لهم سرورُهم ولا يكدّر عليهم فرحُهم، ولو أنهمْ خلعوا حجاب الرانِ عن قلوبهمْ، وغطاء الجهلِ عن عيونهمْ لحدثوا أنفسهم بدارِ الخلدِ ونعيمِها ودورِها وقصورِها، ولسمعوا وأنصتوا لخطابِ الوحيِ في وصفِها، إنها واللهِ الدارُ التي تستحقُّ الاهتمام والكدَّ والجهْدَ.

هل تأملنا طويلًا وصف أهلِ الجنة بأنهم لا يمرضون ولا يحزنون ولا يموتون، ولا يفنىٰ شبابُهم، ولا تبلىٰ ثيابُهم، في غرفٍ يُرىٰ ظاهرُها من باطنِها، وباطِنُها من ظاهرِها، فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بَشَرٍ، يسيرُ الراكبُ في شجرةٍ من أشجارِها مائة عامٍ لا يقطعُها، طول الخيمةِ فيها ستون ميلًا، أنهارُها مُطَّرِدةٌ قصورُها منيفةٌ، قطوفُها دانيةٌ، عيونُها جاريةٌ، سُرُرُها مرفوعةٌ، أكوابُها موضوعةٌ، نمارقُها مصفوفَةٌ، زرابيُّها مبثوثةٌ، تمَّ سُرُورُهَا، عظُم حبورُها، فاح عرْفُها، عظُم وصْفُها، منتهىٰ الأماني فيها، فأين عقولُنا لا تفكرْ؟! ما لنا لا نتدبَّرْ؟!

إذا كان المصيرُ إلىٰ هذه الدارِ؛ فلتخفَّ المصائبُ علىٰ المصابين، ولتَقَرَّ عيونْ المنكوبين، ولتفرح قلوبُ المعدمين.

فيها أيها المسحوقون بالفقرِ، المنهكون بالفاقةِ، المبتلون بالمصائب، اعملوا صالحًا؛ لتسكنوا جنة اللهِ وتجاوروهُ تقدستْ أسماؤُه ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤]. (١)

(١) لا تحزن: (ص: ٧٠/ ٧١).

أيها القارئ الكريم:

اعلم أنك مسافر إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ ﴾ [الانشقاق: ٦]، والمسافر يجب أن ينتبه إلىٰ رحلته، ويكون يقظًا، ولقد ذكر ابن القيم صفة هذا المسافر فقال: يعمل علىٰ موافقة الله......فهو في واد والناس في واد خاضع متواضع سليم القلب، سلس القيادة للحق، سريع القلب إِلىٰ ذكر الله، بريء من الدعاوىٰ لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهد في كل ما سوىٰ الله، راغب في كل ما يقرب إِلىٰ الله، قريب من الناس أَبعد شيء منهم، يأْنس بما يستوحشون منه ويستوحش مما يأْنسون به، متفرد في طريق طلبه لا تقيّده الرسوم ولا تملكه العوائد ولا يفرح بموجود لا يأْسف علىٰ مفقود، من جالسه قرت عينه به ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه، قد حمل كله ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز، لا يدخل فيما لا يعنيه ولا يبخل بما لا ينقصه، وصفه الصدق والعفة والإِيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضًا ولا مدحة، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرىٰ له علىٰ أَحد حقًّا ولا يرىٰ له علىٰ أَحد فضلًا، مقبل علىٰ شأْنه مكرم لإِخوانه بخيل بزمانه حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه لا يضع عصا السير عن عاتقه حتىٰ يصل إِلىٰ مطلبه.(١)

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (ص: ٥١). بتصرف.

✍ **ولنتأمل كلام هذا الزاهد!**

قِيلَ لِزَاهِدٍ: مَا لَكَ تَمْشِي عَلَىٰ الْعَصَا وَلَسْت بِكَبِيرٍ وَلَا مَرِيضٍ؟ فَقَالَ: إنِّي أَعْلَمُ أَنِّي مُسَافِرٌ وَأَنَّهَا دَارُ بُلْغَةٍ وَإِنَّ الْعَصَا مِنْ آلَةِ السَّفَرِ. فَأَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ فَقَالَ:

حَمَلْت الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا... عَلَيَّ وَلَا أَنِّي تَحَنَّيْت مِنْ كِبَرِ

وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْت نَفْسِي حَمْلَهَا... لِأُعْلِمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَىٰ سَفَرِ(١)

- إن لنا عدوًا لا يريد لنا أن نثب نحو الجنة، ويريد أن يوقع بنا شيئًا أشد من القتل، وهو ضياع الجنة، لأن من ضاعت منه الجنة سيصرخ بين جنبات النار قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨﴾ [الزخرف: ٧٧- ٧٨].

الأمر الثاني: لا حظت ورأيت أن الذي يعيش بعقلية المغترب المسافر، لا يهتم كثيرًا بمعرفة الكثير من التفاصيل عن مكان الغربة سوىٰ المكان الذي يعيش فيه، ولا يتطلع إلىٰ تفاصيل لا يحتاجها، فيكفيه من المعرفة ما يبلغه مقصده من رحلة غربته، ولا يشغل نفسه بما زاد عن ذلك.

---

(١) أدب الدنيا والدين: (ص: ١٢١).

- أما وطنه الأصلي فهو علىٰ دراية تامة به، يعرف طرقه وسككه، وحدائقه ومتنزهاته، وأسواقه ونواديه.

* ومن هنا وقفت مع هذا الحديث: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».(١)

فالرسول ﷺ يأمرنا أن نعيش بعقلية المغترب في هذه الدنيا، ومن هنا وجب علينا أن نعرف كل شيء عن الجنة، لأن الجنة هي الوطن الأصيل كما سبق وأشرنا إلىٰ ذلك، فهل نحن نعرف شيئًا عن وطننا الأبدي ومستقرنا الأخير، حتىٰ إذا ما وصل الواحد منَّا لم يحتج إلىٰ أن يستدل أحدًا علىٰ بيته من وسط ما لا يُحصىٰ فيها من البيوت، وكأنه سكنها منذ خُلق.

إن المؤمن سيكون أهدىٰ إلىٰ درجته في الجنة وزوجته، وخدمه وإلىٰ منزله وأهله في الدنيا، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ⑥﴾ [محمد: ٦]، وقول الرسول ﷺ «**يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**».(٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٦).
(٢) صحيح البخاري: (٦٥٣٥).

فهذا دليل علىٰ أن الله ألقىٰ في رُوع المؤمنين أين بيوتهم ونعيمهم هناك فساروا إلىٰ هناك بغير دليل، أو أنهم من كثرة ما عرفوا عن الجنة في دنياهم لم يحتاجوا في الآخرة إلىٰ تعريف.

ومن هنا أطرح هذا السؤال: ماذا عرفت عن وطنك الأول ومستقرك الأخير ومحل إقامتك الأبدية؟

هل ما عرفته عنه هو مثل ما عرفته عن دنياك؟ أو نصف ما عرفته عنها؟ أو حتىٰ العُشر؟

إن الله بيَّن لنا أن من الناس ناسًا يعلمون عن الدنيا الكثير، ولا يعلمون عن الآخرة شيئا بل هم عن الآخرة غافلون قال تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧]، وقال الرسول ﷺ «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالْآخِرَةِ**».(١)

ꕤ

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي: (١٠/ ٣٢٧) وانظر: الصحيحة: (١٩٥) وصحيح الجامع: (٨٢٦).

بصيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أصول الدين، وهما وظيفة الأنبياء والرسل، وقد شرف الله بهما هذه الأمة، فهم خير الأمم إذا قاموا بذلك قال الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والأمر بالمعروف [١] والنهي عن المنكر[٢]، واجبان علىٰ كل مسلم ومسلمة كما قال الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* وقال النبي ﷺ: «**مَنْ رَأىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».[٣]

والمسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن هذه وظيفته التي شرفه بها ربه، وكلفه بها، ووعده علىٰ ذلك الثواب العظيم والأجر

(١) المعروف: هو التوحيد والإيمان والطاعات وكل خير.
(٢) المنكر: هو الشرك والكفر والمعاصي وكل شر.
(٣) أخرجه مسلم برقم: (٤٩).

الجزيل.

والمسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالًا لأمر الله ورسوله: إما رجاء الثواب الذي يحصل له عند القيام بهما.. وإما خوف العقاب علىٰ تركهما.. وتارة الغضب لله علىٰ انتهاك محارمه.. وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم وإنقاذهم مما وقعوا فيه من التعرض لعقوبة الله.. وتارة يحمل العبد علىٰ القيام بهما إجلال الله وتعظيمه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع ويذكر ويشكر.. وتارة لرؤية الشيطان يتلاعب بالعباد، ويسوقهم إلىٰ المعاصي والفواحش فيغار الإنسان عليهم.

والواجب شكر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والدعاء لهم، وإكرامهم والوقوف معهم، فمن نبهك علىٰ وجود عقرب في بدنك، أو أهدىٰ إليك هدية فعليك أن تشكره، وترضىٰ عنه، وتدعو له، لا أن تمتعض منه.

وعلىٰ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يصبر علىٰ إهانة الناس له: فإن كانت إهانتهم تعود لكوني مشاركًا في الدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأحيل ذلك الشخص إلىٰ مُنزل القرآن، الذي استخدمني في هذه المهمة، فهو عزيز حكيم.

وإن كان كلامه من نوع تحقير وإهانة لشخصي بالذات، فهذا أيضًا لا يخصني، وإنما أنا كالأسير، وإهانة الأسير تعود إلىٰ مالكه، فهو الذي يدافع عنه كما قال الرجل الصالح الناصح لقومه: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [غافر: ٤٤- ٤٥].

الواجب على من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولًا: العلم بالمعروف والمنكر، والتمييز بينهما، والعلم بحال المأمور، وحال المنهي.

ثانيًا: الرفق بالناس حال أدائهما، فالله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، وما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه، واللين يقطع أعظم مما يقطع السيف.

ثالثًا: الحلم والصبر علىٰ الأذىٰ من الناس كما قال سبحانه: ﴿ **وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾** ﴾ [المزمل: ١٠].

فلا بدَّ من هذه الثلاثة:

العلم قبل الأمر والنهي.. والرفق معه.. والصبر بعده.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلاهما لازم، لكن الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف هو الأصل، وبه يستقيم الناس علىٰ الدين، فإذا ركب الناس الفواحش، وغشوا المحرمات، وتركوا الطاعات، وأقبلوا علىٰ المعاصي، وجب تغيير هذه المنكرات كما قال النبي - ﷺ -: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».(١)

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٩).

ولتغيير المنكر ثلاث درجات:

الأولىٰ: تغيير المنكر باليد، وهذا خاص بولي الأمر، أو من ينيبه عنه، إذ جعل الله له القوة والسلطان والجاه، وخضوع الرعية له.

فكل من مكنه الله في الأرض لزم عليه تغيير المنكر باليد، وذلك يشمل حاكم الدولة، والقاضي في محكمته، والقائد في جيشه، والمدير في مصلحته، والأب في منزله.

الثانية: تغيير المنكر باللسان، وهذا خاص بالعلماء والدعاة، ويكون بالقول الحسن، والكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، لا يخشىٰ في الله لومة لائم.

الثالثة: تغيير المنكر بالقلب، وهذا أضعف الإيمان، وآخر المراتب، وهو في الوقت نفسه مهم جدًا، ولذا يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة من العامة والخاصة، ولا يسقط عن المكلف في كل زمان ومكان.

- **والإنكار بالقلب يكون كالتالي:**

بغض المعصية التي رآها أو سمعها.. التمني وهو أن يتمنىٰ أن لو يستطيع أن يزيل هذا المنكر بيده أو لسانه.. والدعاء بأن يدعو الله أن يزيل هذا المنكر، وأن يهدي قلب صاحبه إلىٰ الصراط المستقيم.

- **وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة أحوال:**

فتارة يصلح الأمر.. وتارة يصلح النهي.. وتارة يصلح الأمر والنهي.. وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا، وينهىٰ عن المنكر مطلقًا، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتىٰ يتبين له الحق.

- **والمنافع التي يجب على المسلم بذلها نوعان:**

منها ما هو حق المال كالزكاة الواجبة في الأموال لحاجة الفقراء والمساكين ونحوهم.

ومنها ما هو واجب لحاجة عامة الناس إليها، فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة كتعليم العلم، وإفتاء الناس، وأداء الشهادة، والحكم بينهم بالعدل، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنقاذ الإنسانية من مهلكة ونحو ذلك.

وقد أمرنا الله ﷻ أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله، وأمرنا أن ننهىٰ عن المنكر ونبغضه ونسخطه ونبغض أهله ونجاهدهم، ففي المخلوقات والصفات والأعمال ما نبغضه ونسخطه ونكرهه، وفيها ما نحبه ونرضاه، وكل ذلك بقضاء الله وقدره.

وإذا كان الله يبغض السيئ منها ويكرهه وهو المقدر لها فكيف لا يكرهها من أمره الله أن يكرهها ويبغضها؟.

وقد أمر الله عباده بكل ما يحبه ويرضيه، ونهاهم عما يبغضه ويسخطه كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي سلطة تأمر وتنهىٰ، والأمر

والنهي غير الدعوة، فالدعوة بيان، والأمر والنهي سلطان، وقد جمع الله بينهما في قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والإصلاح درجات تبدأ:

أولًا: بإصلاح النفس وتزكيتها بالأخلاق العالية، لتكون زهرة فواحة بالروائح الطيبة، من لم يقترب منها تأثر برائحتها الطيبة.

ثانيًا: ثم إصلاح المجتمع، حتىٰ تنتقل هذه الأخلاق الكريمة إلىٰ المجتمع فردًا فردًا، فتدخل البيوت، وتتجمل بها الأسر، وتتزين بها القبائل.

ثالثًا: ثم إصلاح الدولة، ليكون حكامها ووزراؤها وعمالها وتجارها هم نواة هذا المجتمع الذي آمن بالله ورسوله، وامتثل أوامر الله ورسوله في كل حال.

- **وإنكار المنكر له أربع حالات:**

الأولىٰ: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزُل بجملته.

الثالثة: أن يزول ويخلفه مثله.

الرابعة: أن يزول ويخلفه ما هو شر منه.

فالأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

وقد أمر النبي - ﷺ - بإنكار المنكر وتغيير المنكر ليحصل بذلك من

المعروف ما يحبه الله ورسوله.

فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه، وأبغض إلىٰ الله ورسوله منه، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار علىٰ الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإن ذلك أساس كل شر وفتنة إلىٰ آخر الدهر.

* وقد استأذن الصحابة رسول الله - ﷺ - في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟. فقال: «**لا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ، لا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ**».(١)

* وقال - ﷺ -: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**».(٢)

ومن تأمل ما جرىٰ علىٰ الإسلام من الفتن الصغار والكبار رآها من إضاعة هذا الأصل العظيم، وعدم الصبر علىٰ منكر، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه.

وقد كان رسول الله - ﷺ - يرىٰ بمكة أكبر المنكرات وألوان الشرك في أول بعثته ولم يستطع تغييرها بيده مع بغضه لها.

بل لما فتح مكة، وصارت دار إسلام عزم علىٰ تغيير البيت ورده علىٰ قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٧٠٥٤) واللفظ له، ومسلم برقم: (١٨٤٩).

من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالجاهلية.

* قال النبي - ﷺ - «**يا عائشة: لَوْلا أنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ؛ لأمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أخْرِجَ مِنْهُ، وَألْزَقْتُهُ بِالأرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَربيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ**».(١)، ولهذا لم يأذن في الإنكار علىٰ الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه من سفك الدماء واضطراب الأمن.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتهم منه إلىٰ ما هو أحب إلىٰ الله ورسوله - ﷺ - كالرماية وسباق الخيل ونحوهما.

وإذا رأيت الكفار المقاتلين يشربون الخمر فلا تنكر عليهم؛ لأن الله ﷻ إنما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية، وأخذ الأموال، وهكذا.

وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم علىٰ الشريعة، أوجب الحرج والمشقة، وحصول الفتن، وتكليف ما لا سبيل إليه، وما يُعلم أن الشريعة لا تأتي به.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٥٨٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٣٣٣).

بصيرة في ميزان الكرامة عند الله وعند الناس

إن ميزان الكرامة عند الناس متعلق دائمًا بالمظاهر الخادعة، والدليل علىٰ ذلك ما ورد عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: مَرَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟**» قَالُوا: رَأْيَكَ فِي هَذَا، نَقُولُ: هَذَا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ، أَنْ يُخَطَّبَ، وَإِنْ شَفَعَ، أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ، أَنْ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟**»، قَالُوا: نَقُولُ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ، لَمْ يُنْكَحْ، وَإِنْ شَفَعَ، لَا يُشَفَّعْ، وَإِنْ قَالَ، لَا يُسْمَعْ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَهَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**».(١) (٢)، وهذا حال أهل الدنيا في كل زمان ومكان، يقيسون الناس

---

(١) صحيح البخاري: (٥٠٩١)، سنن ابن ماجه: (٤١٢٠)، واللفظ له.

(٢) وهناك أحاديث تؤكد نفس هذا المعنىٰ: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّىٰ يَنْظُرَ إِلَىٰ وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ**» =

بميزان المظاهر والمناظر الخدَّاعة.

الميزان عند الله بالقلب وليس بالظاهر:

أما الميزان عند الله تعالىٰ فمختلف تماماً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ

....

=

لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّىٰ أُصَلِّيَ، فَصَلَّىٰ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَىٰ الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَىٰ جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَىٰ دَابَّةٍ فَارِهَةٍ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ». قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَىٰ مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٦) ومحل الشاهد هنا: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».(١)

يقول الإمام ابن رجب: وَحِينَئِذٍ فَقَدْ يَكُونُ كَثِيرٌ مِمَّنْ لَهُ صُورَةٌ حَسَنَةٌ، أَوْ مَالٌ، أَوْ جَاهٌ، أَوْ رِيَاسَةٌ فِي الدُّنْيَا قَلْبُهُ خَرَابًا مِنَ التَّقْوَىٰ، وَيَكُونُ مَنْ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ قَلْبُهُ مَمْلُوءًا مِنَ التَّقْوَىٰ، فَيَكُونُ أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، بَلْ ذَلِكَ هُوَ الْأَكْثَرُ وُقُوعًا.(٢)

وعَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الخُزَاعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ، جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ**».(٣)

سِمَاتُ أهلِ الكرامة عند الله تعالى:

لقد ذكر لنا رسول الله ﷺ سماتٍ وصفاتٍ لأهل الكرامة الذين يكرمهم الله بالجنة، وسماتهم وصفاتهم مذكورة في عدة أحاديث منها:

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ أَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَكُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ، وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ، فَكُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، ذِي تَبَعٍ**».(٤)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٦).

(٣) صحيح البخاري (٤٩١٨).

(٤) مسند أحمد: (١٢٤٧٦)، يقول محقق المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، =

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وَلاَ يَظْلِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجَنَّةُ: فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**».(١)

* وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**افْتَخَرَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَيْ رَبِّ يَدْخُلُنِي الْجَبَابِرَةُ وَالْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ وَالْأَشْرَافُ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: أَيْ رَبِّ يَدْخُلُنِي الْفُقَرَاءُ وَالضُّعَفَاءُ وَالْمَسَاكِينُ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا**».(٢)

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ١ - ٣]، قَالَ: تَخْفِضُ رِجَالًا

....

=

ابن لهيعة - واسمه عبد الله- سيئ الحفظ، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. حسن: هو ابن موسىٰ الأشيب، وأبو النضر: هو سالم بن أبي أمية التيمي المدني مولىٰ عمر بن عبد الله. وأخرجه أبو يعلىٰ (٣٩٨٧) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أنس.

(١) صحيح البخاري: (٤٨٥٠).

(٢) مسند أحمد: (١١٧٤٠)، صحيح ابن حبان: (٧٤٥٤).

كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُرْتَفِعِينَ، وَتَرْفَعُ رِجَالًا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مَخْفُوضِينَ.(١)

طلاب الآخرة يعرفون حقيقة ميزان الكرامة:

إن أهل الله هم طلاب الآخرة، وهم دائمًا يقفون مع الحقيقة الباطنة، فلا تغرهم الهياكل الفارغة، ولا المظاهر الكاذبة: عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ جَاءَ أَحَدَكُمْ فَسَأَلَهُ دِينَارًا لَمْ يُعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَمًا لَمْ يُعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ فِلْسًا لَمْ يُعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، ذُو طِمْرَيْنِ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ**».(٢)

بيان الحقيقة في الموازين التي يزن بها الناس:

١ - ميزان المال والأولاد:

إن ميزان المال والأولاد عند الناس ميزان دقيق جدًّا، وبسبب الخلل في ميزان الكرامة عند الناس، انخدع أهل الكفر والجاهلية فرفضوا الإيمان كلما دُعُوا إليه وأصروا علىٰ كفرهم، لاعتقادهم أن الأموال والأبناء يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة، ولقد أورد القرآن ذلك علىٰ لسان بعضهم حيث قال الله ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:٣٥].

يقول النسفي: أرادوا أنهم أكرم علىٰ الله من أن يعذبهم نظرًا إلىٰ أحوالهم في الدنيا وظنوا أنهم لو لم يكرموا علىٰ الله لما رزقهم الله، ولولا أن

---

(١) جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢٧٨).

(٢) المعجم الأوسط: (٧/ ٢٩٨)، وصححه العراقي.

المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم.(١)

- والحقيقة التي يجب أن نعلمها، أن الإنسان لا يوزن عند الله تعالىٰ يوم القيامة بماله ولا بأولاده، ولقد ردَّ القرآن علىٰ الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ:٣٥]، فقال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ:٣٦].

يقول النسفي: فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسَّع علىٰ العاصي وضيَّق علىٰ المُطِيع وربما عكس وربما وسَّع عليهما أو ضيق عليهما فلا يقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ:٣٦] قدر الرزق تضييقه قال الله تعالىٰ ومن قدر عليه رزقه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ:٣٦].(٢)

كما جاء الرد عليهم من الله في أكثر من موضع في القرآن، بإبطال ذلك المعتقد الفاسد كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران:١١٦].

---

(١) تفسير النسفي: (٣/ ٦٦).

(٢) تفسير النسفي: (٣/ ٦٦).

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المجادلة:١٧].

– وسبب نزول هذه الآية كما قَالَ مُقَاتِلٌ: قَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ يُنْصَرُ يوم القيامة لقد شقينا إذا! فو الله لَنُنْصَرَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا إِنْ كانت قيامة، فنزلت الآية. (١)

– ولقد ذكر القرآن الكريم مثالًا علىٰ جزاء من اعتز بماله وولده، واعتقد أنهما سيفديانه من الله، ويخرجانه من النار، ويدفعان عنه عذاب يوم القيامة، وهو أبو لهب حيث قال تعالىٰ فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾ [المسد: ١ – ٥].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْذَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشِيرَتَهُ بِالنَّارِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْدِي نَفْسِي بِمَالِي وَوَلَدِي، فَنَزَلَ: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② ﴾ [المسد:٢]. (٢)

فالآية الكريمة تنفي نفع المال والولد لصاحبها، فهي لا تغني عنه من الله شيئًا، وهذا النفي له معنيان: يقول الإمام الرازي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَفْيًا، وَعَلَىٰ التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَىٰ: أَيُّ تَأْثِيرٍ كَانَ لِمَالِهِ وَكَسْبِهِ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ أَكْثَرُ مَالًا مِنْ قَارُونَ

(١) فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٣٠)
(٢) تفسير القرطبي: (٢٠/ ٢٣٨).

فَهَلْ دَفَعَ الْمَوْتَ عَنْهُ؟!، وَلَا أَعْظَمَ مُلْكًا مِنْ سُلَيْمَانَ فَهَلْ دَفَعَ الْمَوْتَ عَنْهُ؟!، وَعَلَىٰ التَّقْدِيرِ الثَّانِي يَكُونُ ذَلِكَ إِخْبَارًا بِأَنَّ الْمَالَ وَالْكَسْبَ لَا يَنْفَعُ فِي ذَلِكَ(١).

فأثبت القرآن أن ماله كان سببًا في دخوله جهنم لأنه سبب في إصراره، وعناده وبقائه علىٰ الكفر، قال تعالىٰ: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ [المسد:٣] وهذا وعيد من الله لما سيلقىٰ في الآخرة من العذاب في نار جهنم.

- ولقد أكد القرآن في موضع آخر أن المال والولد لا يغنيان عن أصحابهما شيئا يوم القيامة قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

يقول ابن كثير: لَا يَقِي الْمَرْءَ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَالُهُ، وَلَوِ افْتَدَىٰ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا: ﴿وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الشعراء:٨٨] وَلَوِ افْتَدَىٰ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلَا ينفعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الإيمانُ بِاللهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:٨٩] أَيْ: سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشِّرْكِ. (٢)

وكذلك يأتي نفي القرآن بنفع الأبناء لآبائهم يوم القيامة فيقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا

(١) تفسير الرازي: (٣٢/ ٣٥١).
(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ١٤٩).

يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

المال والبنون لا تخلد أصحابها في الدنيا:

يعتز الأغنياء بأموالهم وأبنائهم ظنـًا منهم أنهما سيخلدانهم في الدنيا، وسيدفعان عنهم السوء في الدنيا والآخرة فجاء القرآن بالنفي القاطع لهذا الظن الخاطئ فقال الله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ④ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ⑥ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ⑧ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ⑨﴾ [الهمزة: ١ - ٩].

الأموال والأولاد لا تقرب أصحابها إلى الله زلفى:

امتنع صناديد مكة في بداية الدعوة الإسلامية عن الدخول في الإسلام اعتزازاً بأموالهم وأولادهم، وتفاخراً بهم، ظنـًا منهم أنها تقربهم من الله سبحانه وتعالىٰ، إذ المال وسيلة لجذب القلوب، فالأموال والأولاد هي التي تحقق لهم ما يتمنون، وتقربهم ممن يريدون، وهذا علىٰ نطاق البشر فظنوا أنه يتناسب مع الله تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا لذلك فقد جاءت الآيات الكريمة تكذيبًا لدعواهم الباطلة، ونافية لاعتقادهم وظنهم قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ㊲﴾ [سبأ:٣٧].

يقول الطبري: وما أموالكم التي تفتخرون بها أيها القوم علىٰ الناس

ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم، بالتي تقربكم منًّا قربة. (١)

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل:١١]، فمن استغنىٰ عن طاعة الله، من أجلِ أن يجمعَ المالَ الوفيرَ، ولم يعبأ بالآخرة، فلم ينفق منه شيئًا، من أجلِ أن تنموَ ثروته، لا ينفعه هذا المال بل ما جمّعه في عمر مديد يخسره في ثانية واحدة قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل:١١].

٢ - ميزان الثياب:

إن الناس كما يَزِنُونَ بميزان المال والأولاد، يَزِنُونَ بميزان الثياب لأنها دليل عندهم علىٰ كثرة المال، ومن هنا انخدع بنو إسرائيل لمَّا رأوا قارون يَرْفُل في زينته، وحوله خدمه وحشمه، فسال لعابهم، وتمنَّوا لو كانوا مكانه، وقالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٧٩﴾ [القصص:٧٩]، وهذه هي غاية طلاب الدنيا في بني إسرائيل، بل وفي غيرهم علىٰ مرِّ العصور، وكرِّ الدهور أقرب الناس إلىٰ نفوسهم: أغناهم مالًا، وأكثرهم جاهًا، وأعلاهم حسبًا، وإن كان كافرًا فاجرًا.

- والحقيقة التي يجب أن نعلمها أن المرء لا يوزن بثيابه: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، انْظُرْ أَرْفَعَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ»** قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ حُلَّةٌ، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا. قَالَ: قَالَ لِي: **«انْظُرْ أَوْضَعَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ»** قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ أَخْلَاقٌ، قَالَ: قُلْتُ: هَذَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَهَذَا عِنْدَ اللهِ أَخْيَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلِ**

(١) تفسير الطبري: (٢٠/ ٤١١).

هَذَا». (١)

* وعَنْ ضَمْرَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ، أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «**يَا ضَمْرَةُ، أَتَرَىٰ ثَوْبَيْكَ هَذَيْنِ مُدْخِلَيْكَ الْجَنَّةَ؟**»، فَقَالَ: لَئِنْ اسْتَغْفَرْتَ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أَقْعُدُ حَتَّىٰ أَنْزِعَهُمَا عَنِّي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِضَمْرَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ**» فَانْطَلَقَ سَرِيعًا حَتَّىٰ نَزَعَهُمَا عَنْهُ. (٢)

ولقد كان رسولنا ﷺ أحيانًا كثيرة يلبس ثيابًا متواضعة، مع جلال قدره ﷺ.

عرضت له الدنيا فأعرض زاهدًا ... يبغي من الأخرىٰ المكان الأرفعا
ما جرَّ أثوابَ الحريرِ ولا مشىٰ ... بالتَّاجِ من فوق الجَبين مُرصَّعا
وهو الذي لبس السعادة حلة ... فضفاضة لبس القميص مرقعا (٣)

---

(١) مسند أحمد: (٣٥/ ٣١٤)، وانظر: صحيح الترغيب والترهيب: (٢٩).

(٢) مسند أحمد: (٣١/ ٣١٧).

(٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: لبس الدنيِّ من الثياب يذمّ في موضع، ويحمد في موضع: فيُذم إذا كان شهرة وخيلاء، ويُمدح إذا كان تواضعـًا واستكانةً، كما أن لبس الرفيع من الثياب يُذمّ إذا كان تكبّراً وفخراً وخيلاء، ويُمدح إذا كان تجملًا وإظهارًا لنعمة الله. «زاد المعاد» (١ / ١٤٦).
وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والذي يجتمع من الأدلة: أنَّ مَن قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه، مستحضرًا لها، شاكرًا عليها، غير محتقر لمن ليس له مثله: لا يضره ما لبس من المباحات، ولو كان في غاية النفاسة، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»، وقوله (وغَمْط) بفتح =

وهـو الـذي لـو شـاء نالـت كفـه... كـل الـذي فـوق البسـيطة أجمعـا

موقف للإمام الشافعي:

لما أشخص الشافعي إلىٰ «سُرَّ مَنْ رَأَىٰ» دخلها وعليه دَرَنُ الطريق؛ فتقدّم إلىٰ حجَّامٍ ليأخذ من شعره، فقدّم الحجامُ عليه أنظفَ ثوبًا منه، ثم دعا بالشافعي، فلما فرغ من أمره أَمَر له بعشرين دينارًا. فعدا الحجام في طلبه معتذرا إليه، فقال له الشافعي: ارجع؛ أنت أجير استأجرناك ووفَّيْنَاك أجْرَك، ثم جعل يقول:

عَلَـيَّ ثِيَـابٌ لَـوْ تُبَـاعُ جَمِيْعُهَـا... بِفَلْـسٍ لَكَـانَ الْفَلْـسُ مِـنْهُنَّ أَكْثَـرا
وَفِـيْهِنَّ نفـسٌ لَـوْ تُقَـاسُ بِمِثْلِهَـا... نُفُـوْسُ الْـوَرىٰ كانَـتْ أَجَـلَّ وَأَخْطَـرا
وَما ضَرَّ نصلَ السَّيْفِ إِخْلاقُ غِمْدِهِ... إِذا كَـانَ عَضْـبًا حَيْـثُ أَنْفَذْتَـهُ بَـرا
فَـإِنْ تَكُـنِ والأَيَّـامُ أَزْرَتْ بِبِزَّتِـي... فَكَمْ مِنْ حُسام في غِلافٍ مُكَسَّرا(١)

٣ - ميزان ضخامة البدن:

وعند الناس ميزان آخر هو ميزان ضخامة البدن، حتىٰ أصبحنا نلحظ من يلعب الرياضة لا لشيء إلا ليظهر أمام الناس بمنظر الضخامة في البدن والبنيان، وهناك من يعجب بأمثال هؤلاء، حتىٰ وإن كان جاهلًا، ولم يعد منه

....
=
المعجمة وسكون الميم ثم مهملة: الاحتقار. «فتح الباري» (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠).
(١) مناقب الشافعي للبيهقي: (١/ ١٢٩)، واللفظ له، «حلية الأولياء» (٩/ ١٣١)، حسن التنبه لما ورد في التشبه: (٦/ ٤٤١).

نفع علىٰ أمته ودينه ووطنه وأهله. (١)

- والحقيقة التي يجب أن نعلمها أن المرء لا يوزن عند الله بضخامة بدنه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا،** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف:١٠٥]». (٢)

- وعَنْ جَعْدَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَرَأَىٰ رَجُلًا سَمِينًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُومِئُ إِلَىٰ بَطْنِهِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: «**لَوْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا لَكَانَ خَيْرًا لَكَ**». (٣)

- ولقد كان ابن مسعود رضي الله عنه نحيفًا، دقيق الساقين في الدنيا ولكن وزنه يوم القيامة مختلف: عَنْ أُمِّ مُوسَىٰ، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يَقُولُ: أَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ابْنَ مَسْعُودٍ فَصَعِدَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ أَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْهَا بِشَيْءٍ، فَنَظَرَ أَصْحَابُهُ إِلَىٰ سَاقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ حِينَ صَعِدَ الشَّجَرَةَ، فَضَحِكُوا مِنْ حُمُوشَةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا تَضْحَكُونَ؟ لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ**

---

(١) إن ضخامة البدن يمكن أن تكون خيراً، إذا استخدمت في طاعة الله، ولقد مدح الله طالوت فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧]، فكانت البسطة في الجسم نعمةً انتفع بها أهل الحق، ولقد كان فاروق الأمة صاحب بسطة في الجسم، وكذا سيف الله خالد بن الوليد.

(٢) صحيح البخاري: (٤٧٢٩).

(٣) مسند أحمد: (٢٥/ ٢٠٣)، والسلسلة الضعيفة: (٤٨٦١).

الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ». (١)

يا خادمَ الجسمِ كم تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ... أَتطْلُبُ الربحَ مِمَّا فِيه خُسرانُ
أَقْبِلْ علىٰ النفسِ واستكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فأَنْتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ
وإنْ أَسَاءَ مُسِيء فَلْيَكُنْ لَكَ فِي... عُروضِ زَلَّتِهِ عَفْوٌ وغُفرانُ
وكن علىٰ الدهرِ مِعوانًا لِذِي أملٍ... يَرجُو نَدَاكَ فإنَّ الحرَّ مِعوانُ
واشدُدْ يَدَيْكَ بحبلِ اللهِ مُعْتَصِمًا... فإنهُ الركنُ إن خَانَتْكَ أركَانُ

٤ - ميزان الحسب والنسب:

أيضًا من الموازين عند الناس ميزان الحسب والنسب، مع أن الحقيقة التي يجب أن نعلمها أن المرء لا يوزن عند الله بحسبه ولا بنسبه: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١)** ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَىٰ عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السلام، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّىٰ عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ**». قَالَ: «**فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَىٰ اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ**». (٢)

---

(١) مسند أحمد: (٢/ ٢٤٣).

(٢) مسند أحمد: (٣٥/ ١١٠).

وصدق القائل:

لعمــرك مــا الإنســان إلا بدينــه... فلا تترك التقوىٰ اتكالاً علىٰ النسب
فقـد رفـع الاسـلامُ سـلمانَ فـارسٍ... وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيْفَ أَبَا لَهَبْ

– وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَذَكَرُوا عِنْدَهُ الْحَسَبَ فَقَالَ حَسَبُ الرَّجُلِ دِينُهُ وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ. (١)

وهنا لنا وقفة للتذكير فأقول: ما هي مواصفات الزوجة الصالحة؟

* إن كان المطلب هو الجمال؟ فإن الجمال مطلب أهل فارس.

* وإن كان المطلب هو المال؟ فإن المال مطلب اليهود.

* وإن كان المطلب هو الحسب؟ فإن الحسب هو مطلب الرومان.

* وإن كان المطلب هو الدين؟ فإن هذا هو مطلب الإسلام.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**». (٢)

فالدين هو كل شيء في المرأة، ولا يعني ذلك؛ أن نعفي الرجال من مسئولية البحث عن الجمال، أو طلب الحسب، أو المال، لكن ينبغي ألا يكون هذا علىٰ حساب الدين، وإلا فسيكون غير موفق في اختياره، فلا بد أن يجعل الدين هو الأصل وما بقي تبع له ونحن نؤمن أن الجمال مطلوب

(١) المروءة: (ص: ٣٥).
(٢) صحيح البخاري: (٥٠٩٠)، صحيح مسلم: (١٤٦٦).

وكذلك الحسب مطلوب، وأن المال لا بأس بطلبه خالصًا وحلالًا، لكن يقول الله سبحانه تعالىٰ: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١] فاظفر بذات الدين تربت يداك. (١)

ويوم أُسيءَ الاختيار في بعض الأماكن ؛ نشأ الجيل معوجًّا، وأتىٰ الطفل راضعـًا من أم جاهلة أو ليست مستقيمة، أو أم فيها حمق، لأن الاختيار كان عن عدم تقدير وحكمة.

فأول مسئوليات الآباء: اختيار الزوجة الصالحة، التي تريد الله والدار والآخرة، ولا عبرة بالمرأة التي لا تريد الله، ولا تعمل بكتاب الله ولا بسنة الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- ولو كانت في أي بيت!

لقد عذب الله ﷻ امرأة نوح، وامرأة لوط، و مدح سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ امرأة فرعون، ففي بيت فرعون تنشأ امرأة مسلمة مؤمنة، وفي بيت النبوة تنشأ امرأة فاجرة كافرة، فسبحان صاحب الحكمة!

٥ - ميزان الملك والسلطان:

إن الملك والسلطان ميزان للكرامة عند الناس، فمن آتاه الله الملك مجَّدُوه ومدَحُوه، بل منهم من عبده الناس لأنه صاحب ملك وسلطان كفرعون لعنه الله، كما قصَّ علينا القرآن من خبره فقال تعالىٰ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٣، ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وهدَّد فرعونُ

(١) راجع: (بصيرة في الخير والشر) ففيها بيان للميزان الذي يريد الله منَّا أن نتعامل به.

موسىٰ عليه السلام فقال: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩].

والحقيقة التي يجب أن نعلمها أن المرء لا يوزن بملكه، لأنه يمكن أن يكون صاحب ملك وسلطان، لكنه عند الله منبوذ ألم يقل الله تعالىٰ: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢].

فالله جعل فرعون عبرة وهذا لهوانه علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٦]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي، وَأَنَا آخِذٌ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ**».(١)

- وما حدث لفرعون حدث لغير فرعون ممن تكبروا وتجبروا، ولا مجال هنا لبسط القول عن هؤلاء.

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٢/ ٢١٦)، المستدرك: (٤/ ٢٧٨).

- إن الملك الحقيقي لله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٥، ٢٦]، فقوله: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾ [الفرقان:٢٦]، أفاد أن كلَّ ملكٍ سوىٰ ملك الله زائل، والملك الحقيقي هو الذي يبقىٰ ولا ملك يبقىٰ إلا ملك الملك سبحانه قال تعالىٰ: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر: ١٥- ١٦].

- ولأن الملك لله فهو الذي يهب الملك وهو الذي ينزعه إذا أراد قال الملك سبحانه وتعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [البقرة:٢٤٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الأنعام:٧٣] وغير ذلك من الآيات الكثير.

قصة تبين الفارق في ميزان الكرامة عند الله تعالى:

عن وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ، يَقُولُ: كَانَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ أَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ

إِلَىٰ الْأَرْضِ فَدَعَا بِثِيَابٍ يَلْبَسُهَا فَجِيءَ بِثِيَابٍ فَلَمْ تُعْجِبْهُ.

فَقَالَ: ائْتُونِي بِثِيَابٍ كَذَا وَكَذَا حَتَّىٰ عَدَّ أَصْنَافًا مِنَ الثِّيَابِ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْجِبُهُ حَتَّىٰ جِيءَ بِثِيَابٍ وَافَقَتْهُ فَلَبِسَهَا.

ثُمَّ قَالَ: جِيئُونِي بِدَابَّةٍ كَذَا فَجِيءَ بِهَا فَلَمْ تُعْجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: جِيئُونِي بِدَابَّةٍ كَذَا فَجِيءَ بِهَا فَلَمْ تُعْجِبْهُ حَتَّىٰ جِيءَ بِدَابَّةٍ وَافَقَتْهُ فَرَكِبَهَا.

فَلَمَّا رَكِبَهَا جَاءَ إِبْلِيسُ فَنَفَخَ فِي مَنْخَرِهِ نَفْخَةً فَعَلَاهُ كِبْرًا، قَالَ: وَسَارَ وَسَارَتِ الْخُيولُ مَعَهُ.

قَالَ: فَهُوَ رَافِعٌ رَأْسَهُ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ النَّاسِ كِبْرًا وَعِظَمًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ ضَعِيفٌ رَثُّ الْهَيْئَةِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ.

فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَلَمْ يَسْمَعْ كَلَامَهُ.

قَالَ: فَجَاءَ حَتَّىٰ أَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ!

فَقَالَ: أَرْسِلْ لِجَامَ دَابَّتِي فَقَدْ تَعَاطَيْتَ مِنِّي أَمْرًا لَمْ يَتَعَاطَهُ مِنِّي أَحَدٌ!!

قَالَ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً قَالَ: أَنْزِلُ فَتَلَقَّانِي؟

قَالَ: لَا الْآنَ، قَالَ: فَقَهَرَهُ عَلَىٰ لِجَامِ دَابَّتِهِ!

فَلَمَّا رَأَىٰ أَنَّهُ قَدْ قَهَرَهُ قَالَ: حَاجَتُكَ؟

قَالَ: إِنَّهَا سِرٌّ أُرِيدُ أَنْ أُسِرَّهَا إِلَيْكَ!

قَالَ: فَأَدْنَىٰ رَأْسَهُ إِلَيْهِ فَسَارَّهُ.

قَالَ: أَنَا مَلَكُ الْمَوْتِ.

قَالَ: فَانْقَطَعَ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَاضْطَرَبَ لِسَانُهُ!!

ثُمَّ قَالَ: دَعْنِي حَتَّىٰ آتِيَ أَرْضِي هَذِهِ الَّتِي خَرَجْتُ إِلَيْهَا وَأَرْجِعُ مِنْ مَوْكِبِي ثُمَّ تَمْضِي فِي أَمْرِكَ.

قَالَ: وَاللهِ لَا تَرَىٰ أَرْضَكَ أَبَدًا وَلَا وَاللهِ لَا تَرْجِعُ مِنْ مَوْكِبِكَ هَذَا أَبَدًا!!

قَالَ: دَعْنِي حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي فَأَقْضِي حَاجَةً إِنْ كَانَتْ.

قَالَ: لَا وَاللهِ لَا تَرَىٰ أَهْلَكَ وَثِقَلَكَ أَبَدًا، قَالَ فَقَبَضَ رُوحَهُ مَكَانَهُ فَخَرَّ كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ.

قَالَ وهب: وَبَلَغَنِي أَيْضًا أَنَّهُ لَقِيَ عَبْدًا مُؤْمِنًا فِي تِلْكَ الْحَالِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

فَقَالَ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً.

قَالَ: هَلُمَّ فَاذْكُرْ حَاجَتَكَ.

قَالَ: إِنَّهَا سِرٌّ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ.

قَالَ: فَأَدْنَىٰ إِلَيْهِ رَأْسَهُ لِيُسَارَّهِ بِحَاجَتِهِ فَسَارَّهُ فَقَالَ: أَنَا مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا مَرْحَبًا بِمَنْ طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَلَيَّ فَوَاللهِ مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَاهُ مِنْكَ!!

قَالَ: فَقَالَ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: اقْضِ حَاجَتَكَ الَّتِي خَرَجْتَ لَهَا!

قَالَ: مَا لِي حَاجَةٌ أَكْبَرُ عِنْدِي وَلَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لِقَاءِ اللهِ!!!

قَالَ: فَاخْتَرْ عَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ أَقْبِضُ رُوحَكَ!!

قَالَ: وَتَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ؟

قَالَ: نَعَمْ أُمِرْتُ بِذَلِكَ!!

قَالَ: نَعَمْ إِذًا فَقَامَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ فَلَمَّا رَآهُ سَاجِدًا قَبَضَ رُوحَهُ.(١)

* **قلت (محمد)**: وصدق أعزُّ من قال: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف:١٠٥]. وهاتان الآيات واضحتان في بيان ميزان الكرامة.

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:(٦/ ٢٠٢).

بصيرة في الرزق

إن أعظم ضلال الناس في كل العصور بسبب ضعف الثقة بالله ﷻ خاصة في ثلاث قضايا وهي: الرزق والأجل ومستقبل الأولاد.

والعجيب أن الله تكفل بالرزق للمؤمن والكافر والبر والفاجر، وإذا تأملنا القرآن سنجد أن الخليل إبراهيم طلب من الله أن يقصر الرزق علىٰ المؤمنين فقط فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإذا بالله يقول له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].فبين ربنا أن الرزق للناس جميعًا علىٰ جميع أحوالهم وعلىٰ اختلاف معتقداتهم.

والخوف علىٰ الرزق يمكن أن يسوق الكثيرين إلىٰ الضلال، وربما إلىٰ الكفر والنفاق وهذا كله بسبب ضعف الثقة في الله ﷻ.

حديث القرآن عن الرزق:

يبيّن لنا ربنا في القرآن الكريم أنه هو الخالق الرازق فيقرن في الحديث بين قضية الخلق وقضية الرزق وهذا من أجل أن يعلم الناس أن الخالق هو الرازق ولن ينسىٰ أحدًا سبحانه.

القرآن يربط بين قضية الخلق وقضية الرزق:

* يقول ربنا عزّ من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

الرازق هو الله وحده:

لا تحزنْ منْ تعسُّر الرزقِ فإنَّ الرزَّاق هو الواحدُ الأحدُ، فعنده رِزْقُ العبادِ، وقدْ تكفَّلَ بذلك، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وبهذه الطريقة يؤكد

القرآن على هذا المعنى وهو أن الله هو الرزاق ولا رزاق إلا الله.

فإذا كان اللهُ هو الرزاقُ فلِم يتملَّقُ البشرُ، ولِم تُهانُ النفسُ في سبيلِ الرزقِ لأجل البشرِ؟! قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

* وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

* وقال جلَّ اسمُه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وبهذا نجد أن القرآن حسم القضية في موضوع الرزق وبين أنه لا رازق إلا الله.

النهي عن الخوف على الرزق فهو بيد الله سبحانه:

لا تخف فرزقُك مضمونٌ قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. لتعلم البشريَّةُ أنَّ رازق الوالدِ، هو الذي لم يلدْ ولمْ يولدْ.

* وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾. إنَّ صاحب الخزائنِ الكبرى جلَّ في علاهُ قد تكفَّل بالرزقِ، فِبم القلقُ والزعيمُ بذلك اللهُ؟! ولقد كانتْ مريمُ عليها السلامُ يأتيها رزقُها في المحرابِ صباح مساء، فقيل لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ

عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الشورىٰ: ١٩]. وقال الخليل: ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ ﴾ [الشعراء: ٧٩].

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر:

وفي القرآن الكريم بيان لحقيقة كبرىٰ وهي أن الله هو الذي يبسط لمن يشاء ويقدر علىٰ من يشاء:

* قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ [الرعد: ٢٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء: ٣٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الروم: ٣٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ ﴾ [سبأ: ٣٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الزمر: ٥٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الشورىٰ: ١٢].

علينا الطاعة وعلى الله سبحانه الرزق:

* قال تعالىٰ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

بسط الرزق ربما يكون سببًا في البغي:

ويبيّن لنا ربنا أن البسط في الرزق ربما كان سببًا في البغي في الأرض كما حدث مع قارون، وأبي بن خلف وغيرهما حينما بسط الله لهم في الرزق فلم يشكروه، ولكنهم استغلوه لمحاربة دين الله وفي هذا يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورىٰ: ٢٧].

فحقًّا ينزل ربنا سبحانه بقدر وهو أعلم بأحوالنا يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١]

لا تحزنْ على تأخُّر الرِّزقِ، فإنّه بأجلٍ مسمّىً:

وبما أن بسط الرزق ربما يكون سببًا في البغي نقول: لا تحزنْ علىٰ تأخُّر الرِّزقِ، فإنّه بأجلٍ مسمّىً، فالذي يستعجلُ نصيبه من الرِّزقِ، ويبادرُ الزمن، ويقلقُ منْ تأخُّرِ رغباتِه، كالذي يسابقُ الإمام في الصلاةِ، ويعلُم أنّه لا يسلِّمُ إلا بعْد الإمام! فالأمورُ والأرزاقُ مقدَّرةٌ، فُرِغ منها قبل خلْقِ الخليقةِ،

بخمسين ألف سنةٍ، ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧].

يقولُ عمرُ: «اللَّهمَّ إني أعوذُ بك من جلدِ الفاجرِ، وعجزِ الثقةِ». وهذهِ كلمةٌ عظيمةٌ صادقةٌ. فلقدْ طُفْتُ بفكري في التاريخِ، فوجدتُ كثيرًا منْ أعداءِ اللهِ ﷻ، عندهمْ منْ الدَّأبِ والجلدِ والمثابرةِ والطُّموحِ: العَجَبَ العُجابَ. ووجدتُ كثيرًا من المسلمين عندهمْ من الكسلِ والفتورِ والتَّواكُلِ والتَّخاذُلِ: ما اللهُ به عليمٌ، فأدركتُ عُمْق كلمةِ عُمَرَ - رضي الله عنه -.(١)

سورة الذاريات والرزق الإلهي:

تكررت الإشارات في سورة الذاريات فجاء الحديث مباشرة:

١ - فقال تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

٢ - وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨].

وجاء الحديث تعريضًا:

١ - قال تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: ١٩].

٢ - وقال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات: ٢٤] فوصف الله الخليل بالجود وهذا له تعلق بالرزق.

---

(١) لا تحزن (ص: ٢٨٥). بتصرف.

* وقفة مع قوله تعالىٰ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢ - ٢٣].

✍ **قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ**: كَمَا أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَنْطِقُ بِنَفْسِهِ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَنْطِقَ بِلِسَانِ غَيْرِهِ، فَكَذَلِكَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَأْكُلُ رِزْقَهُ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْكُلَ رِزْقَ غَيْرِهِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: بَلَغَنِي أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: قَاتَلَ اللهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمْ رَبُّهُمْ بِنَفْسِهِ ثُمَّ لَمْ يُصَدِّقُوهُ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات: ٢٣].

✍ **وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ**: أَقْبَلْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ مِنْ مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ إِذْ طَلَعَ أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ جَافٍ عَلَىٰ قَعُودٍ لَهُ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ وَبِيَدِهِ قَوْسُهُ، فَدَنَا وَسَلَّمَ وَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قُلْتُ مِنْ بَنِي أَصْمَعَ، قَالَ: أَنْتَ الْأَصْمَعِيُّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: وَمِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ مَوْضِعٍ يُتْلَىٰ فِيهِ كَلَامُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: وَلِلرَّحْمَنِ كَلَامٌ يَتْلُوهُ الْآدَمِيُّونَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاتْلُ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَرَأْتُ ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ [الذاريات: ١] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فَقَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ حَسْبُكَ!! ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ نَاقَتِهِ فَنَحَرَهَا وَقَطَّعَهَا بِجِلْدِهَا، وَقَالَ: أَعِنِّي عَلَىٰ تَوْزِيعِهَا، فَفَرَّقْنَاهَا عَلَىٰ مَنْ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ سَيْفِهِ وَقَوْسِهِ فَكَسَرَهُمَا وَوَضَعَهُمَا تَحْتَ الرَّحْلِ وَوَلَّىٰ نَحْوَ الْبَادِيَةِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فَمَقَتُّ نَفْسِي وَلُمْتُهَا، ثُمَّ حَجَجْتُ مَعَ الرَّشِيدِ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ إِذَا أَنَا بِصَوْتٍ رَقِيقٍ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا أَنَا بِالْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ نَاحِلٌ مُصْفَرٌّ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ وَأَخَذَ بِيَدَيَّ وَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ كَلَامَ الرَّحْمَنِ،

وَأَجْلَسَنِي مِنْ وراء المقام فقرأت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] حَتَّىٰ وَصَلْتُ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَقَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا الرَّحْمَنُ حَقًّا، وَقَالَ: وَهَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] قال فصاح الْأَعْرَابِيُّ وَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللهِ! مَنِ الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّىٰ حَلَفَ! أَلَمْ يُصَدِّقُوهُ فِي قَوْلِهِ حَتَّىٰ أَلْجَئُوهُ إِلَىٰ الْيَمِينِ؟ فَقَالَهَا ثَلَاثًا وَخَرَجَتْ بِهَا نَفْسُهُ. (١)

✍ **وفي تفسير هذه الآية يقول الدكتور الزحيلي:** ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] أي، وفي السماء تقدير الأرزاق وتعيينها، وفيها ما توعدون من خير أو شر، وجنة ونار، وثواب وعقاب، ففي السماء التي هي السحاب المطر، وفي السماء أسباب الرزق من الشمس والقمر والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول، التي يكون تغيرها مناسبا لأنواع النباتات المختلفة التي تسقىٰ بماء الأمطار، وتسوقها الرياح، وتغذيها الشمس بحرارتها، ويمنحها نور القمر قوة ونموا ونضجا.

ثم أقسم الله تعالىٰ بذاته المقدسة علىٰ أحقية البعث وضمان الرزق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣] أي فورب العزة والجلال، إن ما أخبرتكم به في هذه الآيات، وما وعدتكم به

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٤٢) وانظر قصة الأصمعي أيضًا في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: (٤/ ٤٠٠).

من أمر القيامة والبعث والجزاء، وتيسير الرزق وضمانه، حق لا مرية فيه، كائن لا محالة، فلا تشكّوا فيه، كما لا تشكّوا في نطقكم حين تنطقون، فهو كمثل نطقكم، فكما أنكم لا تشكون في نطقكم فكذلك هذا، كما تقول: إنه لحق، كما أنك تتكلم وترىٰ وتسمع. وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

* أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي عدي عن الحسن البصري أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم، ثم لم يصدقوا**». اهـ[١]

الرزق في ظلال السنة:

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**»[٢].

* عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ الْمَكِّيِّ، أَنَّ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَالُ لَهُ: حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَىٰ رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا**

---

(١) التفسير المنير: (٢٧/ ١٩-٢٠).

(٢) صحيح البخاري: (١/ ٧٠).

وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»(١).

* عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَرَفَعَ الْحَدِيثَ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»(٢).

* عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».(٣)

* عَنْ عِمْرَانَ، صَاحِبٍ لَهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلَّا قَدْ بَيَّنْتُهُ لَكُمْ، وَإِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ أَقْصَىٰ رِزْقِهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبْطَاءُ رِزْقِهِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»(٤).

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٠٣٧).

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢٠٣٨).

(٣) سنن ابن ماجه: (٢/ ١٣٣٤).

(٤) جامع معمر بن راشد: (١١/ ١٢٥)، صحيح الجامع: (٢٠٨٥).

* عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُولُ: إِنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(١).

المعاصي وحرمان الرزق:

إن كثيرًا من الناس أصابَهُمُ الفقرُ والكدرُ وضيقُ الصدر بسببِ بعدِهم عن اللهِ ﷻ، فتجدُ أحدهم كان غنيًّا، ورزقُه واسعٌ وهو في عافيةٍ منْ ربِّهِ وفي خيرٍ منْ مولاه، فأعرض عن طاعةِ اللهِ، وتهاون بالصلاةِ، واقترف كبائر الذنوبِ، فسلبَهَ ربُّه عافية بدنِهِ وسعة رزقِهِ، وابتلاهُ بالفقْرِ والهمِّ والغمِّ، فأصبح منْ نكدٍ إلىٰ نكدٍ، ومنْ بلاءٍ إلىٰ بلاءٍ: قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ: ٣٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦].

---

(١) مسند أحمد: (١/ ٣٣٢)، صحيح الجامع: (٥٢٥٤).

مواقف الثقة بالله في أمر الرزق:

- **أبو بكر الصديق:**

خرج بماله كله في الهجرة مع رسول اللهِ ﷺ ليكون تحت أمر رسول الله ﷺ.

وفي غزوة تبوك يخرج ماله كله:

* عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ وَقَدْ وَافَقَ ذَلِكَ مَالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، قَالَ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ. وَأَتَىٰ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَقُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَدًا. (١)

في «تاريخ بغداد» ورد عن محمد بن اسماعيل بْنِ أَبِي فُدَيْكٍ، قَالَ: رأيت بهلولًا في بعض المقابر وقد دلىٰ رجليه في قبر وهو يلعب بالتراب، فقلت له: ما تصنع هاهنا؟

فقال: أجالس أقوامًا لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابونني، فقلت: قد غلا السعر بمرة فهل تدعو الله فيكشف؟ فقال: والله ما أبالي، ولو حبة بدينار، إن لله علينا أن نعبده كما أمرنا، وإن عليه أن يرزقنا كما وعدنا! ثم صفق يده وأنشأ يقول:

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: (٤/ ٥٧-٥٨).

يـا مـن تمتـع بالـدنيا وزينتهـا ... ولا تنـام عـن اللـذات عينـاه
شـغلت نفسـك فيمـا لسـت تدركـه ... تقـول لله مـاذا حـين تلقـاه

✍ **وله:**

دع الحـرص علـىٰ الـدنيا ... وفي العـيش فـلا تطمـع
ولا تجمـع مـن المـال ... ولا تـدري لمـن تجمـع
فـإن الـرزق مقسـوم ... وسـوء الظـن لا ينفـع
فقيـر كـل ذي حـرص ... غنـي كـل مـن يقنـع (١)

• **قصة حاتم الأصم وابنته:**

وحكي أن حاتمًا الأصم كان رجلا كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل علىٰ أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلىٰ بيت ربه في هذا العام حاجًّا، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت علىٰ هذه الحالة لا تملك شيئا ونحن علىٰ ما ترىٰ من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟

وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكّرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة، يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته

---

(١) تاريخ بغداد: (٢١/ ٦٥).

وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافرا، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف علىٰ فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكتّ ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلىٰ السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم علىٰ هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدًا، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقىٰ منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلىٰ السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعًا، واليوم يقف الأمير علىٰ بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزًا جديدًا وملأته ماء، وقالت للمتناول منها:

اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به.

فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئا، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعًا، فقال الأمير: ونحن أيضًا قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا علىٰ مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمىٰ بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق،

فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالًا جزيلًا واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاءً شديدًا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسّع علينا، فقالت: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعًا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلىٰ أحد طرفة عين، اللهم انظر إلىٰ أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيبا، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل علىٰ حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء علىٰ الله تعالىٰ، فلما قضىٰ حجه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكىٰ، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلىٰ أكبركم ولكن ينظر إلىٰ أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل علىٰ الله فهو حسبه. (١)

ﮓ ◈ ﮔ

(١) المستطرف في كل فن مستطرف: (ص: ٧٦-٧٧).

بصيرة في الأجــل

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

يَقُولُ المُفَسِّرُونَ: إنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنْ وَبَاءٍ أَوْ مَرَضٍ حَلَّ بِهَا أَوْ خَوْفًا مِنْ عَدُوٍّ مُهَاجِمٍ وَهُمْ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ تَدْعُو كَثْرَتُهُمْ إلىٰ الشَّجَاعَةِ وَالاطْمِئْنَانِ إلىٰ القُدْرَةِ عَلَىٰ الدِّفاعِ عَنِ الأَهْلِ وَالوَطَنِ وَالعِرْضِ، لا إلىٰ الهَلَعِ وَالخَوْفِ، الذي يَحْمِلُ الخَائِفَ عَلَىٰ الهَرَبِ لا يَلْوِي عَلَىٰ شَيءٍ.

وَقِيلَ: إنَّ هَؤُلاءِ الهَارِبينَ مِنْ دِيَارِهِمْ حَذَرَ المَوْتِ نَزَلُوا وَادِيًا فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِالمَوْتِ فَمَاتُوا جَمِيعًا. ثُمَّ مَرَّ نَبِيٌّ فَدَعا اللهَ أَنْ يُحْيِيَهُمْ عَلَىٰ يَدَيهِ، فَأحيَاهُمْ لِيَكُونُوا عِظَةً وَعِبْرَةً لِمَنْ خَلْفَهُمْ، وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ لا يَنْفَعُ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ. وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ النَّاسِ فِيمَا يُرِيهِمْ مِنْ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَأَفْضَالِهِ.(١) وعلىٰ هذا المعنىٰ يؤكد القرآن الكريم قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ﴾ [الجمعة:٨] وقال تعالىٰ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾

---

(١) الاستعداد للموت (ص: ٩).

[النساء:٧٨]

إذا حضر الأجل فلا رجعة للدنيا:

قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠]

لا يَزَالُ الكَافِرُ يَجْتَرِحُ السَّيِّئَاتِ، ولا يُبَالي بِمَا يَأتِي وَما يَذَرُ مِنْ الآثامِ والأَوْزَارِ، حَتَّىٰ إذا جَاءَهُ المَوتُ، وعَايَنَ ما هو مُقْدِمُ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ نَدِمَ علىٰ مَا فَاتَ، وأَسِفَ علىٰ مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللهِ، وقَالَ: رَبِّ ارجِعُونِ لأَعْمَلَ صَالِحًا فِيمَا قَصَّرْتُ مِنْ عِبَادَتِكَ، وحُقُوقِ عِبَادِكَ. إِنَّ الكَافِرَ يَسْأَلُ رَبَّهُ الرَّجْعَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا لِيَعْمَل صَالِحًا، وَيَتَدَارَكَ مَا فَرطَ مِنْهُ، وَلِيُصْلِحَ فِيمَا تَرَكَ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ. وَيَرُدُّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ رَادِعًا وَزَاجِرًا: إِنَّهُ لا يُجِيبُهُ إِلَىٰ طَلَبِهِ هَذَا (كَلَّا).

فَهِيَ كَلِمَةٌ مَقُولَةٌ لَا مَعْنَىٰ لَهَا، يَقُولُهَا كُلُّ ظَالِمٍ وَقْتَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ، وَلَوْ رُدَّ لَعَادَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ فِي الحَيَاةِ، وجَاءَتْهُ الآيَاتُ فَلَمْ يَتَّعِظْ بِهَا، وَلَمْ يَعْمَلْ صَالِحًا، وَيَقُومُ وَرَاءَهم حَاجِزٌ (بَرْزَخٌ)، يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَيَبْقَوْنَ كَذَلِكَ إِلَىٰ يَوْم يُبْعَثُونَ وَيُنْشَرُونَ. (١)

ومعنىٰ الآية: إذا دنا أجل الإنسان الكافر أو العاصي المفرط في حقوق الله تعالىٰ، ورأىٰ ما ينتظره من العذاب، طلب الرجوع إلىٰ الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ويتدارك ما فاته من خير، وما قصّر فيه من الأعمال

---

(١) الاستعداد للموت: (ص: ٣٤).

الصالحة.

فيأتيه الردع والزجر من الله بكلمة «كلا» أي لا إجابة لطلبه، وتلك كلمة لا بد من أن يقولها كل مُحْتَضَر، تعبيرًا عن الندم، لأنه لا فائدة من الرجعة، فلو ردّ لعاد لما كان عليه، وكذب في هذه المقالة، كما جاء في آية أخرىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨] ويكون أمام هؤلاء الظلمة برزخ، أي حاجز مانع ما بين الدنيا والآخرة، يمنع من العودة إلىٰ عالم الدنيا. وهذا تهديد ووعيد بعذاب البرزخ، والمراد من البرزخ، هنا بإجماع المفسرين: المدة التي بين موت الإنسان وبين بعثه، وجملة إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها إشارة إلىٰ أن المُحْتَضَر لو ردّ لعاد، فتكون الآية آية ذمّ لهم.(١)

الموت لا يأتي إلا بعد استيفاء الأجل:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥] فلا يموت أحد إلا بقدر الله، وحتىٰ يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]. وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢]

الفرق بين المؤمن والكافر في مسألة الأجل:

المؤمن آمن علىٰ أجله لأنه موقن أن الله فرغ من الآجال والأعمار وكتب

(١) التفسير الوسيط للزحيلي: (٢/ ١٧٢٠).

ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض، فقدر الله أيامًا معدودة، وأنفاسًا محدودة، لا تملك قوة في الأرض أن تنقص منها، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون:١١] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح:٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ [فاطر:١١]. وبهذه الحقيقة ألقىٰ المؤمن عن كاهله هم التفكير في الموت والخوف علىٰ الحياة.

المؤمن لا يخاف الموت فهو يعلم أنه زائر لا بد من لقائه، وقادم لا ريب فيه، لا يرده الخوف منه ولا يثنيه الجزع، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة:٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء:٧٨]

* وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران:٥٤] أي: إلىٰ الموضع الذي قدر الله أن يقتلوا فيه.

إذا عرف أنه سبيل أفضل الناس من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فلا عليه إذن إذا اقتفىٰ أثرهم وسار في دربهم.

وبسبب هذه السمة يهون الموت علىٰ المؤمن، ولقد رأينا أبطالًا لا يخافون الموت، وسنذكر بعضهم لنرىٰ كيف أثر الإيمان واليقين بقدر الله في

نفوسهم، فما خافوا الموت، ولا هابوا من بشر، إنما كان تعلقهم برب البشر سبحانه وتعالىٰ:

١ -الخليل إبراهيم عليه السلام:

الخليل إبراهيم عليه السلام حكم عليه المجرمون بالحرق في النار كما قال ربنا: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨]وهو لم يتزعزع ولم يخف، وإنما كان واثقًا، لأنه يعلم أن الأجل بيد الله، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم» حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. (١) ولأن الأجل بيد الله القاهر القادر غير الله له سنة الخلق في النار لأن أجله لم يحِنْ بعد.

فماذا حدث؟ النار خلقها ربنا للإحراق والذي خلقها وأودع فيها قدرة قادر علىٰ أن يسلب منها ما أودع فيها، والأمر استلزم تدخلًا إلاهيًا فقال الملك سبحانه: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] هذا عن إبراهيم، وأما قومه فقال الله فيهم: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

هم أرادوا حرق دعوته في شخصه، ولكن يأبىٰ الله إلا أن يتم نوره كما

---

(١) صحيح البخاري: (٤٥٦٣).

قال ربنا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

وعاش الخليل وعاشت دعوته من بعده بل ونسبت الملة إليه كما قال ربنا: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]

* وقال أيضًا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]

* وقال أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]

* وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]

* وقال أيضًا: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] وهذا درس لكل خائف على أجله، وخاصة للدعاة الذين يحملون همّ الدين لأن الأجل بيد من يملكه سبحانه وتعالى.

٢ - بُنَانٍ الحَمَّالِ:

✍ **يَقُوْلُ أَبو عَلِيٍّ الرُّوْذَبَارِيُّ**: كَانَ سَبَبُ دُخُوْلِي مِصْرَ حِكَايَةَ بُنَانَ

الحَمَّالَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَمَرَ ابْنَ طُوْلُوْنَ بِالمَعْرُوْفِ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلقَىٰ بَيْنَ يَدَيْ سَبُعٍ، فَجَعَلَ السَّبُعُ يَشُمُّهُ وَلَا يَضُرُّه، فَلَمَّا أُخرِجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ السَّبُعِ، قِيْلَ لَهُ: مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِكَ حَيْثُ شَمَّكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَتَفَكَّرُ فِي سُؤرِ السِّبَاعِ وَلُعَابِهَا. قَالَ: ثُمَّ ضُرِبَ سَبْعَ دِرَرٍ، فَقَالَ لَهُ -يَعْنِي: لِلْمَلِكِ- حَبَسَكَ اللهُ بِكُلِّ دِرَّةٍ سَنَةً. فَحُبِسَ ابْنُ طُوْلُوْنَ سَبْعَ سِنِيْنَ.(١)

هذه قصة عجيبة كيف لرجل يوضع ليأكله أسد وهو لا يخاف؟ بل ولم يفكر إلا في مسألة فقهية. سبحان الله كان موقنًا بقول الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢] وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال؛ فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.

٣ -سعيد بن جبير:

لَمَّا دَخَلَ سعيد بن جبير عَلَي الْحَجَّاجُ قَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟

قَالَ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ: كَذَبْتَ أَنْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ.

قَالَ: أُمِّي سَمَّتْنِي.

قَالَ: شَقِيتَ وَشَقِيَتْ أُمُّكَ.

قَالَ: الْغَيْبُ يَعْلَمُهُ غَيْرُكَ.

قَالَ: أَمَا وَاللهِ لأُبْدِلَنَّكَ بِالدُّنْيَا نَارًا تَلَظَّىٰ.

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٩٩).

قَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَا اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ. (١)

فانظر إليه وإلىٰ ثقته، ومعرفته أن القدر والموت والحياة بيد الله ﷻ.

٤ - حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ:

حجر بن عدىٰ لعلمه أن الأجل بيد الله يقوم بعمل عجيب في الفتوحات أمام نهر دجلة: عَنْ حَبِيبِ بْنِ صُهْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَهُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَعْبُرُوا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ الْعَدُوِّ وَهَذِهِ النُّطْفَةِ، يَعْنِي: دِجْلَةَ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثُمَّ أَقْحَمَ فَرَسَهُ فِي دِجْلَةَ، فَلَمَّا أَقْحَمَ أَقْحَمَ، أَقْحَمَ النَّاسُ فَلَمَّا رَآهُمُ الْعَدُوَ، فَقَالُوا: دِيوَانٌ فَهَرَبُوا. (٢)

✍ **وفي تفصيل لما حدث يقول ابن كثير:** خَطَبَ سَعْدٌ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَةَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَقَالَ إِنَّ عَدُوَّكُمْ قَدِ اعْتَصَمَ مِنْكُمْ بِهَذَا البحر فلا تخلصون إليهم معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فينا وشونكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تَخَافُونَ أَنْ تُؤْتَوْا مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تُبَادِرُوا جِهَادَ الْعَدُوِّ بِنِيَّاتِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْصُرَكُمُ الدُّنْيَا، أَلَا إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ قَطْعِ هَذَا الْبَحْرِ إِلَيْهِمْ.

فَقَالُوا جَمِيعًا: عَزَمَ اللهُ لَنَا وَلَكَ عَلَىٰ الرُّشْدِ فَافْعَلْ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ نَدَبَ سَعْدٌ النَّاسَ إِلَىٰ الْعُبُورِ وَيَقُولُ: مَنْ يبدأ فيحمي لنا

---

(١) المحن: (ص: ٢٣٧- ٢٣٨).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٣/ ٧٧٩).

الفراض - يعني ثغرة الْمَخَاضَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَىٰ - لِيَجُوزَ النَّاسُ إِلَيْهِمْ آمنين، فانتدب عاصم بن عمرو وذو الْبَأْسِ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنْ سِتِّمِائَةٍ، فَأَمَّرَ سَعْدٌ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ عَمْرٍو فَوَقَفُوا عَلَىٰ حَافَّةِ دِجْلَةَ فَقَالَ عَاصِمٌ: مَنْ يُنْتَدَبُ مَعِي لِنَكُونَ قَبْلَ النَّاسِ دُخُولًا فِي هَذَا الْبَحْرِ فَنَحْمِيَ الْفِرَاضَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ سِتُّونَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْمَذْكُورِينَ - وَالْأَعَاجِمُ وُقُوفٌ صُفُوفًا مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ - فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَحْجَمَ النَّاسُ عَنِ الْخَوْضِ فِي دِجْلَةَ، فَقَالَ: أَتَخَافُونَ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ؟ ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ثُمَّ أَقْحَمَ فَرَسَهُ فِيهَا وَاقْتَحَمَ النَّاسُ، وَقَدِ افْتَرَقَ السِّتُّونَ فِرْقَتَيْنِ أَصْحَابُ الْخَيْلِ الذُّكُورِ، وَأَصْحَابُ الْخَيْلِ الْإِنَاثِ.

فَلَمَّا رَآهُمُ الْفُرْسُ يَطْفُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ قَالُوا: دِيوَانَا دِيوَانَا. يَقُولُونَ مَجَانِينُ مَجَانِينُ.

ثُمَّ قَالُوا: وَاللهِ مَا تُقَاتِلُونَ إِنْسًا بَلْ تُقَاتِلُونَ جِنًّا.

ثُمَّ أَرْسَلُوا فُرْسَانًا مِنْهُمْ فِي الْمَاءِ يَلْتَقُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ لِيَمْنَعُوهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَاءِ، فَأَمَرَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو أصحابه أن يشرعوا لهم الرياح وَيَتَوَخَّوُا الْأَعْيُنَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِالْفُرْسِ فَقَلَعُوا عُيُونَ خُيُولِهِمْ، فَرَجَعُوا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَمْلِكُونَ كَفَّ خُيُولِهِمْ حَتَّىٰ خَرَجُوا مِنَ الْمَاءِ، وَاتَّبَعَهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ فَسَاقُوا وَرَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَرَدُوهُمْ عَنِ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ حَافَّةِ الدِّجْلَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ وَنَزَلَ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ عَاصِمٍ مِنَ السِّتِّمِائَةِ فِي دِجْلَةَ فَخَاضُوهَا حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ فَقَاتَلُوا مَعَ

أَصْحَابِهِمْ حَتَّىٰ نَفَوُا الْفُرْسَ عَنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْكَتِيبَةَ الْأُولَىٰ كَتِيبَةَ الْأَهْوَالِ، وَأَمِيرُهَا عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو، وَالْكَتِيبَةَ الثَّانِيَةَ الْكَتِيبَةَ الْخَرْسَاءَ وَأَمِيرُهَا الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو.

وَهَذَا كُلُّهُ وَسَعْدٌ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ الْفُرْسَانُ بِالْفُرْسِ، وَسَعْدٌ وَاقِفٌ عَلَىٰ شَاطِئِ دِجْلَةَ. ثُمَّ نَزَلَ سَعْدٌ بِبَقِيَّةِ الْجَيْشِ، وَذَلِكَ حِينَ نَظَرُوا إِلَىٰ الْجَانِبِ الآخر قد تَحَصَّنَ بِمَنْ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ أَمَرَ سَعْدٌ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَاءِ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَعِينُ بِاللهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

ثُمَّ اقْتَحَمَ بِفَرَسِهِ دِجْلَةَ وَاقْتَحَمَ النَّاسُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ، فَسَارُوا فِيهَا كَأَنَّمَا يَسِيرُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ حتىٰ ملؤا مَا بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ، فَلَا يُرَىٰ وَجْهُ الْمَاءِ مِنَ الْفُرْسَانِ وَالرَّجَّالَةِ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْنِ، وَالْوُثُوقِ بِأَمْرِ اللهِ وَوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ.(١)

وعبر المسلمون دجلة علىٰ خيولهم بفضل الله ﷻ، ثم بفضل من أقدم بفرسه وقرأ الآية الكريمة ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا** ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وهذا يدلل علىٰ مدىٰ إيمانه وعدم خوفه من الموت لأنه يعلم أن الأجل بيد الله.

(١) البداية والنهاية: (٧/ ٧٤-٧٥).

• علي بن أبي الطيب وابن سبكتكين:

✍ **قال الذهبي في ترجمته للإمام علي بن أبي الطيب:** إِنَّهُ حُمِلَ إِلَىٰ السُّلْطَانِ مَحْمُوْدِ بنِ سبكتكين ليسمع وعظه، فلما دَخَلَ جلسَ بِلَا إِذن وَأَخذَ فِي رِوَايَة حَدِيْثٍ بِلَا أَمر فَتَنَمَّرَ لَهُ السُّلْطَانُ وَأَمر غُلَامًا فَلَكَمَهُ لَكْمَةً أَطْرَشَتْهُ فَعرَّفَهُ بَعْضُ الحَاضِرِيْنَ منزلَتَهُ فِي الدِّينِ وَالعِلْمِ فَاعْتذر إِلَيْهِ وَأَمَرَ لَهُ بِمَال فَامْتَنَعَ فَقَالَ: يَا شَيْخُ: إِنَّ لِلمُلْكِ صولَةً وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَىٰ السِّيَاسَة وَرَأَيْتُ أَنَّكَ تَعَدَّيْتَ الوَاجِبَ فَاجعلْنِي فِي حِلٍّ.

قَالَ: اللهُ بَيْنَنَا بِالمِرصَاد وَإِنَّمَا أَحضَرتَنِي لِلوعظ وَسَمَاعِ أَحَادِيْث الرَّسُول - ﷺ - وَللخشوع لَا لِإِقَامَة قوَانِيْنَ الرِّئَاسَة. فَخَجِلَ المَلِكُ وَاعْتَنَقَهُ. (١)

• موقف أبي عقيل الأنصاري يوم اليمامة:

✍ **عن جَعْفَرِ بنِ عَبْدِ الله بنِ أَسْلَم، قَالَ:** لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَمَامَةِ وَاصْطَفَّ النَّاسُ لِلْقِتَالِ. كَانَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ أَبُو عُقَيْلٍ، رُمِيَ بِسَهْمٍ فَوَقَعَ بَيْنَ مِنْكَبَيْهِ وَفُؤَادِهِ فِي غَيْرِ مَقْتَلٍ، فَأَخْرَجَ السَّهْمَ، وَوَهِنَ لَهُ شِقُّهُ الأَيْسَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَجُرَّ إِلَىٰ الرَّحْلِ، فَلَمَّا حَمِيَ الْقِتَالُ وَانْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ وَجَاوَزُوا رِحَالَهُمْ وَأَبُو عُقَيْلٍ وَاهِنٌ مِنْ جُرْحِهِ سَمِعَ مَعْنَ بْنَ عَدِيٍّ يَصِيحُ: يَا للأنصار، اللهَ اللهَ وَالْكَرَّةُ عَلَىٰ عَدُوِّكُمْ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: فَنَهَضَ أَبُو عُقَيْلٍ يُرِيدُ قَوْمَهُ، فَقُلْتُ: مَا فِيكَ قِتَالٌ، قَالَ: قَدْ نَوَّهَ الْمُنَادِي بِاسْمِي. قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَقُلْتُ: إِنَّمَا يقول يا للأنصار، ولا

---

(١) سير أعلام النبلاء: (١٣/ ٣٦٨).

يعني الجرحىٰ، قال أَبُو عُقَيْل: أنا رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَأَنَا أُجِيبُهُ وَلَوْ حَبْوًا قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَتَحَزَّمَ أبو عقيل وأخذ السَّيْفَ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ مُجَرَّدًا، ثُمَّ جَعَلَ يُنَادِي: يَا لَلأَنْصَارِ كَرَّةً كَيَوْمِ حُنَيْنٍ.

فَاجْتَمَعُوا رَحِمَهُمُ اللهُ جَمِيعًا، يَقْدُمُونَ الْمُسْلِمِينَ دُرْبَةً دُونَ عَدُوِّهِمْ حتىٰ أقحموا عدوهم الحديقة فَاخْتَلَطُوا وَاخْتَلَفَتِ السُّيُوفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.

قَالَ ابْنُ عمر: فنظرت إلىٰ أبي عقيل وقد قطعت يَدُهُ الْمَجْرُوحَةُ مِنَ الْمِنْكَبِ فَوَقَعَتْ بِالأَرْضِ، وَقُتِلَ عَدُوُّ اللهِ مُسَيْلَمَةُ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعْتُ عَلَىٰ أَبِي عُقَيْلٍ وَهُوَ صَرِيعٌ بِآخِرِ رَمَقٍ، فقلت: أَبَا عُقَيْلٍ، فَقَالَ: لَبَّيْكَ بِلِسَانٍ مُلْتَاثٍ، لِمَنْ الدَّبَرَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَبْشِرْ قَدْ قُتِلَ عَدُوُّ اللهِ، فَرَفَعَ إِصْبُعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَحَمِدَ اللهَ، وَمَاتَ رَحِمَهُ اللهُ. (١) ولنتأمل موقفه وهو يحرص علىٰ العودة للقتال بالرغم من جرحه ولم يخف، لعلمه أن الأجل لا يملكه إلا الله.

* ولقد قال رسولنا الكريم: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ، فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**»(٢).

* وقال: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ،**

---

(١) المنتظم لابن الجوزي: (٤/ ٩٤-٩٥).

(٢) صحيح البخاري: (٣١٨).

وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»(١).

* ويَقُولُ: «**إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ**» قَالَ زُهَيْرٌ: حَسِبْتُهُ قَالَ الَّذِي يَخْلُقُهَا «**فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ، فَيَجْعَلُهُ اللهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَسَوِيٌّ أَوْ غَيْرُ سَوِيٍّ، فَيَجْعَلُهُ اللهُ سَوِيًّا أَوْ غَيْرَ سَوِيٍّ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ مَا رِزْقُهُ مَا أَجَلُهُ مَا خُلُقُهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا**»(٢).

وهذه الأحاديث كلها يؤكد فيها الرسول ﷺ علىٰ أن الأجل محدد سلفًا. وهنا السؤال فلماذا الخوف إذن؟ نسأل الله أن نكون من أهل الحق والإيمان بالقدر والتسليم لأمر الله سبحانه وتعالىٰ.

✍ **أخي الكريم: وفي النهاية لنا وقفتان نذكر فيهما بأمرين:**

- **الأولى: مرور الأيام معناه دنو الأجل:**

إن مرور الأيام وانقضاء الليالي له معنىً واحد وهو: أني أنا وأنت نقترب من النهاية، ومعناه: أن الأجل يقترب والفرصة تقل يومًا بعد يوم، ولا معنىٰ له غير هذا المعنىٰ، فكل ليلة وكل يومٍ ينقضي هو من عمري ومن عمرك أنت، والآجال تنقص ولا تزيد، والأعمار تنقص يومًا بعد يوم لا تزيد، فأعمارنا في نقصان يومًا بعد يوم.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٤٥).

(٢) صحيح مسلم: (٢٦٤٥).

- **الثانية: المبادرة قبل حلول الأجل:**

الإنسان لا يدري ما الذي يحول بينه وبين العمل، وإنما ضيع كثيرٌ من الناس أنه أكثر من التسويف وأكثر من التعليل، تقول له: تب إلىٰ الله، استقم علىٰ طاعة الله، أقلع عن الذنوب والمعاصي وهو قويٌ غني صحيحٌ شحيح يرجو الغنىٰ ويخشىٰ الفقر، ما هو جوابه إذا دعي إلىٰ الله ورسوله؟ يقول: إن شاء الله غدًا! بعد أسبوع! بعد الحج! رمضان قريب! بعد نهاية رمضان! إذا فرغت الصوامع! إذا قضيت الدين! إذا فعلت كذا، إذا فعلت كذا!! ويعلق توبته علىٰ أمورٍ هو لا يعلم هل يبلغها أم لا.

- **مثال يوضح المقال:**

لو أنك تقدمت في معاملةٍ تريد حقًا من حقوقك أو مصلحة من مصالحك، فقال لك المسئول: ننجزك ما تحتاج أو نخدمك بما تريد إذا حصل كذا، وعلقك علىٰ أمرٍ لا تدري متىٰ يحل، فأنت لا تقبل بهذا الأجل.

وستقول: حدد لي أجلًا معينًا، فإنني لا أريد أن أضيع وأن أسوف، ما أدري هل هذا الأمر يقع أو لا يقع؟ وما أدري هل أنا أبلغ هذا الأجل أم لا أبلغه؟

فكذلك قل لنفسك إذا دعيت إلىٰ التوبة والمبادرة والإنابة إلىٰ الله ﷻ، قل لها: هل تستطيعين أن تبلغي ذلك الأجل؟ هل تستطيعين أن تبلغي تلك الغاية التي جعلتيها أو علقت بها هذه التوبة وهذه الإنابة؟

✍ **ابن آدم:**

مَضَىٰ أَمْسُكَ الْمَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلًا ... وَأَعْقَبَهُ يَوْمٌ عَلَيْكَ جَدِيدُ
فَإِنْ كُنْتَ اقْتَرَفْتَ بِالْأَمْسِ إِسَاءَةً ... فَثَنِّ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
فَيَوْمُكَ إِنْ أَعْتَبْتَهُ عَادَ نَفْعُهُ ... عَلَيْكَ وَمَاضِي الْأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ
وَلَا تُرْجِ فِعْلَ الْخَيْرِ يَوْمًا إِلَىٰ غَدٍ ... لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ(١)

✍ **ابن آدم:**

تزود من التقوىٰ فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلىٰ الفجرِ
فكم من فتىٰ أمسىٰ وأصبح ضاحكًا ... وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحُهم ليلة القدرِ
وكم من صغارٍ يُرتجىٰ طول عمرهم ... وقد أُدخلت أجسادُهم ظلمة القبرِ
وكم من صحيح مات من غير علةٍ ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر(٢)

✍ **أخي الكريم**: تأمل هذه الآيات جيدًا قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي: (ص: ٢٣٥).
(٢) ففروا إلىٰ الله: (ص: ٨٤).

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠- ١١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩].

نسأل الله حسن الخاتمة، ونسأله سبحانه أن يمن علينا بإنفاق أعمارنا في طاعته عَزَّوَجَلَّ.

بصيرة في تـأمين مستقبل الأولاد

قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩].

هذا هو عقد التأمين الذي وضعه المولىٰ سبحانه وتعالىٰ في كتابه الكريم، ومن أراد أن يحافظ علىٰ أولاده ويؤمِّن مستقبلهم فلينفذ هذين الشرطين:

١ - التقوى:

* قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٥].

* وتقوى الوالد وطاعته لا تضيع أبدًا لا في حياته ولا بعد مماته قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [الكهف:٨٠] وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف:٨٢].

* ومن التقوى أن يؤديَ الإنسان حق الأمانة، ولا يفرط فيها من أجل أولاده قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

✍ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية:** فَإِنَّ الرَّجُلَ لِحُبِّهِ لِوَلَدِهِ أَوْ لِعَتِيقِهِ قَدْ يُؤْثِرُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ أَوْ يُعْطِيهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ فَيَكُونُ قَدْ خَانَ أَمَانَتَهُ؛ وَكَذَلِكَ قَدْ يُؤْثِرُهُ زِيَادَةً فِي مَالِهِ أَوْ حِفْظِهِ؛ بِأَخْذِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ أَوْ مُحَابَاةِ مَنْ يُدَاهِنُهُ فِي بَعْضِ الْوِلَايَاتِ. فَيَكُونُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَخَانَ أَمَانَتَهُ. ثُمَّ إنَّ الْمُؤَدِّيَ لِلْأَمَانَةِ مَعَ مُخَالَفَةِ هَوَاهُ يُثَبِّتُهُ اللهُ فَيَحْفَظُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بَعْدَهُ وَالْمُطِيعُ لِهَوَاهُ يُعَاقِبُهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ فَيُذِلُّ أَهْلَهُ وَيُذْهِبُ مَالَهُ. (١)

- **موقف عمر بن عبدالعزيز عند موته:**

✍ **قال مُحَمَّدُ بن رمح حدثني الليث بن سعد أنه بَلَغَهُ:** أَنَّ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا رَأَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ اشْتَدَّ وَجَعُهُ وَظَنَّ أَنَّهُ مَيِّتٌ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ قَدْ تَرَكْتَ بَنِيكَ عَالَةً لَا شَيْءَ لَهُمْ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِمَّا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ وَإِلَى ضُرَبَائِي مِنْ قَوْمِي فَكَفَوْكَ مَئُونَتَهُمْ؟ فَقَالَ:

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٩).

أَجْلِسُونِي، فَأَجْلَسُوهُ فَقَالَ: مَا ذَكَرْتَ مِنْ فَاقَةِ وَلَدِي وحاجتهم فو الله مَا مَنَعْتُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ، وَمَا كُنْتُ لِأُعْطِيَهُمْ حَقَّ غَيْرِهِمْ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ اسْتِخْلَافِكَ وَنُظَرَائِكَ عَلَيْهِمْ لِيَكْفُونِي مَئُونَتَهُمْ فَإِنَّ خَلِيفَتِي عَلَيْهِمْ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] إِنَّمَا ولد عمر بَين أحد رجلَيْنِ إِمَّا رجل صَالح فسيغنيه الله وَإِمَّا غير ذَلِك فَلَنْ أكون أول من أَعَانَهُ بِالْمَالِ علىٰ مَعْصِيَة الله ادْع لي بني. فَأتوهُ فَلَمَّا رَآهُمْ ترقرقت عَيناهُ وَقَالَ بنفسي فتية تَركتهم عَالَة لَا شَيْء لَهُم وَبكىٰ. يَا بني إِنِّي قد تركت لكم خيرا كثيرا لَا تمرون بِأحد من الْمُسلمين وَأهل ذمتهم إِلَّا رَأَوْا لكم حَقًّا يَا بني إِنِّي قد مثلت بَين الْأَمريْنِ إِمَّا أَن تستغنوا وَأدْخل النَّار أَو تفتقروا إِلَىٰ آخر يَوْم الْأَبَد وَأدْخل الْجنَّة فَأرىٰ أَن تفتقروا إِلَىٰ ذَلِك أحب إِلَيّ قومُوا عصمكم الله قومُوا رزقكم الله. (١)

فَيُقَال إِنه مَا رُؤِيَ أحد من أَوْلَاد عمر بن عبد الْعَزِيز إِلَّا وَهُوَ غَنِي وَلَقَد شوهد أحدهم وَقد جهز من خَالص مَاله مائَة فَارس علىٰ مائَة فرس فِي سَبِيل الله تَعَالَىٰ وَلما حضرت هِشَام بن عبد الْملك الْوَفَاة خلف أحد عشر ابْنا كَمَا خلف عمر بن عبد الْعَزِيز وَأوصىٰ فَأصَاب كل ابْن ألف ألف دِينَار فَقَالَ أَنه مَا رُؤِيَ أحد مِنْهُم إِلَّا وَهُوَ فَقير وَلَقَد شوهد أحدهم وَهُوَ يُوقد فِي الأتون. (٢)

✍ **قال ابن كثير**: وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَادِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ – مَعَ كَثْرَةِ مَا تَرَكَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ – يَتَعَاطَىٰ وَيَسْأَلُ مِنْ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، لِأَنَّ

---

(١) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص: ٢٩٩-٣٠١).

(٢) المعرفة والتاريخ (١/ ٥٨٥).بتصرف. وانظر: سيرة عمر بن عبد العزيز: (ص: ١٠١).

عُمَرَ وكَّل ولده إلىٰ الله ﷻ، وَسُلَيْمَانُ وَغَيْرُهُ إِنَّمَا يَكِلُونَ أَوْلَادَهُمْ إِلَىٰ مَا يدعون لهم، فَيَضِيعُونَ وَتَذْهَبُ أَمْوَالُهُمْ فِي شَهَوَاتِ أَوْلَادِهِمْ. (١) قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩]

وأحب ألا يفهم كلامي فهمًا خاطئًا، فأنا لا أقول أن ينقطع الآباء إلىٰ العبادة وينشغلوا عن الدخول في الأسباب لتوفير المال الحلال الطيب لورثتهم، كلا. يجب علي وعليك أن ندخل في الأسباب، فلا مانع أن تدبر المال الحلال الطيب لولدك، ولا مانع من أن تسعىٰ ومن أن تكدح، شريطة أن لا تضيع حق الله أو حق ولد من أولادك، فإن كثيرًا من الناس قد يظن أن الكدح والسعي علىٰ الأولاد لا حرج فيه أن يضيع الصلوات، وإذا ما قلت له يرد عليك ويقول: أليس العمل عبادة؟ أنا في عبادة، فلماذا أترك هذه العبادة لآتي للصلاة؟

فنقول لمن هذا حاله: لا حرج أن تسعىٰ علىٰ رزقك من الحلال لتيسر لأولادك السعة والرخاء في الدنيا وبعد موتك، شريطة ألا يشغلك هذا الكدح عن حق الله جل وعلا أو عن حقوق أولادك، فإننا نرىٰ كثيرًا ونقرأ كثيرًا عن آباء قد تركوا أولادهم وانصرفوا عنهم، وهذا خطأ كبير، فإن الولد في حاجة إلىٰ أبيه، لا إلىٰ مال أبيه فقط، فإن وفرت له المال ويسرت له السعة والرخاء مع كل ما تملك من فكر ورحمة، وعطاء وحنان وبذل ونصح وإرشاد، وتربية علىٰ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فهو الخير بل هو قمة الخير، بل

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٢٣٥).

وجزاك الله عن ذلك كل الخير، والدليل علىٰ ذلك ما أورده البخاري عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «**لَا**» فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: «**لَا**» ثُمَّ قَالَ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَوْ كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**(١)......الحديث»(٢)

٢ - القول السديد:

الشرط الثاني: القول السديد قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: ٩].

في هذه الآية المباركة ذكّر الله تعالىٰ الأولياء أو الأوصياء في معاملة اليتامىٰ بأمر جميل يهز المشاعر والنفوس للبعد عن القسوة علىٰ اليتيم، وهو أن هؤلاء الكبار الأوصياء مفارقون أولادهم، وربما تركوا ذرية ضعفاء صغارا يخافون علىٰ مصالحهم، فليتقوا الله في أيتام الآخرين، كما يحبون أن يتقي الله في أيتامهم أوصياء غيرهم، وليقولوا لهم قولا حسنا سديدا طيبا يجبر خواطرهم، ويمنع الضر عنهم، ويتفق مع آداب الدين وأخلاق الصالحين، بكل ما يحسن إليهم ويسر قلوبهم، ويعوضهم حنان الأب المتوفىٰ، فكل أولياء الأيتام مطالبون بالإحسان إلىٰ الأيتام، وسداد القول لهم، وإحسان معاملتهم ومعاشرتهم، وتقوىٰ الله في أكل أموالهم كما يخافون تماما علىٰ

(١) أي: يسألون الناس.
(٢) البخاري: (١٢٩٥).

ذريتهم أن يفعل بهم خلاف ذلك. (١)

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠].

والمعنىٰ: يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، اتقوا الله في كل الأمور باجتناب معاصيه، والتزام أوامره، وقولوا القول السديد، أي الصواب والحق في كل أموركم. (٢) ويدخل في القول السديد قول: لا إله إلا الله، والإصلاح بين الناس. (٣)

إذن من أراد تأمين مستقبل أولاده فعليه بتقوىٰ الله في السر والعلن.

وعليه بالقول السديد في حق اليتامىٰ، لأنه يمكن أن يموت ويصير أولاده يتامىٰ فيسخر الله لهم من يقوم بهم ويقول لهم القول السديد إذ الجزاء من جنس العمل.

وعليه بالقول السديد في كل حياته عمومًا فلا يقول زورًا ولا يمشي فجورًا، وعليه أن يصلح بين الناس إن استطاع فإن لم يفعل فليمنع لسانه عن الناس.

وبهذا يكون قد أمّن علىٰ أولاده لأن صلاح الإنسان وقوله السديد ينفع أولاده من بعده بإذن الله سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) التفسير الوسيط: (١/ ٢٨٩).
(٢) التفسير الوسيط: (٣/ ٢٠٩١).
(٣)التفسير المنير: (٢٢/ ١٢٢).

بصيرة في افتقارنا إلى الله تعالى

إن حاجة الخلق إلىٰ الله تعالىٰ لا يحيط بها الوصف؛ إذ هم مفتقرون إليه في كل أحوالهم، محتاجون إلىٰ عونه في كل شؤونهم.

هو سبحانه موجدهم من العدم، ومربيهم بالنعم، وهاديهم إلىٰ ما ينفعهم، وصارفهم عما يضرهم؛ فما قيمة الخلق بلا خالقهم.

تجلية القرآن لحقيقة افتقارنا إلى الله في وجودنا:

والقرآن العظيم قد عرضت آياته لهذه المسائل، وجلت تلك الحقائق، وكثير من الناس يغفلون عنها وهم يقرؤون القرآن.

إن ربنا جل جلاله هو الذي خلقنا وهو غني عن خلقنا، فلم يخلقنا سبحانه ليستكثر بنا من قلة، ولا ليستقوي بنا من ضعف، ولا ليحتاج لنا في أي شيء؛ فكان خلقه لنا محض فضل منه سبحانه وتعالىٰ تفضل به علينا ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

تخيل يا عبد الله أنك لم تخلق فماذا كان؟!

هل سيختل الكون بدونك؟!

وهل ستفتقر الموجودات إلىٰ وجودك؟!

ألم تمض أزمان قبل وجودك، والكون هو الكون، ولم يفتقر أحد إليك حتىٰ توجد من أجله، وبعد موتك سيعيش من يعيش، والكون هو الكون، والناس هم الناس؛ فلا افتقرت الموجودات إلىٰ خلقك، ولا اختل نظامها بموتك؟

وهذه الحقيقة نص عليها القرآن في غير ما موضع ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧]، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] نعم مضت أزمان قبل خلق آدم عليه السلام لم يكن للبشر فيها ذكر؛ لأنهم غير مخلوقين، ثم مضت أزمان أخرىٰ بعد وجود البشر لم يكن الواحد منا فيها مذكورًا معروفًا؛ لأنه لم يولد بعد، فكان فضل الله تعالىٰ علينا أن خلق أصل البشر، ثم تفضل سبحانه علينا فجعلنا من نسل هذا البشر، ولما بشر زكريا عليه السلام بالولد وتعجب أن يرزق الولد علىٰ الكبر وامرأته عاقر كان الجواب ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩].

وعن جبير بن مطعم قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]» قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. (١)

(١) صحيح البخاري: (٤٨٥٤).

افتقارنا إلى الله في بقائنا:

ثم بعد افتقارنا إلىٰ الله تعالىٰ في وجودنا بشرا سويا نفتقر إلىٰ الله تعالىٰ في بقائنا وبقاء جنسنا البشري، والله ﷻ وهو الغني عنا كان ولا يزال قادرًا علىٰ أن يهلكنا ويذهبنا، وأن يبدلنا ببشر مثلنا، بل هو القادر علىٰ أن يلغي جنسنا، ويخلق خلقا آخر غيرنا، يعبدون الله تعالىٰ ولا يعصونه طرفة عين.

تجلية القرآن لحقيقة افتقارنا إلى الله في بقائنا:

* والقرآن مليء بالآيات التي تثبت افتقارنا إلىٰ الله ﷻ في استمرار بقائنا وبقاء جنسنا البشري ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وفي سورة النساء ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]

* وفي سورة إبراهيم ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩- ٢٠]، وفي سورة المعارج ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٤١﴾ [المعارج: ٤٠- ٤١].

* وفي سورة الإنسان ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

* بل جاء النص الصريح في القرآن علىٰ حقيقة افتقارنا إلىٰ ربنا جل

جلاله في بقائنا وبقاء جنسنا البشري ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

افتقارنا إلى الله في إسلامنا وهدايتنا:

ونحن مفتقرون إلىٰ الله تعالىٰ في هدايتنا وإسلامنا وإيماننا، وإلىٰ عبادته سبحانه وتعالىٰ؛ فلولا الله تعالىٰ لما كنا مسلمين، ولا آمنا، ولا صلينا، ولا صمنا، ولا عملنا صالحًا، ولا جانبنا المحرمات، ولسنا أعلىٰ البشر شأنًا، ولا أوفرهم عقلًا، ولا أشدهم بأسا، ولكن الله تعالىٰ منَّ علينا بالهداية، وضلَّ عنها غيرنا ممن لم يهتدوا ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال سبحانه في الحديث القدسي: «...**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**...»(١).

استحقاق الله للحمد على نعمة الهداية:

واستحق جل جلاله أن نحمده ونكبره علىٰ هذه الهداية؛ كما جاء الأمر بذلك في سياق آيات مناسك الحج ﴿ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٨] وفي سياق آيات الصيام ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).

كثرة أهل الضلال وقلة أهل الهدى:

وكم من شخص ضلَّ الطريق إلىٰ الإيمان فلا هادي له، بل الكثرة الكاثرة من البشر هم أهل الضلال، ومأواهم إلىٰ النار، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

- وربنا سبحانه جعلنا من المؤمنين وهم الأقلون، ومن قرأ آيات الهداية والضلال في كتاب الله تعالىٰ سيعرف قدر نعمة الله عليه بالهداية، وسيدرك مدىٰ افتقاره إليه سبحانه في الثبات علىٰ الإيمان، فقد أنكر ﷻ علىٰ من أراد أن يهدي من أضله الله، وصرح بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلىٰ هداه فقال سبحانه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨] وفي الآية الأخرىٰ ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [المائدة: ٤١] وفي آية ثالثة ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

ولا زلنا مفتقرين إلىٰ الله تعالىٰ في الديمومة علىٰ إيماننا، والثبات علىٰ إسلامنا؛ فلا ثبات لنا إلا بالله تعالىٰ وعونه وتوفيقه؛ ولذا ذكر سبحانه عن الراسخين في العلم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]

والمصلي يتلوا في كل ركعة هذا الدعاء المبارك ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ [الفاتحة: ٦].

افتقارنا إلى الله في رزقنا:

ونحن مفتقرون إلىٰ الله تعالىٰ في رزقنا فمن ذا الذي يرزقنا غير ربنا وخالقنا والمنعم علينا، والخلق مهما كانت عظمتهم، أو بلغت قوتهم، أو علت مكانتهم لا يرزقون أنفسهم فضلًا عن أن يرزقوا غيرهم، فكلهم عيال علىٰ الله تعالىٰ، يسوق إليهم أرزاقهم حيث كانوا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقد جمع الله تعالىٰ ذكر افتقارنا إليه سبحانه في الخلق والرزق في آيات كثيرة؛ وذلك أنه لا قوام لنا، ولا بقاء لجنسنا بعد أن خلقنا ربنا جل جلاله إلا برزقه الذي رزقنا قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، وأمرنا سبحانه بدوام تذكر هذه النعمة العظيمة وعدم نسيانها فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

ولو حبس عنا رزقه فمن يرزقنا ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ ﴾ [الملك: ٢١] فالرزق إنما يطلب ممن يملكه ويقدر عليه، وربنا جل جلاله

بيده خزائن السموات والأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

إننا مفتقرون إلىٰ الله تعالىٰ في طعامنا وشرابنا وكسائنا وصحتنا وعلاجنا وفي كل شئوننا، وقد قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي «**يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًا إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ جائِعًا إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ، وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنًا إِلَّا مَنْ سَقَيْتُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ**». (١)

وفقرنا إلىٰ الله تعالىٰ دائم معنا، ملازم لنا، فكل حركاتنا وسكناتنا بتقدير الله تعالىٰ وتدبيره، أقر بذلك من أقر به؛ فخضع لعبادة مولاه جل جلاله، فكان من الناجين الفائزين، وأنكره من أنكره، فاستكبر عن عبادته سبحانه، فكان من الهالكين المعذبين.

- ولهذا وجب أن نعرف لله تعالىٰ حقه، وأن نقر بفضله، وأن نتبرأ من كل حول وقوة إلا بالله تعالىٰ؛ فإن ذلك التبرؤ إلا من حول الله تعالىٰ وقوته كنز من كنوز الجنة؛ لأن فيه اعترافًا بالفقر الدائم إلىٰ الله تعالىٰ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا**» ثُمَّ أَتَىٰ عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَقَالَ: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ**

(١) مسند أحمد: (٢١٤٢٠).

كُنُوزِ الجَنَّةِ» أَوْ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ». (١)

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل:٥٢-٥٥].

دأب الرسل في الافتقار إلى الله:

لقد كان دأب الرسل، وسبيل الصالحين: الافتقار إلىٰ الله تعالىٰ، والانطراح بين يديه، والاعتراف له بالعجز والفاقة، والضعف والحاجة، والتبرؤ من الحول والقوة.

هذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يتبرأ من أصنام قومه، ويعلن فقره لله تعالىٰ في كل شئونه الدنيوية والأخروية ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٢].

اعتراف منه عليه السلام بفضل الله تعالىٰ عليه، وإعلان الفقر والحاجة إليه، وتعداد نعمه عليه.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٣٨٤).

ونبينا محمد ﷺ كان أشد الناس فقرًا إلىٰ الله تعالىٰ، واعترافا بفضله، وتعدادا لنعمه، وتعلقا بجنابه، وإلحاحا في دعائه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ قُبَاءٍ النَّبِيَّ ﷺ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَهُ، أَوْ يَدَيْهِ عَلَيْنَا قَالَ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَغْنًىٰ عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَىٰ مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَىٰ، وَفَضَّلَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**». (١)

وكان عليه الصلاة والسلام يربي ذريته وأمته علىٰ دوام الافتقار إلىٰ الله تعالىٰ، والإقرار بالحاجة إليه سبحانه في كل شيء، روىٰ أنس رضي الله عنه أن النَّبِيّ ﷺ لِفَاطِمَةَ: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**». (٢)

فلنحرص علىٰ أن نسير سيرة الأنبياء والصالحين في افتقارهم إلىٰ الله تعالىٰ، وإعلان الحاجة إليه؛ فكم نحتاج إلىٰ إحياء هذا الافتقار في القلوب، بعد أن قست بالذنوب لنعلن فقرنا إلىٰ الله تعالىٰ، ولنلح عليه بالدعاء؛ فما أفقرنا إلىٰ ربنا جل في علاه، وما أحوجنا إليه.

---

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي: (١٠٠٦٠).

(٢) السنن الكبرىٰ للنسائي: (١٠٣٣٠)، صحيح الجامع: (٥٨٢٠).

بصيرة في الأخذ بالأسباب

إنّ الأخذ بالأسباب مع تفويض أمر النّجاح لله تعالىٰ والثّقة بأنّه ﷻ لا يضيع أجر من أحسن عملا، هو من التّوكّل المأمور به، أمّا القعود عن الأسباب وعدم السّعي فليس من التّوكّل في شيء وإنّما هو اتّكال أو تواكل حذّرنا منه رسول الله ﷺ، ونهىٰ عن الأسباب المؤدّية إليه، مصداق ذلك ما جاء في حديث معاذ- رضي الله عنه- قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، قَالَ: فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ ﷻ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ، قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**».(١)

وهنا يضع الرّسول ﷺ قاعدة جليلة، هي أنّ كلّ ما يؤدّي إلىٰ ترك العمل أو ما يكون مظنّة للاتّكال أو التّواكل ليس من التّوكّل في شيء.

وقد جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- ما يؤكّد هذه الحقيقة، ففي الحوار الّذي رواه أبو هريرة عن المصطفىٰ ﷺ وعمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- هذا الحوار- كما جاء في رواية مسلم: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَنَا

(١) مسلم: (٣٠).

أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا؟ فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ - فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَبُو هُرَيْرَةَ؟**» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**» قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ أَثَرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟**» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثْتَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي، قَالَ: ارْجِعْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَ؟**» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ، وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَخَلِّهِمْ**».(١)

---

(١) مسلم: (٣١).

ويفهم من الحديث والّذي قبله أنّ الاتّكال يعني ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وأنّ ذلك ليس من التّوكّل في شيء.

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:

قال ابن قيّم الجوزيّة: التّوكّل من أعظم الأسباب الّتي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التّوكّل.

ولكن من تمام التّوكّل: عدم الرّكون إلىٰ الأسباب.

وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محلّ حكمة الله وأمره ونهيه.

والتّوكّل متعلّق بربوبيّته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبوديّة الأسباب إلّا علىٰ ساق التّوكّل ولا يقوم ساق التّوكّل إلّا علىٰ قدم العبوديّة. (١)

العمل بالأسباب من دين الإسلام:

إن بعض المسلمين يتعبد بترك العمل، ويزعمون أن العمل من الشرك، وفيهم من يزعم أن من ذهب إلىٰ الطبيب فهو كافر وهذه كلمة خطيرة جدًا أن يكفر أحد المسلمين ما لم يقم دليل قاطع وبرهانٌ ساطع علىٰ كُفره وهل الأخذ بالأسباب كفر؟

إن هؤلاء الجهلة يكفرون النبي ﷺ من حيث لا يشعرون؛ لأن النبي

(١) مدارج السالكين: (٢/ ١٢٥).

عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب، وقال: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، لَمْ يَضَعْ دَاءً، إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً، إِلَّا الْهَرَمَ**».(١)

وجوب التوكل على الله مع وجوب الأخذ بالأسباب:

علىٰ المرء إذا أراد أن يكرّم نفسه أن يصونها عن ذلّ سؤال الخلق، ولا يتأتّىٰ له ذلك إلّا إذا سعىٰ في طلب الرّزق موقنا أنّ الله ﷻ هو الرّزّاق ذو القوّة المتين وأنّه المتكفّل بذلك مصداقا لقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وإذا فعل ذلك فإنّ عليه أن يرضىٰ بما قسم الله له من الرّزق الحلال، فإذا سعىٰ وكدح ورزق ما قدّر الله له أن يرزقه ورضي بذلك انكسرت حواجز الشّك والقلق، وتخلّص من وساوس الشّيطان وحبّ التّكاثر من أجل استهلاك زائف في دنيا فانية، وأنّه لابدّ ملاق ربّه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]، بذلك فقط تصبح نفسه عزيزة بإيمانها، قويّة بعزّتها، لا تغرّها الدّنيا ولا يعميها الطّمع حيث آمنت بقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: ٢٠]، واعتقدت بأنّ النّجاح والرّزق بيد الله ﷻ، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٤٣٦).

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٤ - ٥].

إنّ الارتباط بين التّقوىٰ والتّوكّل وقضاء الله وقدره من ناحية وبين الرّزق من ناحية أخرىٰ كفيل أن يحرّر الإنسان من الخوف من فقدان الرّزق، ذلك أنّ الرّزق قد تكفّل به المولىٰ ﷻ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وليس علىٰ الإنسان إلّا أن يأخذ بالأسباب الّتي أجملتها الآية الكريمة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥] ويعتقد جازما أنّ الله وحده صاحب الفضل في توفير هذا الرّزق له وتأمينه من الخوف أيّا كان نوعه من مرض أو جوع أو عدوّ أو نحو ذلك، ولا مهرب من ذلك كلّه إلّا بالفرار إلىٰ الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

إنّ الإنسان الّذي يكرّم نفسه حقّا هو الّذي لا ينسىٰ نصيبه من الدّنيا ولكنّه في الوقت نفسه لا ينسىٰ نصيبه من الاخرة، فالآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلىٰ: ١٧]، وتحصيل نصيب الآخرة يكون بالإنفاق وإخراج الزّكاة والمواساة وإغاثة الملهوف ونحو ذلك، يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧].

والخلاصة: أنّ الإنسان الّذي يكرّم نفسه هو الّذي يستحقّ التّكريم من الله ﷻ ومن النّاس، وتكريم النّفس يكون بإعمال قواها العقليّة بالتّفكّر

والتّدبّر والتأمّل، وقواها القلبيّة بالحبّ والتّذكّر والإيمان، وقواها البدنيّة بالسّعي للرّزق وبالعبادة والعمل الصّالح، إذ هما وسيلة العبد إلىٰ التّقرّب منه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، كلّ ذلك تزكية للنّفس وسموّ بها وقد قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩- ١٠]. (١)

السنة النبوية ترشد إلى الأخذ بالأسباب:

الاعتماد علىٰ الله لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب واتخاذ الاحتياطات اللازمة فقد أرشد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلىٰ ذلك، عن أَنَسَ ابْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**» (٢)، فالتوكل لا يكون إلا مع اتخاذ الاسباب الظاهرة(٣)

القيام بالأسباب يحقق التوكل:

الذي يحقق التوكل علىٰ الله هو القيام بالأسباب المأمور بها؛ فمن عطلها لم يصح توكله؛ فلم يكن التوكل داعية للبطالة، أو الإقلال من العمل البتة.

بل كان له الأثر العظيم في إقدام عظماء الرجال علىٰ جلائل الأعمال التي يسبق إلىٰ ظنونهم أن استطاعتهم وما لديهم من الأسباب الحاضرة

---

(١) نضرة النعيم: (٤/ ١١٤٤).

(٢) الترمذي: (٢٤٤١). وانظر: ضعيف سنن الترمذي: (ص: ٥٧٤).

(٣) كما سنبين بعد قليل.

يقصران عن إدراكها، ذلك أن التوكل من أقوىٰ الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوىٰ الأسباب علىٰ الإطلاق، فاعتماد القلب علىٰ قدرة الله وكرمه ولطفه يستأصل جراثيم اليأس ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يلج به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها. (١)

هذا هو التوكل في الحقيقة، فاذا فسر بأنه قبض اليد عن العمل وطرح الأسباب جملة فذلك تفسير لا يقره الشرع الذي يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ويقول: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] ويقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠] وما اقترن العزم الصحيح بالتوكل علىٰ من بيده ملكوت كل شيء الا كانت العاقبة رشدًا ونجاحًا، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما جمع قوم بين الأخذ بالأسباب، وقوة التوكل علىٰ الله إلا أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا سعداء وما بذل أحد جهده وسعىٰ في الأمور النافعة سعيه واستعان بالله عليها، وأتاها من أبوابها ومسالكها إلا وأدرك مقصوده، فإن لم يدركه كله أدرك بعضه، وإن لم يدرك منه شيئا لم يلم نفسه، ولم يذهب عمله سدًىٰ خصوصًا إذا ثابر ولم يتضجر. (٢) فإن الله يثيبه علىٰ ذلك.

(١) الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها (ص٢٠٨-٢٠٩).
(٢) الهمم العالية ص ٢١٠.

إبراهيم عليه السلام والتفاته إلى مسبب الأسباب:

وما أنصف وأعقل ما دعا به إبراهيم عليه السلام قومه وهو يعرِّف صفة إلهه العظيم - الذي يعبده، وكانت مفاصلة بينه وبينهم، قال عليه السلام: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء:٧٧] فكأنه سئل: وما رب العالمين؟ قال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء:٧٨ - ٨١].

فالهداية الحقة إلىٰ التوحيد لا تكون إلا من الله، ولذلك أثبتها بهذا الضمير، قال: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء:٧٨] لا غيره، هذا معنىٰ الكلام.

﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الشعراء:٧٩] من الجائز أن تقول: كنت سأموت من الجوع لولا فلان أطعمني وسقاني، فكأنه قال له: إن فلانًا ما زاد علىٰ أن أعطاك سبب دفع الجوع فقط، أما الشبع والري فهما من الله. (١)

لكن المقصود أن دفع الجوع وإثبات الري من الله تبارك وتعالىٰ، فلما حدث التباس في مسألة الأكل والشرب أكدها إبراهيم عليه السلام بهذا الضمير، أي:

---

(١) ومما يؤكد هذا الكلام: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَافَهُ ضَيْفٌ كَافِرٌ. فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ. فَحُلِبَتْ فَشَرِبَ حِلَابَهَا. ثُمَّ أُخْرَىٰ فَشَرِبَهُ. ثُمَّ أُخْرَىٰ فَشَرِبَهُ. حَتَّىٰ شَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ. ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ. فَأَمَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ. فَحُلِبَتْ فَشَرِبَ حِلَابَهَا. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِأُخْرَىٰ فَلَمْ يَسْتَتِمَّهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِي مِعًى وَاحِدٍ. وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**». موطأ مالك: (٥/ ١٣٥٢). أي أن الكافر قد يأكل أكل سبعة ولا يشبع.

هو الذي يطعمك لا غيره، سواء بالسبب أو بالأثر، فإن ما في الأرض ملكه، ولو شاء لأمسك الأمطار فهلك كل من علىٰ الأرض، ففي حقيقة الأمر كل ما ملكت يداك هو ملكه وأنت ملكه، فالسبب والأثر ملكه.

قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء:٨٠] من الجائز أن يقول العبد: كنت علىٰ شفا الموت لولا الطبيب الفلاني الماهر الذي شفاني، فكأنه قال له: لا؛ لأن الطبيب هذا يموت بنفس العلة التي يداوي منها(١).

قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ [الشعراء:٨٠] تأمل اللطف في الكلام، لم يقل: وإذا أمرضني، بل نسب المرض إلىٰ نفسه تأدبًا من أن ينسب الشر إلىٰ الله.(٢)

---

(١) وما ألطف ما نبه النبي ﷺ علىٰ هذا الأمر عندما قال: «**لَا عَدْوَىٰ وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ**» فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا بَالُ إِبِلِي، تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَأْتِي البَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فَقَالَ: «**فَمَنْ أَعْدَىٰ الأَوَّلَ؟**» أول جمل جربان علىٰ وجه الأرض من أعداه؟ يريد أن يقول: إن العدوىٰ لا تنتقل بذاتها، إن الله هو الذي ينقلها بدليل: (**من أعدىٰ الأول؟**) البخاري: (٧/ ١٢٨). فليس بالضرورة إذا كان هناك مرض معدٍ إذا لامست صاحبه تصاب بنفس المرض، لا يقول هذا أبدًا ذو علم لا في الطب ولا في الشرع، لكن اقترابه من مصدر العدوىٰ مظنة العدوىٰ وليس بالضرورة أن يحمل العدوىٰ. فلا عدوىٰ هنا تنتقل بذاتها، إنما ينقلها الله تبارك وتعالىٰ، فهذا سبب لكن الأثر من الله تبارك وتعالىٰ، فهو الذي ينقله وهو الذي يحجبه إذا أراد.

(٢) ومن هذا الباب قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**». مع أن المصائب مقدرة ومكتوبة ومسطرة.

ومن هذا الباب قول الخضر لموسىٰ -كما حكىٰ الله تعالىٰ عنه: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ =

التوكل لا يكون إلا مع اتخاذ الاسباب الظاهرة:

وقبل أن أذكر نماذج علىٰ هذا الكلام لابد أن أؤكد علىٰ أمر مهم وهو: التفات القلب إلىٰ الأسباب قدح في التوحيد، ومحو الأسباب بالكلية نقص في العقل.

ولهذا كان النبي ﷺ متوكلًا حق التوكل وآخذا بالأسباب في نفس الوقت.

سيد المتوكلين يأخذ بمقتضى الأسباب في الهجرة:

- **ومن هذه الأسباب**: أنه أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يبتاع راحلتين قبل الهجرة.

وأنه ﷺ أخذ بعوامل السِّرِّية، حتىٰ أنه لما جاء ليخبر أبا بكر بأمر الهجرة جاءه في ساعة منكرة. عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الخُرُوجِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، لَمْ يَرُعْنَا إِلَّا وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا، فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، يَعْنِي عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ،

....

=

فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩] فنسب العيب إلىٰ نفسه، وفي قصة الغلام قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨٠ - ٨١]، فكل خير ينسب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

قَالَ: «أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ».(١)

- **ومن الأخذ بالأسباب:** أن رسول الله ﷺ خرج من غير الطريق الذي اعتاده الناس من أجل أن يلبس علىٰ القوم، ويعمي عليهم الآثار.

- **ومن الأخذ بالأسباب:** أنه استأجر عبد الله بن أريقط -رجلًا من بني الديل- هاديًا خريتًا خبيرًا بالصحراء؛ من أجل أن يدلهم علىٰ الطريق.

- **ومن الأخذ بالأسباب كذلك:** ما صنعته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها من إعداد الزاد لرسول الله ﷺ وصاحبه.

- **ومن الأخذ بالأسباب:** ما كان من أمر دخولهما في غار ثور ومكثهما فيه أيامًا ثلاثة إلىٰ أن خف الطلب، وأيس القوم من اللحاق بهما، وعند ذلك خرجا.

* **وهنا سؤال:** لماذا ونحن مسلمون مؤمنون مصدقون برسول الله ﷺ، ومع ذلك فإن أهل الكفر قد تحكموا في رقابنا، وطاروا فوق رؤوسنا، لِمَ هذا ونحن مسلمون وهم كفار؟!

* **فنقول:** لأننا لم نأخذ بأسباب القوة التي أمرنا أن نأخذ بها، وانتظرنا أن ينزل علينا نصر من السماء دون أن نعد العدة، ونأخذ الأهبة، ونعمل بأسباب القوة، ولذلك فإن رسول الله ﷺ رغم أنه موعود من الله بأن يحفظه، وأن يرعاه إلا أنه أخذ بالأسباب.

- **ومن الأخذ بالأسباب:** قول الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ

(١) البخاري: (٢١٣٨).

بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. إن الله تعالىٰ قادر علىٰ أن ينصر رسوله بـ «كن» ولكنه أجرىٰ النصر علىٰ الأسباب، فهيأ طائفة من المؤمنين يؤيدون رسول الله -ﷺ- وينصرونه، وحتىٰ يعلم المسلمون علىٰ طول الزمن أن الإسلام يحتاج إلىٰ جهد المسلمين، وصدقهم في الدفاع عنه.(١)

موسى عليه السلام والأخذ بالأسباب:

وموسىٰ عليه السلام أخذ بالأسباب حينما فر من فرعون وخرج من المدينة خائفًا يترقب بعد قتله للرجل.

وكذلك أخذ بالأسباب لما خرج ليلًا بمن معه والذي أمره هو الله كما قال: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الدخان: ٢٣].

ولما وصل أمام البحر كان الله قادرًا علىٰ أن يفلق البحر ولكن أخذًا بالأسباب قال لموسىٰ عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

السيدة هاجر والأخذ بالأسباب:

* عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَىٰ سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّىٰ وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَىٰ المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا

(١) دعوة الرسل: (ص: ٢٥٠).

هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧] «**وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّىٰ، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَىٰ أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ**(١)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَىٰ المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَهٍ - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ

---

(١) وهنا محل الشاهد لأنها قامت بالأسباب فلم تترك السعي بعد شوطين أو ثلاثة، بل قطعت سبعة أشواط من الصفا إلىٰ المروة، لعلها تجد فرجًا، ولعلها تجد مخرجًا

أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّىٰ ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ -، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**» قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.....الحديث. (١)

مريم العذراء يأمرها ربها بفعل السبب:

ومن ألطف ما يذكر في ذلك قوله تبارك وتعالىٰ لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥]. لو جاء أربعون رجلًا أشداء أقوياء وقلنا لهم: هزوا النخلة لينزل الثمر، ما نزلت تمرة، فما هي القوة عند امرأة نفساء، لتهز النخلة؟

امرأة نفساء وأضعف ما تكون المرأة بعد الولادة، خارت قواها كلها(٢)، فكيف قال الله لمريم وهي بتلك الحال: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ

(١) البخاري: (٣٣٦٤).

(٢) لذلك ابن عمر لما كان يطوف بالبيت ورأىٰ رجلًا يحمل أمه العجوز علىٰ كتفيه يطوف بها وهو يقول:

أنا لها بعيرها المذلل... إن أذعرت ركابها لم أذعر

يعني: أنا جمل أنا مطية لها، ويطوف في وسط الخلق، ثم التفت إلىٰ ابن عمر وقال: (يابن عمر! تراني وفيتها؟ قال له: لا، ولا بزفرة) الزفرة هي: (الآهات) التي تقولها المرأة في الولادة، التأوه، كل الذي فعلته لا يساوي زفرة منها وهي تلدك.

ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]

إشارة إلىٰ الأخذ بالسبب، ولذلك أجاد ذلك الشاعر -لله دره- حين صور هذا المشهد فقال:

توكل علىٰ الرحمن في الأمر كله ... ولا ترغب بالعدل يومًا عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب
فلو شاء أن تجنيه من غير هِزِّةٍ ... جَنَتْهُ ولكن لكل رزق سبب

لو شاء أنزل عليها الرطب، لكن هو الذي جعل النخلة في يدها كفرع شجرة، وهذا من ألطف ما يقال في الأخذ بالأسباب.

نبي الله أيوب والأخذ بالأسباب:

ليس بعيدًا علىٰ الله أبدًا أن يتم شفاء أيوب بلا عمل منه، لكن الله تعالىٰ أمره أن يضرب الأرض بقدمه؛ لينبع الماء، ويغتسل منه ويشرب، وبذلك يزول ما ببدنه وباطنه من أذىٰ.

لقد أمره الله تعالىٰ بذلك ليتعلم هو والآدميون من بعده، أن الله تعالىٰ يجري أقداره علىٰ أسباب يقوم بها الناس، حتىٰ لا يتكلوا، فكأنه استعمل الدواء، فأشفاه الله من الداء، وصارت سنة في الناس أن يأخذوا بالأسباب، متوكلين علىٰ الله، يقول النبي ﷺ: «**تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ، سُبْحَانَهُ، لَمْ يَضَعْ دَاءً، إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً، إِلَّا الْهَرَمَ**»(١). (٢)

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٤٣٦).

(٢) دعوة الرسل: (ص: ٢٥٠).

✍ أيها القارئ الكريم:

إن الإعراض عن الأسباب هدم للدين كله، قدح في الشرع الذي هو الأمر والنهي؛ لذلك كان المؤمن الذي يرجو ربه تبارك وتعالىٰ يبدأ بطلب السبب ولا يلتفت قلبه إليه، لذلك وصف الواصف أصحاب النبي ﷺ - وهو يميزهم عن الذين أتوا من بعدهم في تعاملهم مع الدنيا- فقال: كانت الدنيا في أيديهم ولم تكن في قلوبهم.

مطلوب منك أن تكون غنيًّا لكن لا تكن عبدًا للمال، المال يكون في يدك، وقلبك فيه الافتقار إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، وليس الطغيان بذلك المال.

وهنا ونحن نتكلم عن الأخذ بالأسباب يحسن بنا أن ننبه علىٰ شيء وهو أن الإنسان لا يتعلق قلبه إلا بالله وأن يستغني الإنسان عن الناس.

واسمع معي إلىٰ هذه الوصية الرائعة التي قالها الأمين جبريل للرسول ﷺ. يقول جبريل: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**». (١)

نعم والله عزّ المؤمن في استغنائه عن الناس.

ومعنىٰ هذا أن يتعلق العبد بالله، كما جاء في حديث ابن عباس: «**إِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**». (٢)

---

(١) المعجم الأوسط: (٤٢٧٨).

(٢)أخرجه الترمذي (٢٥١٦). وأخرج اللفظ الثاني: أحمد ١/ ٣٠٧.

فلا يقِّدم للمخلوق سؤالًا، ولا يتقرب إلىٰ المخلوق؛ فقد عزه استغناؤه عن الغير، فلا يحتاج إلا إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، فتراه يأكل ويشرب من كده وتعبه وعرقه.

واعلم أن سؤال الناس مذلة، وليس بعيب أن نعمل، لكن العيب كل العيب أن نكون عالة علىٰ الآخرين، فقد عمل الأنبياء، وما من نبي إلا ورعىٰ الغنم، وعمل موسىٰ عليه السلام حتىٰ يعف نفسه، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يرعىٰ الغنم لأهل مكة؛ حتىٰ لا يحتاج إلىٰ الآخرين، وهكذا كان العلماء الربانيون يتكسبون كي يعفوا أنفسهم، وكانوا لا يأخذون أعطيات ولا مداهنات الأمراء والوزراء؛ حتىٰ تكون الكلمة قوية، وحتىٰ يستطيعوا أن يصدعوا بالحق، فالاستغناء عن الغير عزّ.

- **وانظر إلى هؤلاء العلماء واستغنائهم عن الناس:**

١ - من مد رجله لا يمد يده:

كان الشيخ «سعيد الحلبي» عالم الشام في عصره في درسه مادًّا رجليه، فدخل عليه «إبراهيم باشا» ابن «محمد علي» صاحب مصر، فلم يتحرك له، ولم يقبض رجليه، ولم يبدل قعدته، فتألم الباشا، ولكنه كتم ألمه، ولما خرج، بعث إليه بصُرَّة فيها ألف ليرة ذهبية، فردَّها الشيخ، وقال للرسول الذي جاءه بها: «قل للباشا: إن الذي يمد رجليه، لا يمد يده».(١)

(١) علو الهمة ١/ ١١٣.

٢ - ما سألت الذي يملكها أأسألك أنت؟

التقىٰ أحد الأمراء مع أحد العلماء في بيت الله الحرام، فأراد هذا الأمير أن يتقرب إلىٰ هذا العالم فقال له: هل لك من حاجة نقضيها لك؟

قال: والله! إني لأستحي أن أسألك وأنا في بيته، فتحين هذا الأمير خروج هذا العالم من بيت الله الحرام، فلما التقاه في الخارج قال: والآن ألك حاجة نقضيها؟

فقال العالم: أمن حوائج الدنيا هي أم من حوائج الآخرة؟

قال: بل من حوائج الدنيا.

قال: ما سألت الذي يملكها. أأسألك أنت؟!

ولنعلم أن عز المؤمن استغناؤه عن الغير، ولن يكون ذلك إلا إذا تعلق بالله، وعرف كيف يطرق أبواب السماء، وعرف كيف يفتح أبواب السماء بالدعاء والسؤال والذل والمسكنة لرب الأرض والسماوات، يقول جبريل: **«يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»**. (١)

---

(١) المعجم الأوسط: (٤٢٧٨).

بصيرة في البصر والعمى

من جليل نعم الله علينا وعظيم فضله نعمة العين التي هي نافذة يطل من خلالها الإنسان علىٰ العالم من حوله، وتتحصل من خلالها المعارف والمعلومات التي تيسر للإنسان التعامل مع الأشياء والأشخاص.

وقد أثبتت إحدىٰ الدراسات الحديثة أن العين تحتل المكانة الأولىٰ من بين سائر الحواس في تحصيل المعلومات، فهي تستأثر بما يساوي ٨٠٪ بينما يحتل السمع ١٥٪، وبقية الحواس لها ٥٪ فقط.

سمى الله العين حبيبة:

* ولأهمية العين وما تقوم به من وظيفة الإبصار بالنسبة للإنسان سمَّاها الله تعالىٰ الحبيبة والكريمة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**» يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ.(١)

* ولفظ الترمذي: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ: إِذَا أَخَذْتُ كَرِيمَتَيْ عَبْدِي فِي الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ عِنْدِي إِلَّا الجَنَّةَ**».(٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٥٦٥٣).

(٢) سنن الترمذي: (٢٤٠٠)، صحيح الجامع: (١٩٠٤).

وقد يتغافل البعض عن نعمة كهذه بحكم العادة والإلف، لكننا لا ننكر أنَّ من حُرِمُوا هذه النعمة يباشرون حياتهم بصعوبة، ولا يستطيعون الاستغناء عن معونة الغير لهم، مما يجعلنا نحرص علىٰ شكر الله الذي أنعم علينا بهذه النعمة، وعافانا مما ابتلىٰ به غيرنا.

النظر إلى نعم الله:

والذي يقرأ كتاب الله تعالىٰ يجد أن القرآن الكريم يذكِّرُنا دائما بضرورة استثمار نعمة البصر في التعرف علىٰ الله الخالق، والقيام بما يقتضيه ذلك من الذكر والشكر.

* قال ربُّ العزة: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٞ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢١].

* وقال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق: ٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج: ٦٥] والآيات كثيرة في هذا المعنىٰ.

حديث القرآن عن البصر يراد به البصيرة:

جميع الآيات التي ورد فيها ذكر النظر والرؤية والبصر لا تعنىٰ أبدًا المعنىٰ المادِّي، وإنما تهدف إلىٰ التأمل والاعتبار، وهو ما يتجاوز حدود البصر إلىٰ البصيرة.

* يقول ربُّ العزة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥]، أي: الناظرين نظر تفكر وتأمل لمعرفة الأشياء بسماتها وعلاماتها. (١)

قال القرطبيُّ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا عن إبصار الحق. ﴿ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: جَاءَ نَفَرٌ مِنْ أهل اليمين إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلُوهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: اقْرَءُوا مَا قَبْلَهَا ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ إِلَىٰ- ﴿ تَفْضِيلًا ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ الَّتِي رَأَىٰ أَعْمَىٰ فَهُوَ عَنِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يُعَايِنْ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ مَنْ عَمِيَ عَنِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ عَنْ نِعَمِ الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي أُمْهِلَ فِيهَا وَفُسِحَ لَهُ وَوُعِدَ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري: (٣/ ٩٠).

وَقِيلَ: وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَىٰ عَنْ حُجَجِ اللهِ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ، كَمَا قَالَ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الْآيَاتِ.

* وَقَالَ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ: أَشَدُّ عَمًى، لِأَنَّهُ مِنْ عَمَىٰ الْقَلْبِ، وَلَا يُقَالُ مِثْلُهُ فِي عَمَىٰ الْعَيْنِ. (١)

القرآن لا يعد العمى المادِّي عيبًا:

وفي ضوء هذه المعاني نجد القرآن الكريم لا يعد العمىٰ عن رؤية الأشياء عيبًا في صاحبه، أو عائقًا دون وصوله إلىٰ الكمال، فيقول في حق الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١ - ٤].

فالعمىٰ لا يحول دون التزكِّي والتذكر، بل قد يفوق أناسٌ فقدوا نعمة البصر كثيرًا من غيرهم ممن أعطوا نعمة البصر وحرموا البصيرة.

✍ **يقول عزُّ الدين أحمد بن عبد الدايم:**

إن يُذهب الله من عيني نورهما ... فإن قلبي بصير ما به ضرر

أرىٰ بقلبي دنياي وآخرتي ... والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

ويقول مجاهد: لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه، وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئًا

(١) تفسير القرطبي: (١٠/ ٢٩٨).

وإن أبصرت عينا رأسه، وعميت عينا قلبه، لم ينفعه نظره شيئا.(١)

العمى الحقيقي في غفلة القلب:

لأجل ذلك فإن القرآن الكريم يعلِّمنا أن العمىٰ الحقيقي ليس في عدم رؤية الأشياء بسبب فقد البصر، وإنما هو غفلة القلب عن الله بسبب فقد البصيرة.

يقول ربُّ العزة: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ويقول عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٦٤] ويقول عن قوم صالح: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

وجميع الآيات التي ورد فيها ذكر العمىٰ فيما عدا ما في سورة عبس وما جاء من مثل قوله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١] تنصرف إلىٰ عمىٰ القلوب والبصائر.

جزاء العميان في الآخرة:

والذي يؤكد القرآن الكريم أن عاقبة أصحابه في الآخرة هي المعاملة بجزاء من جنس عملهم، فيحشرون عميًا كما كانوا في الدنيا قال تعالىٰ:

---

(١) تسلية الأعمىٰ عن بلية العمىٰ: (ص: ٣١).

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٢]

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٦].

عمى القلب لا يعوضه شيء:

إن عمىٰ العينين بحيث لا يرىٰ صاحبهما شيئًا يمكن أن يستعيض الإنسان عنه بأشياء أخرىٰ، كالحواس السليمة، فضلًا عما يكتب لصاحبه من الأجر لقاء صبره واحتسابه، أما عمىٰ القلب فلا يعوضه شيء، ولا يستعاض عنه بحواس أخرىٰ، وهو طريق الهلاك في الدنيا والآخرة، والحرمان في العاجلة والآجلة.

قال أحد الناس يومًا: ما أشدَّ العمىٰ علىٰ من كان بصيرًا!

فردّت عليه امرأة تسمىٰ عقيدة بنت الوليد قائلة: يا عبد الله، عمىٰ القلب عند الله أشدُّ من عمىٰ العين عن الدنيا، والله لوددت أن الله وهب لي كُنْه محبته، ولم يبق مني جارحة إلا أخذها.

بصيرة في الربح والخسارة

الإنسان مجبول على حب الربح:

جُبِلَ الإنسان في طبيعته علىٰ حُبِّ الكسب وكراهية الخسارة والفشل ومن ثَمَّ فإنه لا يقدم علىٰ مشروع ما، إلا وهو يتوقع تحقيق النجاح فيه، ويعمد لتحقيق هذا النجاح إلىٰ دراسة الموضوع دراسة وافية، واستشارة من سبقوه في هذا الطريق، وربما يحيل هذه الدراسة إلىٰ بعض بيوت الخبرة لتقوم بدراسة الجدوىٰ اللازمة، ضمانًا لسلامة المشروع من احتمالات الفشل والخسارة.

الفشل وارد رغم الحرص:

ومع كل هذه الاحتياطات قد يفشل المشروع، وتضيع جميع الجهود، ولكن يبقىٰ أن نُذَكِّر بأن تحقيق الربح في مشروعات الدنيا أو عدمه ليس دليلًا علىٰ رضا الله تعالىٰ عمَّن يربح، أو غضبه علىٰ من يخسر، وأن الإخفاق في هذه المشروعات يمكن تداركه، وأن يُعَوَّض الإنسان ما فاته في مشاريع أخرىٰ.

المشاريع الحقيقية:

الله تبارك تعالىٰ يُحَدِّثُنَا عن مشاريع أخرىٰ، النجاح فيها طريق إلىٰ النعيم، والفشل فيها طريق إلىٰ الجحيم، والذي يُحَدِّد النجاح فيها أو الفشل

هو موضوع التجارة التي يباشرها العبد، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «.... **كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١) فمن باع نفسه وما يملك لله ربِّ العالمين فهو الرابح، ومن باع نفسه لغير الله فهي الخسارة الماحقة، وفيما يلي بيان ذلك من خلال ما ذكره الله تعالىٰ في كتابه المجيد.

حديث القرآن عن التجارة الرابحة:

يحدثنا ربنا تبارك وتعالىٰ عن أن التجارة معه لا يلحقها بوار ولا يتوقع فيها خسارة فيقول ربُّ العزة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩- ٣٠].

وفي موضع آخر من كتاب الله يُحَدِّثنا ربنا تبارك وتعالىٰ عن هذه التجارة، والثمن الذي يدفع فيها أو الجزاء المُسْتَحَقُّ عليها في الدنيا والآخرة، فيقول ربنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

وفي موضع ثالث من كتاب الله تعالىٰ يُذكِّرُنا ربُّنا بهذه التجارة، وأن ما وعد الله به أصحاب هذه التجارة من عظيم المثوبة وعد صادق لا يتخلف،

---

(١) صحيح مسلم: (٢٢٣).

وفي هذا يقول ربنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

فقه الصحابة لمعنى التجارة الرابحة:

١ - موقف الصحابة في بيعة العقبة:

يقول القرطبي: فِي الْبَيْعَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْكُبْرَىٰ، وَهِيَ الَّتِي أَنَافَ فِيهَا رِجَالُ الأنصار علىٰ السبعين، وكان أصغر هم سِنًّا عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَذَلِكَ أَنَّهُمُ اجْتَمَعُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِيٍّ أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**». قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَا لَنَا؟ قَالَ: «**الْجَنَّةُ**» قَالُوا: رَبِحَ الْبَيْعُ، لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾ الْآيَةَ. (١)

وفي تفصيل لما حدث يقول الأنصار كما روىٰ أحمد:

....حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوك؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي

(١) تفسير القرطبي: (٨/ ٢٦٧).

وُجُوهِنَا، قَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَىٰ النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَىٰ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَىٰ أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَىٰ أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ**»، فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَىٰ السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَىٰ قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَىٰ مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَىٰ اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ، قَالُوا: يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَنَّةَ. (١)

٢ - موقف صهيب الرومي:

وحين هاجر الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه وحَالَ المشركون فيما بينه وبين هجرته، وقالوا جئتنا صعلوكًا لا مال لك، وتريد الآن أن تهاجر بمالك؟ ففاوضهم علىٰ أن يترك لهم ماله ويَدَعُوهُ، فوافقوا.

* وتفصيل قصته كالآتي: عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ: «لَمَّا أَقْبَلَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا نَحْوَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَانْتَثَلَ مَا فِي كِنَانَتِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ رَجُلًا، وَايْمُ اللهِ لَا

(١) مسند أحمد: (١٤٤٥٦).

تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّىٰ أَرْمِيَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِي فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ أَضْرِبُ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، دَلَلْتُكُمْ عَلَىٰ مَالِي وَثِيَابِي بِمَكَّةَ وَخَلَّيْتُمْ سَبِيلِي، قَالُوا: نَعَمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ: «**رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَىٰ رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَىٰ**»، قَالَ: وَنَزَلَتْ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الْآيَةَ»(١)

٣ - فقه عثمان لمعنى التجارة الرابحة:

وهذا الفقه نفسه هو الذي دفع سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد حضرت له تجارة إلىٰ المدينة، فجاءه التجار ليساوموه عليها، فقال: بكم تأخذونها؟ فقالوا: نعطيك علىٰ الدرهم درهمين، فقال: هناك من يعطي أكثر.

فقالوا: نعطيك علىٰ الدرهم ثلاثة.

فقال: هناك من يعطي أكثر من ذلك.

فمازالوا يزيدونه، وهو يقول لهم: هناك من يعطي أكثر.

فقالوا له: ليس في المدينة تجَّارٌ غيرنا.

فقال: إن الله وعدني علىٰ الحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثير. أشهدكم أنها جميعًا في سبيل الله، وقام بتوزيعها علىٰ الفقراء والمساكين. (٢)

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي: (١/ ٣١١)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ١٥١).

(٢) في هذا الكتاب إشارة لفعل عثمان: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام (ص: ١٤٠).

ويترجم هذا الفقه الإمام جعفر الصادق في أبيات له يقول فيها:

أُثامنُ بالنفس النفيسةِ ربَّها ... وليس لها في الخلقِ كلِّهم ثمن
بها تُملّك الأُخرىٰ فإن أنا بعتُها ... بِشيءٍ من الدُّنيا فذاك هو الغبن
إنْ بِعتُ نفسي بدنيا أُصيبها ... لقد ضاعت نفسي وقد ضاع الثمن

حديث القرآن عن التجارة الخاسرة:

إذا انتقلنا من هذه الصور المشرقة والمضيئة للتجارة الرابحة، فسنجد القرآن الكريم يحدُّثنا عن أنواع أخرىٰ من التجارات مآلها الخسران، وعاقبتها البوار، وهي كل معاملة سلك بها أصحابها مسلك البعد عن الله، وأعلنوا العصيان والتمرد علىٰ شرع الله.

* يقول ربنا في شأن المنافقين: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦** ﴾ [البقرة: ١٦]

* ويقول رب العزة في شأن اليهود: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٦].

* ويقول ربنا في شأن اليهود أيضًا: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥** ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥].

* ويقول رب العزة في شأن المشركين: ﴿ **ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا**

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩].

استنتاجات من المقابلة بين الربح والخسارة:

نستنتج من المقابلة بين الصورتين أن الراغب في ثواب الله وعظيم جزائه لابد وأن يعطي من نفسه المجهود، ولا يبخل بمال الله على عباد الله، ولن ينفع الإنسان أن يتمنى على الله الأماني دون عمل.

قال ابن رجب: قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكنه بما وقر في الصدور وصدقته الأعمال ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾ [الأنفال: ٢- ٤].

وفي هذا يقول بعضهم:

ما كل من زوق لي قوله ... يغرني يا صاح تزويقه
من حقق الإيمان في قلبه ... لا بد أن يظهر تحقيقه (١)

ونختم هذه البصيرة بهذا الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**».(٢)

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٢٦).

(٢) سنن الترمذي: (٤/ ٦٣٣).

بصيرة في السمع والصمم

السمع قبل البصر:

تتعدد وسائل الاتصال بين الإنسان والعالم الخارجي من حوله، ومن هذه الوسائل المهمة وسيلة السمع، والتي تعد المصدر الأول للتلقي عند الإنسان، حيث يبدأ عملها معه وهو في بطن أمه، ومع أول إطلالة له علىٰ الدنيا تظل الأذن هي وسيلته للاتصال بالعالم من حوله، وتتأخر العين بضعة أيام حتىٰ تباشر عملها معه، لأجل ذلك يأتي السمع مقدَّمًا علىٰ البصر في القرآن الكريم.

حاسة السمع تعمل في حالة اليقظة والنوم:

وتتميز حاسة السمع بميزة أخرىٰ، وهي أنها تعمل في حال يقظة الإنسان ومنامه، فلا يستيقظ الإنسان من منامه إذا شمَّ شيئًا أو تحرك أمامه أحد، فإذا أحدثت صوتاً تنبَّه واستيقظ، ولأجل ذلك فإنَّ الله حين ألقىٰ النوم علىٰ أهل الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا لم يشعروا بما حولهم، لأن الله ضرب علىٰ آذانهم فلم يعودوا يسمعون وبالتالي لا يستيقظون، قال تعالىٰ: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف: ١١]

السمع يعمل في جميع الاتجاهات:

يضاف إلىٰ ذلك أن حاسة السمع تعمل في جميع الاتجاهات، بعكس

البصر الذي لا يرىٰ إلا الأمام أو ما يلتفت الشخص إليه.

الأصم معزول عن العالم:

وهذه المعاني تؤكد شدة ابتلاء من فقدوا أسماعهم، حيث يعيش الأصم معزولًا عن العالم من حوله، ويحرم من سماع القرآن وبلاغ الهداية، وبسبب فقدان السمع يفقد الأصم القدرة علىٰ الكلام، فيتضاعف بلاؤه، وتشتد معاناته.

بيان القرآن للحكمة من السمع:

وقد بيَّن لنا ربُّنا في أكثر من موضع بكتابه أن الحكمة من وراء نعمة السمع وغيرها من النعم إنما هو استثمارها في طاعة الله، والاستعانة به علىٰ مرضاته.

يقول ربُّ العزة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

ولذا كانت هذه الحواس محل سؤال العبد بين يدىٰ الله يوم القيامة، حيث يقول ربنا: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، فاحفظ سمعك فلا تسمع إلا ما يرضيه، واحفظ بصرك فلا تنظر إلا إلىٰ ما يرضيه، واحفظ قلبك فلا يمتلئ إلا بما يحبه ويرضيه، واحفظ عقلك فلا تفكر إلا في طاعته ومراضيه.

توجيه القرآن للإصغاء للحق:

ومن هنا يوجهنا القرآن الكريم إلىٰ ضرورة أن نصغي بآذاننا إلىٰ الحق، ونقبل بأنفسنا عليه، فيقول ربَّنا: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦]، قدَّم الأمر بالتقوىٰ وثنىٰ بالسمع وثلث بالطاعة للإشارة إلىٰ ما أسلفناه من ضرورة الاستعانة بالسمع علىٰ طاعة الله.

وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨] فقدَّم الأمر بالتقوىٰ وثنىٰ بالسمع أيضًا.

السماع على ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول: سماع الإدراك:**

كقوله ﷻ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن:١ - ٢].

- **النوع الثاني: سماع الفهم:**

وهو الذي نفاه الله عن الأموات كقوله ﷻ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الروم:٥٢] ونفاه عن أهل الإعراض، فقال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [الروم:٥٢].

- **النوع الثالث: سماع القبول والإجابة:**

كقوله تعالىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ ﴾ [البقرة:٢٨٥] وفي حالة الجن المسلمين اتصل سماع الإدراك بسماع الإجابة بعد سماع الفهم، فاجتمعت فآمنوا

وأسلموا، ويا حظ من كان سمعه موافقًا لمرضاة الله تعالىٰ، ولذلك قال في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ**».(١) يعني: لا يسمع إلا ما يرضي الله ﷻ.

إن سماع الفهم والإجابة في غاية الأهمية، وهو سماعٌ مفقودٌ عند الكثيرين، فيسمعون بأُذن الرأس، لكن لا يسمعون بأُذن القلب، ولذلك يواجه الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ من المشكلات والمصاعب ما الله به عليم؛ نتيجةً لتخلف سماع الفهم وسماع الإجابة عند الناس.

سماع الرأس والإدراك أمرٌ ميسورٌ لأكثر الناس، أما سماع الفهم فيحتاج إلىٰ إمعان وتركيز، وتفرغ وحضور قلب، أما سماع الإجابة فيحتاج إلىٰ إخلاص وتجرد، ولذلك لا يرزقه إلا القليل، فقليل من الناس الذين يسمعون سماع الإجابة سماع التأثر سماع الانقياد، ولذلك ترىٰ هؤلاء الناس كثيرًا ما يسمعون الخطب والمواعظ، لكن قل من يستجيب، وقل من يتأثر لتخلف سماع الإجابة، وسماع التأثر والانقياد.

ولذلك كان من علامات أهل الكفر وأعمالهم أنهم لا يريدون سماع الحق، قال الله تعالىٰ عن نبيه الكريم نوح ﵇، الداعية الذي دعا قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [نوح:٧] لكي لا يسمعوا فيتأثروا، وكذلك الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت:٢٦] حتىٰ لا تتأثروا به، ولذلك جعل الطفيل في أذنيه كرسفًا -أي:

(١) صحيح البخاري: (٦٥٠٢).

قطنًا- من الدعاية والإعلام الباطل الذي وجهه كفار قريش لدعوة النبي ﷺ، ولكن الله أسمعه وهداه، وكذا كل من يريد الله به خيرًا.

وقال الله ﷻ مبينًا أن هناك سماعًا بالرأس، لكنه ليس بسماع القلب: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩] فأثبت لهم سمع الرأس، ولكن نفى عنهم سمع القلب، لهم آذان ولهم سمع الرأس؛ لكنهم لا يسمعون بها، فالاستجابة معدومة، والانقياد غير حاصل.

هناك سماع للصوت؛ لكن ليس هناك استجابة، ولذلك وصفهم الله بأنهم أضل من الأنعام، فإن الأنعام إذا سمعت صوت الراعي ودعاءه ونداءه استجابت واستأنست وعرفته فتقبل إليه، أما هؤلاء فلا، وهذا السماع هو المقصود من حديث النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».(١)

أما سماع الفهم: فهو سماعٌ شريف أثنى رسول الله ﷺ على صاحبه: «**نَضَّرَ اللهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**».(٢)، فربما يكون الثاني فقيهًا له سمع

---

(١) صحيح مسلم: (١٥٣).

(٢) سنن ابن ماجه: (٢٣٦)، سنن الترمذي: (٢٦٥٨).

الفهم، فيفقه ويبلغ وينذر.

إن فهم هذه الأشياء تبين لنا لماذا لا يفهم كثيرٌ من الناس، ثم لماذا لا يستجيبون، ولماذا لا يتأثرون، ولماذا لا ينقادون؟

ثناء ربِّنا على من وظف سمعه لطاعة الله:

ويثني ربنا علىٰ من وظفوا أسماعهم لأجل طاعة ربهم فيقول في صفات أولي الألباب ودعائهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

الأحكام المرتبطة بالسمع في الشريعة:

إن هذا السمع مسئولية، وقد رتب الشارع أحكامًا عليه، وجعل فيه واجبات ومحرمات، وجعل فيه تبعات ومسئوليات، ولذلك قال ربنا: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٠] أي: في الكفر ومعاندة الشريعة.

إذا سمعت من يستهزئ بآيات الله في المجالس، وإذا سمعت من

يستهزئ بشرع الله به في مجالس الناس ومنتدياتهم، وإذا سمعت من يخوض في الكتاب والسنة بالباطل، وإذا سمعت من ينتقص من الدين، ويعيب الشريعة والأحكام، فعندك خياران لا ثالث لهما: إما أن تنكر فتسكتهم، أو تقوم وتغادر المجلس، ولا بد من ذلك، أما إذا سكت وجلست، فأنت شيطان أخرس، وما أكثر المجالس التي تلمز فيها الشريعة اليوم، وتعاب فيها الأحكام، ويسخر فيها من الدين، وفي المقابل ما أقل المنكرين الذين يقومون بالواجب الشرعي تجاه هؤلاء العابثين، وكذلك ذكر الله من صفات المؤمنين أنهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، ولم يتأثروا به، ولم ينصتوا إليه، ولم يستمعوا، وإنما أعرضوا.

وتأمل بعض ما في الشريعة من الأحكام المرتبطة بالسمع كقوله ﷺ: «**إِنَّمَا الْجُمُعَةُ عَلَىٰ مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ**».(١) فإذا كان قريبًا يسمع النداء وجب عليه الحضور، بخلاف ما إذا كان بعيدًا.

وكذلك حضور صلاة الجماعة في المسجد، فإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ، فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِنْ عُذْرٍ**».(٢) فإذا سمع النداء ولم يأت المسجد فهو آثم، وما أكثر الآثمين في هذا الباب الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة، فإذا فرض أن هناك مؤذنًا صيِّتًا يؤذن علىٰ سطح المسجد، والسامع حسن السمع، وليس بينهما جدران ولا عوائق، والريح ساكنة، فإذا كان يسمع؛ فلا بد من الإجابة، هذا الضابط الذي تجب به علىٰ المكلف الجماعة

(١) سنن الدارقطني: (١٥٨٩). وقال الأرنؤوط: حسن لغيره.
(٢) سنن ابن ماجه: (٧٩٣)، صحيح الجامع: (٢١١٨).

وحضورها «**إِذَا سَمِعْتَ النِّدَاءَ فَأَجِبْ دَاعِيَ اللهِ** ﷻ».[(١)]

وكذلك «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ....**».[(٢)] كما جاء عن النبي ﷺ «**إِذَا قَالَ الإِمَامُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**».[(٣)] فسمع الله لمن حمده بمعنىٰ: أجابه وأثابه، فإذا سمعتها وسائر أذكار الصلاة وتكبيرات الإمام، فأنت تجيب، وأنت تتابع.

وكذلك جعل الشارع من المسموعات ما يتفاعل به قلب الإنسان المؤمن، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ صَوْتَ الدِّيكَةِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، فَاسْأَلُوا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَارْغَبُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ سَمِعْتُمْ نُهَاقَ الْحَمِيرِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا، فَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّ مَا رَأَتْ**».[(٤)]

وكذلك فإن من سمع بفتنة، فلا بد أن ينأىٰ عنها، وأن يبتعد، فإذا سمعت بمكان فيه فتنة، فلا يجوز لك أن تسافر إليه، ولا أن تذهب إليه، والدليل أن النبي ﷺ قال في حديث الدجال: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ**».[(٥)] أي: ليبتعد، وما أكثر الدجاجلة الصغار قبل الدجال الأكبر الذين يذهب

---

(١) سنن الدارقطني: (١٨٨٠)، صحيح الجامع: (٦٠٩).
(٢) صحيح مسلم: (٣٨٤).
(٣) صحيح البخاري: (٧٩٦).
(٤) عمل اليوم والليلة لابن السني: (ص: ٢٧٠)
(٥) سنن أبي داود: (٤٣١٩)، صحيح الجامع: (٢١١٩).

إليهم الناس للاستماع! وما أكثر أماكن الفتنة التي يسافرون إليها!

التحذير من الاعراض بعد السماع:

ويحذرنا ربُّنا من أن نسمع بآذاننا ونعرض عن الاستجابة بقلوبنا، فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٠- ٢١].

والمتأمل في آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن السمع يجدها لا تقصد السمع بمعناه المادي المتمثل في سماع الأصوات، وتمييز الحسن منها من القبيح، وإنما يشير القرآن الكريم إلىٰ السمع للتعبير به عن الوعي والإدراك والتعقل لما أنزله الله، والاستجابة لما أمر به.

حال من وقف عند الأشياء المادية:

فإذا وقف الإنسان بسمعه عند الأشياء المادية، ولم يتجاوزها إلىٰ المعقولات والمدركات فهو في نظر القرآن أصم، وإن تمتع بسمع يدرك أدق الأصوات وأخفتها.

* يقول ربُّ العزة: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨].

* ويقول في حق الكفار: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]

* ويقول فيمن آثر هواه علىٰ مرضاة مولاه: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ

هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

* ويقول على لسان أهل النار، وهم بين طبقاتها يعذبون ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة كما يقول ربنا في القرآن: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل: ٨٠- ٨١].

* وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: ٥٢- ٥٣].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] والصَّمم هنا ينصب على من أغلقوا آذانهم عن سماع الحق وهؤلاء هم الذين تصفهم الآيات بالأموات، وأما الذين استجابوا لله ورسوله فهم الذين يصفهم القرآن بالأحياء، وبأنهم الذين يسمعون.

فليفقه المسلم هذه المعاني، وليبادر إلى استثمار حواسه في معرفة الله والقرب منه، حتى لا تتحول النعمة في حقه إلى نقمة، وتنقلب أعضاؤه يوم القيامة ضده، فتشهد عليه وتفضحه بين الخلائق كما قال ربَّنا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ

أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [فصلت: ١٩- ٢٠].

✍ **نختم فنقول**: إن هذه الأذن مأمورة وصدر فيها حكم من الله يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦]، ويقول ﷻ عن عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص:٥٥].

هذه الأذن مسئولة عما سمعت، وهذه الأذن مصبٌ وقناةٌ تحمل الخير أو الشر إلىٰ القلب، كما أن العين قناةٌ يمكن أن ترسل عن طريقها الخيرات والتأملات والآيات، ويمكن أن يرسل عن طريقها الآهات والحسرات والعذاب والعياذ بالله.

❀ ◊ ❀

بصيرة في الشقاوة والسعادة

الله وضح الطريق للجميع فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، فالطريق واضح، ولكنَّ المشكلة في العبد. هل أطاع أم عصىٰ. ومن أطاع كان من السعداء بفضل الله، ومن عصىٰ كان من الأشقياء بعدل الله.

- **يقول الإمام أحمد بن أبي الحواري:** ليس بالطاعة سُعدوا، ولكن بالسعادة أطاعوا، وليس بالمعصية شقوا، ولكن بالشقاوة عصوا. أَهْلُ الطَّاعَةِ لَيْسَ بِالطَّاعَةِ سَعِدُوا، وَلَكِنْ بِالسَّعَادَةِ أَطَاعُوا، وَإِنَّ أَهْل المَعَاصِي لَيْسَ بِالمَعَاصِي شَقُوا، وَلَكِنْ بِالشَّقَاوَةِ عَصَوْا. (١)

السعادة والشقاوة متقدمة علىٰ الفعل والجزاء، فالسعيد من سعد وهو في بطن أمه، والشقي من شقي وهو في بطن أمه.

حديث القرآن عن الشقاوة والسعادة:

* قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ

(١) الطيوريات: (٣/ ١٠٣٥).

خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨]. وفي الآيات تقدمت الشقاوة والسعادة على الفعل والجزاء.

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورىٰ: ٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٩].

حديث السنة عن الشقاوة والسعادة:

- عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»(١).

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٤٣).

- وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً**» قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَىٰ كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**» فَقَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].(١)

- وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُقَالُ لَهُ: حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ، فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَىٰ رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ،**

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٤٧).

وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»(١).

- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَرَفَعَ الْحَدِيثَ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ: قَالَ الْمَلَكُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»(٢).

كيف نحصل على السعادة؟

لا توجد السعادة إلا إذا عرف الإنسان أمرين، وبهما يجد السعادة كاملة بحذافيرها، أما إذا جهل الأمرين أو أحدهما، عاش شقيًا، ومات شقيًا، وبعث شقيًا، وحشر شقيًا، ودخل دار الأشقياء دار العذاب والنار والنكال – وليس هناك أشقىٰ ممن يدخل النار.

ما هذان الأمران الضروريان؟

الأمر الأول: أن تعرف من أنت.

الأمر **الثاني:** أن تعرف لماذا خلقت.

- وهنا لنا وقفة مع تلاميذ إبليس الذين يلبسون الحق بالباطل فيقول أحدهم: أنا مكتوب عليَّ شقي أو سعيد، فما الرد عليه وعلىٰ أمثاله؟

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٤٥).

(٢) صحيح مسلم: (٢٦٤٦).

نقول مستعينين بالله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ [مريم:٧٨] لماذا لا يقول: إن شاء الله أكون من السعداء ويصلي؟

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما كذب المشركين قال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام:١٤٨] هذه أولًا كذبة جاهلية قديمة يردون بها على الأنبياء ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام:١٤٨] هيهات، أعندك علم أن الله كتبك شقي في بطن أمك؟ لا، فهذا هو ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:١٤٨] وهذا هو الذي أخرصهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

فالحجة البالغة التي أقامها الله علىٰ عباده هي هذا الدين، وهذا الرسول، ولهذا قال في سورة النحل، بعد نفس الاعتراض ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ﴾ [النحل:٣٥] ثم قال الله بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦] فلو أن الله تعالىٰ راضٍ عن شرككم وأعمالكم هذه، لما أرسل الرسل تحذركم منها، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦].

فذاك هداه الله فضلًا، وذلك حقت عليه الضلالة عدلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه الشبه كذبها الله تعالىٰ في القرآن، فمن يعارض شرع الله بمشيئة الله فهذا هو حاله، لأن القدرية ثلاثة أصناف كما قسمها ابن تيمية:(١)

قدرية إبليسية: الذي قال زعيمهم إبليس ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف:١٦] قال: بما أغويتني، نسب الغواية إلىٰ الله، وهو الذي غوىٰ، والله إنما قدر، لكن إبليس هو الذي غوىٰ، وفسق عن أمر ربه وعصىٰ، فهذه القدرية الإبليسية.

النوع الثاني: **القدرية الشركية** الذين قالوا: كما حكىٰ الله عنهم في القرآن: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] فلو شاء الله اهتديت.

النوع الثالث: **القدرية المجوسية** الذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه فهذه ثلاثة أنواع، وكل هؤلاء ضلال، وكلها أبطلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه، والصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم لما سألوا الرسول ﷺ عن هذه الأمور: هل هي فيما نستقبل ونستأنف، أم في أمر قد قضي وقدر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بل في أمر قد قضي وقدر**». قالوا: ففيم العمل إذًا؟ قال: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق**»، له. ثم قرأ قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل:٥ - ١٠]. (٢)

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: (٨/ ٢٥٦).

(٢) مسند أحمد: (٦٢١)، صحيح البخاري: (٤٩٤٩)، صحيح مسلم: (٢٦٤٧).

فعلامة الشقي أنه ميسر له عمل أهل الشقاوة، وعلامة السعيد أنه ميسر له عمل أهل السعادة، وهو الذي يختار ذلك، لكن لا يحتج بما قد كتب، وهو لا يدري ماذا قد كتب.

علم الله بمآل المرء إلى شقي أو سعيد هو علم سابق لا سائق:

هناك من يقول: ربما كتبني الله يوم أمر الملك بكتابة رزقي وأجلي وعملي، وشقي أو سعيد، أنني شقي، قلنا له: لماذا تتوقع أنك شقي؟ لماذا لا تتوقع أنك سعيد؟ لِمَ تحتمل الخيار الأسوأ ما دامت القضية محتملة؟

ومعنىٰ الكتابة هنا أي: سبق العلم لا الإلزام؛ لأن الكتابة كما يقول العلماء سابقة لا سائقة، يعني: أن الله علم أنك سوف تأتي وتفجر، وتكون نهايتك بعد فجورك النار، فكتب أنك شقي، وليس معنىٰ هذا أن الله كتبك أنك شقي أنك لا تستطيع أن تطيع الله، فسبق العلم صفة من صفات الله، إذ أن الإنسان إذا كان لا يعلم الذي في المستقبل والله لا يعلم، ففي هذه الحالة سيستوي الإنسان مع الله؛ وهذا محال، من الذي يعلم ما الذي يصير غدًا؟

إنه الله، هذه صفة كمال في الرب؛ أنه يعلم ما سيحدث في المستقبل، فالله يعلم أنه سيأتي أحد من الناس ويعيش، ويكون عمله سيئًا وتكون نهايته أن يكون شقيًا، فكتب عليه علمًا وأزلًا أنه سيكون شقيًا بما علمه الله من عمله، لا بما جبره الله وألزمه أنه لا يكون إلا عاصيًا، فهذا يقول: ربما أن الله كتب عليَّ أن أكون شقيًا، ولهذا أصبح مع الأشقياء، أتعرفون ما مَثَلُ هذا؟

- **مثال توضيحي:**

مدرس دخل علىٰ طلابه، من أول العام الدراسي، وبدأ يصنفهم إلىٰ مجموعات وفئات: الجيدين يضعهم في الوراء، والكسالىٰ يقربهم منه من أجل أن يعطيهم مزيدًا من الاهتمام، ويركز عليهم، حتىٰ ينتشلهم من وضعهم، إلىٰ وضع أحسن، وبعد ذلك دخل عليه يومًا من الأيام مدير المدرسة، واختبر الطلاب ورأىٰ مستواهم، انبسط، وقال له: كم عندك من الطلبة؟ قال: ثلاثون طالبًا، قال: كم تتوقع نسبة النجاح فيها، وكم تتوقع نسبة الرسوب؟ فالمدرس بحكم معرفته -قد درسهم وعرفهم واحدًا واحدًا، وعرف الطيب والبطال- قال: أتوقع أن ينجح ثمانية وعشرون طالبًا، وهناك اثنان ربما رسبوا، وهو يعرفهم المدرس، فواحد من طلاب الفصل، لما سمع الكلمة، ترك المذاكرة والدروس، ولما جاء آخر السنة وسقط، قالوا له: مالك سقطت؟

قال: إن المدرس قال في أول السنة: إن هناك اثنين سيسقطون، فتوقعت أني واحدٌ منهم، فلم أتعب نفسي بالمذاكرة، وبعد ذلك أسقط في آخر السنة، ما دام أن هناك اثنين سيسقطون ربما أني منهم!

لماذا ما يمكن أن تكون من الثمانية والعشرين الذين سينجحون؟ لكن انهزام الإنسان أمام شهواته، وحبه للخلود والراحة والأغاني، والأكلات والنومات والتمشيات، هذا يجعله يقول ربما أكون شقيًا، لكن لو أنه أخذ بالعزيمة واحتمل أن يكون -إن شاء الله- سعيدًا، وبعد ذلك كون الإنسان شقيًا أو سعيدًا في الأزل، هذا ليس من اختصاصنا، هذه ليست داخلة في دائرة

اهتماماتنا، ما هو اختصاصك أنت؟ اختصاصك أن تطيع الله ولا تعصه فقط، وعندك يقين بعد هذا أن الله لا يظلم مثقال ذرة.

أما أن تجلس وتبحث في علم الله، وماذا كتبتني يا رب، شقيًا أم سعيدًا؟

هذا ليس من شأنك، أنت عبد خلقك الله لعبادته، وبين لك الطريق إليه، وأعطاك القدرة علىٰ السير في الطريق، سر في الطريق، فعندك عقيدة ومن ضمن صفات الله العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

لا يضيع الله عملَ عامل، فقط امش في الخط الصحيح، واعمل عملًا ووفر فيه شروطَ القبول، وهي: الإخلاص لله، والمتابعة لهدي رسول الله ﷺ.

وابتعد عن شيء ثالث مهم يهمله الناس، لا ينفعك العمل في الآخرة إلا بانتفاء الموانع وإبعاد المبطلات؛ لأنك قد تعمل عملًا صالحًا، أردت به وجه الله مخلصًا، وسرت به علىٰ هدي رسول الله مقتديًا، ولكن بعدما فعلته أبطلته ونسفته، بمبطلات كالشرك، والرياء، والمنّ والأذىٰ وغير ذلك.

- تعمل عملًا حسنًا؛ لكن بعدما تنتهي ترجع وتنسفه، يعني: كرجل يصلي صلاة حسنة، ثم يذهب يخبر بها الناس، أو يرائي بها فإنه ينسفها، وأحدهم يتصدق صدقة ويخفيها، وبعد ذلك يذهب ويمنُّ بها فيبطل صدقته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤] تؤذي

هذا كلما تصدقت عليه، أو تمن عليه كلما لقيته، فدورك ومسئوليتك أن تعمل عملًا صالحًا، وتترك السيئات والمعاصي، وبعد ذلك يكون عندك يقين وجزم علىٰ أن الله لا يظلم أبدًا: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر:٢٠].

هذا الجواب للذي يسأل: لو أن الله هداني. فنقول له: قد هداك الله، لكنك لا تريد أن تهتديَ: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ [لقمان:٢٣]، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النمل:٧٠]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨].

تبرؤ الأصحاب والأحباب من المرء يوم القيامة:

إنَّ المصرِّين علىٰ الهلاك الذين شقوا في النار لهم فيها زفير وشهيق: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧] من الذي يرد عنك عذاب الله؟ من الذي يحول بينك وبين ملائكة جهنم؟ من الذي يثبت لك الجسر علىٰ الصراط حتىٰ تمر عليه مطمئنًا؟ من ينفعك: رئيسك؟ قريبك؟ حبيبك؟ أميرك؟ ما ينفعك إلا الله ثم عملك الصالح؛ فتعلق بهذا يا مسكين.

وقــال كــل خليــل كنــت آملــه ... لا ألهينــك إني عنــك مشــغول

أمك التي جعلت جوفها لك حواءً، وثديها لك سقاء، وسهرت عليك الليل، وأزالت عنك القذىٰ والأذىٰ بيمينها التي تأكل بها تأتيك وتقول:

أعندك حسنة يا ولدي؟ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠١] إذا نفخ في الصور تضيع الأنساب، الأم ما عادت أمًا، والأب ما عاد أبًا، والزوجة لم تعد زوجة، والقريب لم يعد قريبًا: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠١] ما الذي ينفع؟: ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٢ - ١٠٣] خسروا أنفسهم، ما خسر المال ولا خسر سيارته، ولا خسر وظيفته، بل خسر نفسه، أولئك الذين نسوا الله فنسيهم، خسروا أنفسهم.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠١ - ١٠٥] وهذا السؤال لكل مصرٍ على المعصية ولكل مصممٍ على الذنب، ولكل متكبرٍ على التوبة والأوبة والرجوع إلى الله: ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٥ - ١٠٦] الشقاوة جلساء السوء الشيخ فلان بن فلان في الجمهورية الفلانية العربية يفتي بجواز الربا، وأخذت بفتواه واكتتبت في بنك كذا، اذهب نادي الشيخ بسلامته واجعله يحاج لك عند الله جل وعلا:

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [النساء:١٠٩].

الشيخ الذي أفتىٰ الناس بجواز الربا إذا جاء يوم القيامة رب العباد يفصل بينهم ويحاسبهم ولا تخفىٰ عليه منهم خافية يقول: يا الله! أنا الذي أفتيتهم، لا.

ما الذي جعلك تترك فتوىٰ الصالحين الأتقياء الأبرار الأطهار الأخيار وتختار فتوىٰ المتلاعبين الذين ربما أفتوا مداهنة للحكام وإرضاء للعوام؟ ﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ ﴾ [المؤمنون:١٠٥- ١٠٦] لكن عندنا طلب ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨ ﴾ [المؤمنون:١٠٧ – ١٠٨].

انتهت القضية فصل الأمر طويت الصحف جفت الأقلام وقف الناس للقضاء ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ ﴾ [المؤمنون:١٠٩ – ١١٠] أولئك المصرون علىٰ الهلاك الذين يستهزئون بدين الله، الذين يستهزئون بالذين نوَّر الله وجوههم بالطاعة، وشرَّف الله جباههم بالسجود، وكرم أنوفهم بالركوع، المستهزئ بهؤلاء ولم يتب من المصرين علىٰ الهلاك: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ

﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].

معاقبة الله للعصاة على ما قدر عليهم لا يتعارض مع عدله:

* عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمَرَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ فِيهِ النَّاسُ وَيَتَكَادَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهِمْ عليه السلام وَاتُّخِذَتْ عَلَيْهِمُ الْحِجَّةُ؟ قُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْهُ فَزَعًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا هُوَ خَلْقُهُ وَمِلْكُ يَدِهِ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، قَالَ: سَدَّدَكَ اللهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلًا مِنْ مُزَيْنَةَ أَوْ جُهَيْنَةَ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهِمْ وَاتُّخِذَتْ عَلَيْهِمِ الْحِجَّةُ؟ قَالَ: «**بَلْ فِي شَيْءٍ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ**» قَالَ: فَفِيمَ نَعْمَلُ؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ اللهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَىٰ الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا**» وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس:٧، ٨]. (١)

• **والد شقي وولد سعيد: عكرمة بن أبي جهل:**

* عَنْ أَبِي حَبِيبَةَ مَوْلَىٰ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ هَرَبَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَخَافَ أَنْ يَقْتُلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ،

(١) مسند الروياني: (١/ ١٢١)، ومسند أبي داود الطيالسي: (٢/ ١٧٩).

فَجاءَتْ زَوْجَتُهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ أُمُّ حَلِيمٍ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ امْرَأَةً لَهَا عَقْلٌ، وَكَانَتْ قَدِ اتبعت رسول الله ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ ابْنَ عَمِّي عِكْرِمَةَ قَدْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَىٰ الْيَمَنِ، وَخَافَ أَنْ تَقْتُلَهُ فَأَمِّنْهُ، قَالَ: «**قَدْ أَمَّنْتُهُ بِأَمَانِ اللهِ، فَمَنْ لَقِيَهُ فَلا يَعْرِضْ لَهُ**» فَخَرَجَتْ فِي طَلَبِهِ، فَأَدْرَكَتْهُ فِي سَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ تِهَامَةَ وَقَدْ رَكِبَ الْبَحْرَ، فَجَعَلَتْ تُلَوِّحُ إِلَيْهِ وَتَقُولُ: يَا بن عَمٍّ، جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ أَوْصَلِ النَّاسِ، وَأَبَرِّ النَّاسِ، وَخَيْرِ النَّاسِ، لا تُهْلِكْ نَفْسَكَ وَقَدِ اسْتَأْمَنْتُ لَكَ فَأَمَّنَكَ، فَقَالَ: أَنْتِ فَعَلْتِ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا كَلَّمْتُهُ فَأَمَّنَكَ، فَرَجَعَ مَعَهَا، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: «**يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا فَلا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت**».

قَالَ: فَقَدِمَ عِكْرِمَةُ فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ بَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَزَوْجَتُهُ مَعَهُ مُتَنَقِّبَةً، قَالَ: فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ فَدَخَلْتُ فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِقُدُومِ عِكْرِمَةَ، فَاسْتَبْشَرَ وَوَثَبَ قَائِمًا عَلَىٰ رجليه وما علىٰ رسول الله ﷺ رِدَاءٌ فَرِحًا بِعِكْرِمَةَ، وَقَالَ: أَدْخِلِيهِ، فَدَخَلَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ هَذِهِ أَخْبَرَتْنِي أَنَّكَ أَمَّنْتَنِي، فقال رسول الله ﷺ: «**صَدَقَتْ وَأَنْتَ آمِنٌ**»، قَالَ عِكْرِمَةُ: فَقُلْتُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَقُلْتُ: أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ، وَأَصْدَقُ النَّاسِ، وَأَوْفَىٰ النَّاسِ، أَقُولُ ذَلِكَ وَإِنِّي لَمُطَأْطِئُ الرَّأْسِ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَيْتُكَهَا أَوْ مَرْكَبٍ أُوضِعْتُ فِيهِ أُرِيدُ بِهِ إِظْهَارَ الشِّرْكِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهمّ اغْفِرْ لِعِكْرِمَةَ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، أَوْ نَطَقَ بِهَا أَوْ مَرْكَبٍ أُوضِعَ فِيهِ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّ عَنْ سَبِيلِكَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِخَيْرِ مَا تَعْلَمُ فَأَعْمَلَهُ، قَالَ: «**قُلْ أَشْهَدُ أَنَّ**

لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَجَاهِدْ فِي سَبِيلِهِ» ثُمَّ قَالَ عِكْرِمَةُ: أَمَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لا أَدَعُ نَفَقَةً كُنْتُ أَنْفَقْتُهَا فِي صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلا أَنْفَقْتُ ضِعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا قِتَالا كُنْتُ أُقَاتِلُ فِي صَدٍّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلا أَبْلَيْتُ ضِعْفَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي الْقِتَالِ حَتَّىٰ قُتِلَ شَهِيدًا يَوْمَ أَجْنَادِينَ فِي خِلافَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ. (١)

* **قَالَ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ:** قَاتَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَوَاطِنَ وَأَفِرُّ مِنْكُمُ الْيَوْمَ؟ ثُمَّ نَادَىٰ: مَنْ يُبَايِعُ عَلَىٰ الْمَوْتِ؟ فَبَايَعَهُ عَمُّهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وَضِرَارُ بْنُ الأَزْوَرِ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ وَفُرْسَانِهِمْ، فَقَاتَلُوا قُدَّامَ فُسْطَاطِ خَالِدٍ حَتَّىٰ أُثْبِتُوا جَمِيعًا جِرَاحًا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ مِنْهُمْ ضِرَارُ بْنُ الأَزْوَرِ رضي الله عنه.

وَقَدْ ذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُمْ لَمَّا صُرِعُوا مِنَ الْجِرَاحِ استسقوا ماء فجيء إِلَيْهِمْ بِشَرْبَةِ مَاءٍ فَلَمَّا قُرِّبَتْ إِلَىٰ أَحَدِهِمْ نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليها، فَلَمَّا دُفِعَتْ إِلَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ الآخَرُ فَقَالَ: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم مِنْ وَاحِدٍ إِلَىٰ وَاحِدٍ حَتَّىٰ مَاتُوا جَمِيعًا وَلَمْ يَشْرَبْهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ، رضي الله عنهم أجمعين. (٢)

فانظر كيف مات أبو جهل كافرًا، وكيف مات ولده شهيدًا مسلمًا رضي الله عنه، وهذا فيه تأكيد لقضيتنا التي نحن بصددها فالخلق وصفهم الطاعة كما وصفهم المعصية. فنسأل الله أن نكون من أهل طاعته.

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٤/ ١٥٥/ ١٥٦).
(٢) البداية والنهاية: (٧/ ١٥).

بصيرة في تعب السعداء وتعب الأشقياء

إن التعب لا بد منه في حياة الإنسان فقد خلق الإنسان مفطورًا على الكدح والنصب، وفرق - وأي فرق- بين تعب المؤمنين السعداء في حالهم ومآلهم وبين تعب العصاة الأشقياء في حالهم ومآلهم، وهذا الفرق ملحوظ في عدة جوانب إنما يلمسها من نوَّر الله بصيرته، وفي هذه البصيرة نبذه جليلة منها.

التعب من ضرورات الحياة:

هناك حقيقة مهمة لا بد من التذكير بها، وهي أن الله ﷻ حين خلق الخلق كتب عليهم أنهم لا بد أن يتعبوا في هذه الدنيا، ويلقوا فيها من الكد والكدح والكبد ما يلقون، فمقل ومستكثر، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد:٤]، قَالَ يَمَانٌ: لَمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقًا يُكَابِدُ مَا يُكَابِدُ ابْنُ آدَمَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَضْعَفُ الْخَلْقِ. قَالَ عُلَمَاؤُنَا: أَوَّلُ مَا يُكَابِدُ قَطْعَ سُرَّتِهِ، ثُمَّ إذا قُمِطَ قِمَاطًا، وَشُدَّ رِبَاطًا، يُكَابِدُ الضِّيقَ وَالتَّعَبَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الِارْتِضَاعَ، وَلَوْ فَاتَهُ لَضَاعَ، ثُمَّ يُكَابِدُ نَبْتَ أَسْنَانِهِ، وَتَحَرُّكَ لِسَانِهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْفِطَامَ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنَ اللِّطَامِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْخِتَانَ، وَالْأَوْجَاعَ وَالْأَحْزَانَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْمُعَلِّمَ وَصَوْلَتَهُ، وَالْمُؤَدِّبَ وَسِيَاسَتَهُ، وَالْأُسْتَاذَ وَهَيْبَتَهُ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ التَّزْوِيجِ وَالتَّعْجِيلَ فِيهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الْأَوْلَادِ، وَالْخَدَمِ وَالْأَجْنَادِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الدُّورِ، وَبِنَاءِ

الْقُصُورِ، ثُمَّ الْكِبَرَ وَالْهَرَمَ، وَضَعْفَ الرُّكْبَةِ وَالْقَدَمِ، فِي مَصَائِبَ يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا، وَنَوَائِبَ يَطُولُ إِيرَادُهَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ، وَوَجَعِ الْأَضْرَاسِ، وَرَمَدِ الْعَيْنِ، وَغَمِّ الدَّيْنِ، وَوَجَعِ السِّنِّ، وَأَلَمِ الْأُذُنِ. وَيُكَابِدُ مِحَنًا فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ، مِثْلَ الضَّرْبِ وَالْحَبْسِ، وَلَا يَمْضِي عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلَّا يُقَاسِي فِيهِ شِدَّةً، وَلَا يُكَابِدُ إِلَّا مَشَقَّةً، ثُمَّ الموت بعد ذلك كله، ثم مسألة الْمَلَكِ، وَضَغْطَةَ الْقَبْرِ وَظُلْمَتَهُ، ثُمَّ الْبَعْثَ وَالْعَرْضَ عَلَىٰ اللهِ، إِلَىٰ أَنْ يَسْتَقِرَّ بِهِ الْقَرَارُ، إِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَإِمَّا فِي النَّارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَمَّا اخْتَارَ هَذِهِ الشَّدَائِدَ. (١)

ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق:٦]، ويقول تعالىٰ - مخاطبًا آدم عليه السلام -: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه:١١٧].

فالحياة الدنيا لا بد فيها من التعب والجهد، يستوي في ذلك المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والذكر والأنثىٰ، والغني والفقير، وسائر طبقات الناس، كل منهم لا بد أن يكون له نصيبه من التعب، ولكن هذا التعب يتفاوت من شخص لآخر - كما سيظهر جليًّا في هذه البصيرة.

كما أنه من المعلوم أن الناس ينقسمون نتيجة لهذا التعب إلىٰ قسمين: فواحد يتعب ويشقىٰ لإسعاد نفسه، وفكاكها، وإعتاقها، وآخر يتعب ويشقىٰ في سبيل تكبيل نفسه بالقيود، وإيباقها، وإتعاسها، وإشقائها.

---

(١) تفسير القرطبي: (٢٠/ ٦٢/ ٦٣).

إذًا فالإنسان لا بد أن يكون من أحد فئتين: إما من الأشقياء وإما من السعداء.

والفرق بينهما كبير، يقول الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥]، ليس هناك حل ثالث الذي لا يكون سعيدًا فهو شقي.

هذا الشقاء وهذه السعادة هي نتيجة عمل الإنسان في هذه الدنيا، هذا الجهد الذي يبذله الإنسان علىٰ ظهر الأرض، هذا العمل الذي لا بد أن يبذله كل إنسان، نتيجته أن يكون المرء شقيًا أو سعيدًا.

وقد أبرز النبي ﷺ هذه الحقيقة، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١).

تأمل وتفكر في معنىٰ هذه الكلمة الأخيرة: (**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو**) الأصل أن كل الناس يشتغلون، ويتحركون، كل الناس يغدون، لكن نتيجة هذا الغدو، نتيجة هذا العمل، نتيجة هذا الكد تختلف، (**فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا**) أي بالطاعات، فهذا هو الذي يغدو في طاعة الله، يتعب في عبادة الله، يصرف جهده وهمه في سبيل مرضاة الله، فهذا قد أعتق نفسه.

(١) صحيح مسلم: (٢٢٣).

أما الآخر: فهو الذي يغدو في معصية الله، فيوبق نفسه بالمعاصي، ويهلكها بانتهاك الحرمات والمحرمات.

هذه القضية يجب أن تكون واضحة لدىٰ كل فرد منا، إذا كنت تتعب في الطاعة فلا تظنن أن غيرك في المعصية آنس مرتاح، لا يبذل جهدًا ولا كدًا، كل ما تراه من تعب السعداء في الطاعة، فاعلم أن الأشقياء يتعبون أضعاف أضعافه في المعصية.

أهم الفروق بين تعب السعداء وتعب الأشقياء:

لكن شتان بين تعب وتعب ونريد أن نقف باختصار علىٰ أهم الفروق بين تعب السعداء وبين تعب الأشقياء، ولكن قبل ذكر الفوارق نقول:

تعب السعداء مآله إلىٰ النعيم، بخلاف الأشقياء، وهذا هو الفرق الأكبر، وهو: ما يلقاه السعداء في قبورهم من النعيم، ثم ما يلقونه في الآخرة من السعادة والسرور وألوان اللذة؛ التي لا تخطر لهم علىٰ بال.

وأعظم من ذلك كله النظر إلىٰ وجه الله الكريم في جنة عدن، قال الله تعالىٰ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

أما الكفار فهم محرومون من ذلك كله، ومن أعظم الحرمان الذي أصيبوا به: حرمانهم من النظر إلىٰ وجه الله، ولذلك قال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين:١٥]

ليس ذلك فحسب، ليس الأمر هو حرمانهم من النعيم، بل هم يقاسون من ألوان العذاب ما يقاسون، حتىٰ إنهم يطلبون أقل طلب، يطلبون أن

يخفف عنهم يومٌ من العذاب، فلا يجابون إلىٰ ذلك، يطلبون الموت فلا يجابون إلىٰ ذلك، ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

✍ **وكما يقول الشاعر:**

كفىٰ بك داء أن ترىٰ الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف:٧٧-٧٨].

يطلبون أن يخفف عنهم يوم من العذاب: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر:٤٩].

هم لا يستطيعون أن يدعوا، أو يئسوا من الدعاء؛ فصاروا يلتمسون من الخزنة أن يدعوا الله ﷻ أن يخفف عنهم، ما طلبوا أن يقالوا بالكلية، إنما طلبوا التخفيف فقط يومًا من العذاب: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ﴾ [غافر:٥٠]، أي في الدنيا، ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥٠-٥١].

والآن نذكر عدّة فوارق بين تعب وتعب:

١ - الفرق الأول: تعب السعداء في طاعة الله، والأشقياء في معصيته:

تعب السعداء: تعب في طاعة الله ومرضاته، فيحصل التاعب أو العابد فيه

علىٰ الأجر والرضوان من الله تبارك وتعالىٰ، فهو قربة وطاعة.

* ولذلك ذكر الرسول ﷺ الكفارات التي يكفر بها عن الإنسان ما اقترفه من الذنوب والخطايا، عن مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ: احْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّىٰ كِدْنَا نَتَرَاءَىٰ قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيعًا، فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ وَصَلَّىٰ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ فَلَمَّا سَلَّمَ. قَالَ: «**كَمَا أَنْتُمْ عَلَىٰ مَصَافِّكُمْ**». ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا. فَقَالَ: «**إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّىٰ اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ. فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟**(١) **قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا رَبِّ. قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يا رَبِّ، فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ صَدْرِي فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: نَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الْجُمُعَاتِ، وَجُلُوسٌ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ**(٢)**. قَالَ: وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ**

---

(١) الْمَلَأُ الْأَعْلَىٰ: الملائكة.

(٢) المقصود بالْكَرِيهَاتِ يحتمل أحد معنيين:

المعنىٰ الأول: إسباغ الوضوء في حالة حصول ما يكرهه الإنسان، من هم أو غم أو حزن أو مصيبة أو ما أشبه ذلك، ولذلك ورد الأمر لمن غضب أن يتوضأ. فيكون المعنىٰ: أن يتوضأ الإنسان ويفزع إلىٰ الوضوء والصلاة إذا نابه أمر يكرهه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥].

=

الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ. قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ». وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا وَتَعَلَّمُوهَا**».(١)

ولنتأمل قول النبي ﷺ: وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ. نخرج بأن هناك تعبًا ولكنه تعب للسعادة.

....

=والمعنىٰ الثاني: - وهو الأقرب- أن يكون إسباغ الوضوء علىٰ الكرهات، يعني: أن يتوضأ الإنسان للصلوات حتىٰ في حال شدة البرد.

ولذلك جاء في الرواية الأخرىٰ (علىٰ الصبرات) والصبرات: هي جمع صبرة، وهي شدة البرد، فيكون المعنىٰ أن إقدام الإنسان علىٰ الوضوء بالماء البارد في حال شدة البرد علىٰ الرغم من أن نفسه تكره هذا الأمر، إقباله علىٰ هذا الأمر طلبًا لمرضاة الله هو من كفارات الذنوب.

ومثله: المشي إلىٰ المساجد خاصة في الظلمات، وفي شدة البرد - أيضًا- ومثله: حبس النفس عن الخروج من المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

وحرمان الإنسان نفسه مما تحب من الاشتغال بأمور الدنيا ومجالسة الأصحاب والأهل والأولاد وغير ذلك مما تألفه النفوس.

فهذه الأشياء لما كان فيها مشقة علىٰ النفس وتعب وآلام، جعل الله ﷻ فيها كفارةً لذنوب الإنسان، وهذا هو الأمر الأول المتعلق بتعب السعداء، أن تعبهم لا يخلو من أحد حالين: إما تكفير معصية، أو رفع درجة. ولذلك في الحديث الصحيح: «**أن الإنسان إذا مشىٰ إلىٰ المسجد، كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة**».

(١) مسند أحمد: (٢٢١٠٩).

وتعب السعداء هو: تكفير لذنوبهم ورفع لدرجاتهم.

أما تعب الأشقياء، فهو: علىٰ النقيض من ذلك، فهو تكثير لذنوبهم وخطاياهم ومزيد إثم لهم، ولذلك لما ذكر الله تعالىٰ الكفار وما أعطوا من المال في هذه الدنيا، قال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

وفي الآية الأخرىٰ - لما ذكر الإملاء لهم- قال: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا**﴾ [آل عمران:١٧٨].

وفرق بين إنسان يتعب في طاعة الله، وآخر يتعب في معصية الله، إنسان يتعب في فكاك نفسه، وآخر يتعب في رق نفسه وإيباقها، هذا هو الفرق الأول.

٢ - الفرق الثاني: تعب السعداء يصحبه لذة وسرور، بخلاف الأشقياء:

إن تعب السعداء لأنه تعب في الطاعة يلقىٰ السعداء في الدنيا العاجلة قبل الآجلة، في قلوبهم من السرور والنعيم - الناتج عن معاناة التعب في طاعة الله- يلقون ما يزيل عنهم هذا التعب، بل ما يحول تعبهم إلىٰ لذة وسرور.

ولذلك الإنسان قد يقاسي قيام الليل - مثلًا- وخاصة في بداية توجهه لهذه العبادة، ويجد مشقة في هذا الأمر، ولكن بعد ما يتدرب علىٰ هذا الأمر ويعتاد؛ تألفه نفسه، حتىٰ يصبح يجد من اللذة بالقيام ومواجهة البرد الشديد والوضوء بالماء البارد، ثم الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ، ومناجاته بالعبادة بالقرآن وبالذكر وبالدعاء، يجد من اللذة في ذلك ما لا يجده غيره من اللاهين واللاعبين والنائمين.

✍ **حتىٰ إن بعض العلماء يقول:** (إن لي وردًا بعد صلاة الفجر حتىٰ ترتفع الشمس من القرآن والذكر ومناجاة الله ﷻ- لو لم أقم به ما استطعت أن أقوم بأعمالي في سائر يومي).

فهو يجد لهذا الورد من الأثر المقوي لقلبه ولنفسه والدافع له ما يشعر بأنه لو تخلف عن ورده لسبب أو لآخر؛ لعجز عن القيام بأعماله الأخرىٰ من أعمال العبادة والدعوة والعلم والتعليم، ومن أعماله الدنيوية التي لا بد له منها.

ولا يخفىٰ علينا قول القائل: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

فالسعداء يتعبون في العبادة فيجدون لذة العبادة عاجلًا غير آجل، وهذه اللذة التي يجدونها إنما هي عُرْبون للسعادة الأخروية التي وعدوا بها.

ولذلك وعد الله سبحانه وتعالىٰ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكرانًا وإناثًا بأن يحييهم حياة طيبة، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] فهذا من الحياة الطيبة التي وُعِدَ بها المؤمنون.

أما الأشقياء والتعساء: فإنهم لا يجدون في قلوبهم نتيجة تعبهم إلا الشقاء والكبد والتعب!

٣ - الفرق الثالث: تعب السعداء مؤقت ينتهي بالموت، بخلاف الأشقياء:

تعب السعداء مؤقت، فهو ينتهي بالموت، حيث يجد الإنسان عند

الموت من التثبيت والبشرىٰ إن كان من المؤمنين ما بينه الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

أما الأشقياء فإنهم علىٰ شقاوتهم في الدنيا يجدون عند الموت من النذر والعلامات علىٰ شقاوتهم ما يجعلهم يموتون شر ميتة، ثم يجدون في قبورهم وفي الآخرة ما يصدق ذلك.

والحياة الدنيا مهما تطل فهي قصيرة، وهذا وحده كاف في أن يجعل الإنسان يشعر أنه -ولو أطبقت عليه الشقاوة في الدنيا من كل جانب- ما دامت هذه الشقاوة تنتهي بالموت، فإنها تحتمل في سبيل الله ﷻ.

ولذلك فإن الإنسان عند الموت لا بد أن يشعر بالألم والندم، فإن كان مؤمنًا ندم ألا يكون ازداد، وإن كان فاسقًا أو عاصيًا ندم ألا يكون نزع من معصيته.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥٢].

ولذلك فإن الإنسان في يوم القيامة يستقل كل تعب لقيه في سبيل الله ﷻ،

حتىٰ إنه لو قضىٰ حياته كلها في شقاء وفي ألم، ويضرب بالسياط ويواجه ألوان المذلة في سبيل الله، إنه يستقل ذلك إذا رأىٰ ثوابه يوم القيامة، ولذلك ورد في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**».(١)

صبغة واحدة في النعيم أنست المطيع كل شقاء الدنيا، وصبغة واحدة في العذاب أنست العاصي جميع لذات الدنيا، وهذا هو القول المبين الذي لا شك فيه ولا امتراء.

فكل ما تلقاه - أيها المطيع- في سبيل الله فهو هين في جنب الله ﷻ، وهين بالقياس إلىٰ ما سلمت منه من العذاب، وهين بالقياس إلىٰ ما لقيته من النعيم.

٤ - الفرق الرابع: السعيد يجد من توفيق الله ما ينسيه هذا التعب، بخلاف الشقي:

إن المطيع والسعيد يجد في الدنيا من توفيق الله ﷻ له وتيسيره ما ينسيه هذا الشقاء، فهو ممن تكفل الله ﷻ بدفع كربتهم وإزالة غربتهم.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٨٠٧).

ولذلك لما جهر الرسول ﷺ بدعوته في مكة، ورمته قريش عن قوس واحدة، وأساءت إليه، قيض الله ﷻ له عمه أبا طالب، فكان يدفع عنه ويحميه ويقف دونه، حتىٰ يقول في قصيدته المشهورة مخاطبًا قريشًا، ومبينًا استعداده للدفاع عن النبي ﷺ بالنفس والمال والأهل والولد، يقول:

كذبتم وبيتِ الله- نبزىٰ محمدًا ... ولما نُطَاعِنْ دُونَهُ ونُنَاضِلِ
ونُسْلِمَهُ حَتيَّ نُصَرَّعَ حوله ... ونُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائلِ

رجل كافر يعلن أمام الملأ من قريش أنه لا يمكن أن يسلم إليهم النبي ﷺ حتىٰ يقتل دونه، ويذهل عن أولاده وعن أزواجه وعن أمواله، وهو كافر! لكنَّ الله سخره لنبيه ﷺ.

وهكذا أصحابه كان الله يقيض لهم من يحميهم ويجيرهم، كما قيض الله ابن الدغنة والمطعم بن عدي وغيرهم من كفار قريش لحماية أصحابه.

ثم لما ذهب الصحابة المهاجرون إلىٰ الحبشة قيض الله ﷻ لهم النجاشي حال كفره - ثم هداه الله للإسلام - فحماهم حتىٰ كان يقول لهم: (اذهبوا فأنتم شيوم(١) في الأرض من سبكم غرم من سبكم غرم من سبكم غرم (ثلاثا) ما أحب أن لي دبرًا(٢) وأني آذيت رجلا منكم.(٣) ورَدَّ رسولي قريش اللذين جاءا في طلبهم.

ثم قيض لهم الأنصار الذين عقدوا البيعة علىٰ استقبالهم، وآثروهم

(١) الشيوم: الآمنون في الأرض.
(٢) الدبر بلسانهم: الذهب.
(٣) صحيح السيرة النبوية: (ص: ١٧٦).

بالأموال والزوجات، وبذلوا في سبيل نصرتهم وإيوائهم ما ذكره الله ﷻ بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر:٩].

وهذا ليس خاصًّا بأصحاب محمد ﷺ، بل تجد من العلماء والدعاة من قيض الله ﷻ له - سواء من المؤمنين أو من الكفار أحيانًا- من يعينه وينصره.

قصة ابن تيمية مع قازان التتري:

يذكر التاريخ عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أن قازان التتري لما هجم علىٰ بلاد المسلمين وأهلك الأخضر واليابس والحرث والنسل والبلاد والعباد، اتفق مجموعة من مشايخ الشام علىٰ الخروج إليه ومحادثته، ومحاولة أخذ الأمان لأهل الشام منه.

والقصة رواها ابن كثير عن الشَّيخ الصَّالِح العَابِدِ النَّاسِكِ الورعِ الزاهدِ القدوةِ عمرَ بنِ السَّيِّدِ الْقُدْوَةِ النَّاسِكِ الْكَبِيرِ الْعَارِفِ أَبِي بَكْرِ بْنِ قَوَامِ بْنِ عَلِيِّ ابْنِ قَوَامٍ الْبَالِسِيُّ.

يقول ابن كثير: وَكَانَ[1] يَوْمَ قَازَانَ فِي جُمْلَةِ من كان مع الشيخ تقي الدين بن تَيْمِيَّةَ لَمَّا تكَلَّمَ مَعَ قَازَانَ، فَحَكَىٰ عَنْ كَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ تَقِيِّ الدِّينِ لِقَازَانَ وَشَجَاعَتِهِ وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه قل للقان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقَاضٍ وإمام وشيخ علىٰ ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا

(١) يعني الشَّيْخُ عُمَرَ بْنِ السَّيِّدِ أَبِي بَكْرِ بْنِ قَوَامِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ قَوَامٍ الْبَالِسِيُّ.

علىٰ ماذا؟

وأبوك وجدك هلاكو كَانَا كَافِرَيْنِ وَمَا غَزَوَا بِلَادَ الْإِسْلَامِ، بَلْ عاهدوا قومنا، وَأَنْتَ عَاهَدْتَ فَغَدَرْتَ وَقُلْتَ فَمَا وَفَّيْتَ.

قَالَ: وجرت له مع قازان وقطلو شاه وَبُولَايْ أُمُورٌ وَنُوَبٌ، قَامَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِيهَا كُلِّهَا لله، وَقَالَ الْحَقَّ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ﷻ. قَالَ وَقُرِّبَ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ طعاما فَأَكَلُوا مِنْهُ إِلَّا ابْنَ تَيْمِيَّةَ فَقِيلَ لَهُ أَلَا تَأْكُلُ؟

فَقَالَ: كَيْفَ آكُلُ مِنْ طَعَامِكُمْ وَكُلُّهُ مِمَّا نَهَبْتُمْ مِنْ أَغْنَامِ النَّاسِ وَطَبَخْتُمُوهُ بِمَا قَطَعْتُمْ مِنْ أَشْجَارِ النَّاسِ، قَالَ ثُمَّ إِنَّ قَازَانَ طَلَبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ فَقَالَ فِي دعائه: «اللَّهمّ إن كان هذا عبدك مَحْمُودٌ إِنَّمَا يُقَاتِلُ لِتكُونَ كَلِمَتُكَ هِيَ الْعُلْيَا وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لَكَ فَانْصُرْهُ وَأَيِّدْهُ وَمَلِّكْهُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَطَلَبًا لِلدُّنْيَا وَلِتكُونَ كَلِمَتُهُ هِيَ الْعُلْيَا وليذل الإسلام وأهله فاخذ له وَزَلْزِلْهُ وَدَمِّرْهُ وَاقْطَعْ دَابِرَهُ».

قَالَ: وَقَازَانُ يُؤَمِّنُ علىٰ دعائه، ويرفع يديه.

قال: فجعلنا نجمع ثِيَابَنَا خَوْفًا مِنْ أَنْ تَتَلَوَّثَ بِدَمِهِ إِذَا أَمَرَ بِقَتْلِهِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ قَاضِي الْقُضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ ابْنُ صَصْرَىٰ وَغَيْرُهُ: كِدْتَ أَنْ تُهْلِكَنَا وَتُهْلِكَ نَفْسَكَ، وَاللهِ لَا نَصْحَبُكَ مِنْ هُنَا، فَقَالَ: وَأَنَا وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا عُصْبَةً وَتَأَخَّرَ هُوَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أصحابه،، فتسامعت به الخواقين وَالْأُمَرَاءُ مِنْ أَصْحَابِ قَازَانَ فَأَتَوْهُ يَتَبَرَّكُونَ بِدُعَائِهِ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَىٰ دِمَشْقَ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، قَالَ وَاللهِ مَا وَصَلَ إِلَىٰ دِمَشْقَ إِلَّا

فِي نَحْوِ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ فِي رِكَابِهِ، وَكُنْتُ أَنَا(١) مِنْ جُمْلَةِ مَنْ كَانَ مَعَهُ، وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَصْحَبُوهُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنَ التَّتَرِ فَشَلَّحُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ. (٢)

الحسن البصري والشعبي مع ابن هبيرة:

دعا عمر بن هبيرة كلا من الحسن البصري وعامر بن شراحيل المعروف بالشعبي وقال لهما: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك قد استخلفه الله علىٰ عباده وأوجب طاعته علىٰ الناس، وقد ولَّاني ما ترون من أمر العراق، ثم زادني فولاني فارس، وهو يرسل إليَّ أحيانا كتبا يأمرني فيها بإنفاذ ما لا أطمئن إلىٰ عدالته، فهل تجدان لي في متابعتي إياه وإنفاذ أوامره مخرجا في الدين؟

فأجاب الشعبي جوابًا فيه ملاطفة للخليفة، ومسايرة للوالي، والحسن ساكت، فالتفت عمر بن هبيرة إلىٰ الحسن وقال: وما تقول أنت يا أبا سعيد؟

فقال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد.

ولا تخف يزيد في الله.

واعلم أن الله جل وعز يمنعك من يزيد.

وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يا ابن هبيرة إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك هذا، وينقلك من سعة قصرك إلىٰ ضيق قبرك،

---

(١) المتكلم: الشَّيْخُ عُمَرَ بْنِ السَّيِّدِ أَبِي بَكْرِ بْنِ قَوَامِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ قَوَامٍ الْبَالِسِيُّ.
(٢) البداية والنهاية: (١٤/ ١٠١-١٠٢).

حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.

يا ابن هبيرة إنك إن تك مع الله تعالىٰ وفي طاعته يكفك بائقة يزيد.

واعلم يا ابن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق - كائنًا من كان- في معصية الخالق ﷯.

فبكىٰ عمر بن هبيرة حتىٰ بلت دموعه لحيته، ومال عن الشعبي إلىٰ الحسن، وبالغ في إكرامه.

فلما خرجا من عنده توجها إلىٰ المسجد، فاجتمع عليهما الناس، وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع الأمير، فالتفت الشعبي إليهم وقال: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله ﷻ علىٰ خلقه في كل مقام فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما قال الحسن لعمر بن هبيرة لا أجهله، ولكني أردت فيما قلته ابن هبيرة، وأراد فيما قاله وجه الله، فأقصاني الله من ابن هبيرة وأدناه منه وحببه إليه. (١)

وهذا أنموذج للتعب الذي يبذله السعداء فيقيض الله ﷻ لهم في الدنيا من يعينهم وينصرهم ويذهب عنهم آثار هذا التعب. وهكذا كل تعب يبذله الإنسان في سبيل الله فإنه يلقي جزاءه عاجلًا غير آجل.

---

(١) صور من حياة التابعين ١٠٦، ١٠٧. موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (١/ ٢٤٤).

بصيرة في العمـل

تلازم الإيمان مع العمل في القرآن:

حين نقرأ القرآن الكريم نجد أنه قد أولىٰ هذا الأمر عنايةً وجعله مطلبًا أساسًا، فالإيمان لا بد من اقترانه بالعمل الصالح [(١)]، يقول تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾

---

(١) ولا شك أن ذكر الإيمان مجردًا يدخل فيه العمل الصالح، فالنبي ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَرْفَعُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**». والله ﷻ قال في شأن الذين ماتوا وقد صلوا إلىٰ بيت المقدس: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلىٰ بيت المقدس. فالعمل إيمان والإيمان لا يتم مطلقًا ولا يصح إلا مع العمل، ومع أن الإيمان عندما يطلق لا يعني إلا ذاك الإيمان المرتبط بالعمل.

[البقرة: ٢٧٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: ٥٧].

وهكذا نجد في أكثر من خمسين موضعًا من القرآن أن العمل الصالح يعطف علىٰ الإيمان وما ذلك إلا تأكيدٌ علىٰ هذا الأصل الأصيل، ألا وهو العمل، فالإيمان أول واجب علىٰ المكلف، وهو لا يمكن أن يكون مجرد شعور قلبي يتوجه المرء فيه بقلبه فقط، ولا يمكن أن يكون مجرد كلمة تقال باللسان فما لم يصحبه العمل ناقص مصاب بالخلل.

الإيمان الخالي عن العمل دعوى فارغة:

الإيمان في القرآن حين لا يصاحبه عمل يصبح دعوىٰ فارغة لا يحق لصاحبها أن يدعيه قال تعالىٰ: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤- ١٥].

إنه لا يحق لكم أن تدَّعوا الإيمان ولا يحق لكم أن تقولوا آمنا لأنكم لمَّا تصلوا إلىٰ مرحلة الإيمان بعد، فالمؤمنون الذين يحق لهم أن يتسموا بالإيمان والذين يحق لهم أن يدَّعوا الإيمان هم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥] إيمانًا يقينيًا لا شك فيه، ثم مع ذلك: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] أي: إن الذين يحق لهم أن يدَّعوا الإيمان حقًا هم العاملون الذي قدَّموا أنفَسَ ما يملكون من الأنفس والأموال لله ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

أهل العمل الصالح هم أفضل الناس:

* قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]. وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: ٧].

تعليق الجزاء في الدنيا على العمل:

إننا نقرأ في القرآن الكريم كثيرًا من المصارع التي آلت إليها الأمم

المكذبة والأمم الضالة، ونقرأ التعقيب في آيات القرآن الكريم أن هذا الجزاء الوخيم الذي صار إليه أولئك المكذبون إنما كان في مقابل عملهم السيئ، إذًا: فالعمل هو الذي قادهم إلىٰ هذا المصير المحتوم قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٥٥]

والعمل الصالح يلقىٰ المرء جزاءه في الدنيا بركةً وسعةً في الرزق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] إذًا: فالجزاء بالإحسان أو بالعقوبة في دار الدنيا مرتبط بالعمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وشواهد هذا الأصل في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ أكثر من أن تحصىٰ وأشهر من أن تذكر.

السؤال يوم القيامة عن العمل:

السؤال يوم القيامة والحساب إنما هو علىٰ العمل قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

فحين يُسأَلُ المَرءُ يوم القيامة، وحين يُحَاسَب، وحين يُجَازَىٰ فهو إنما يُحَاسَب ويُجَازَىٰ علىٰ ما قدم من عمل خيرًا كان أو شرًا، فالعمل إذًا هو مناط الحساب، وهو مناط المساءلة، وهو مناط الجزاء بعد ذلك.

الثواب الأخروي على العمل:

الثواب الأخروي وهو الأساس الذي شمر إليه المشمِّرون، والذي تسابق إليه العاملون، وتنافس فيه الصالحون، مرتبط أيضًا بالعمل قال تعالىٰ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

* ويقال لهم هناك: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المرسلات:٤٣] فما فاز من فاز وأفلح من أفلح في دار القرار ودار النعيم المقيم إلا بالعمل، والرصيد الوحيد الذي يؤهله لهذا التكريم ولتلك المكانة إنما هو عمله الصالح.

العقاب الأخروي على العمل:

العقاب الأخروي في نار الجحيم مرتبط أيضًا بالعمل قال تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل:٩٠]، ويقال لهم تبكيتًا وتوبيخًا: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤]، وحين يطالبون بالعودة إلىٰ دار الدنيا - وأنَّىٰ لهم ذلك - فهم إنما يطلبونها لأجل أن

يمكنوا من العمل، لأنهم قد أدركوا قيمة العمل.

حسرة الكافرين على العمل الصالح بعد فوات الأوان:

* قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

إن تلك الدنيا التي كانوا يعيشون فيها من أجل الشهوات الفانية من أجل المال من أجل الجاه، قد زالت وانمحت من ذاكرتهم، فهم يريدون العودة للدنيا لأجل أن يعملوا قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦- ٣٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ﴾ [الأعراف:٥٣].

التفكر في آيات الله لا بد أن يثمر العمل:

التفكر في آيات الله ﷻ وما يتبعه من مشاعر لا بد أن يتحول إلىٰ رصيد عملي، يقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾

رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

مع هذا التفكير في مخلوقات الله ﷻ، ومع هذا الدعاء، ومع ذكر الله ﷻ قيامًا وقعودًا وعلىٰ الجنوب مع ذلك كله الجزاء مرتبط بالعمل هذا التفكير وهذا الدعاء دعاهم إلىٰ العمل قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وما هو هذا العمل؟ قال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٩٥].

إن الهجرة والإيذاء في سبيل الله ﷻ وما يتبعها إنما هي نتيجة مباشرة لذلك العمل الذي كانوا يقدمونه حين تصدوا لحمل دين الله ﷻ، ودعوة الناس إليه، حتىٰ واجهوا ما واجهوا من قومهم فأوذوا وقاتلوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم لأجل أن يفروا بدينهم من تلك الفتنة التي تعرضوا لها.

إن هذه الهجرة مع أنها عمل، وهذا الإيذاء الذي تعرضوا له مع أنه عمل إلا أنهما أيضًا ناشئان عن عمل وجهد، لن يتعرض للإيذاء ولن يضطر للهجرة إلا ذاك الذي واجه الأعداء بما يكرهون، والذي أعلنها صريحة

مدوية في وجه الأعداء، فاضطر لأن يتحمل الأذىٰ والضيم في سبيل الله ﷻ، ويتبع ذلك بالخروج من تلك الديار وتلك البلاد يفر بدينه من الفتن.

الخوف من الله يقود إلى العمل:

وفي القرآن الكريم أيضًا الوعظ والتأثر به والخوف من الله سبحانه وتعالىٰ لابد أن يقود إلىٰ العمل فينتج رصيدًا عمليا: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ ﴾ [الإنسان:٧ - ١١].

لقد كانوا يخافون من هذا اليوم العبوس القمطرير فماذا كان أثر هذا الخوف وماذا كانت نتيجته؟ لقد دعاهم هذا الخوف وهذا التأثر الذي لمسوه في قلوبهم إلىٰ أن: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ ﴾ [الإنسان:٨ - ١٠] أي: إن الذي دعانا إلىٰ هذا الإنفاق وإلىٰ هذا البذل وهذا العمل إنما هو الخوف من الله سبحانه وتعالىٰ، فالخوف والشعور بخشية الله ﷻ لا بد أن ينتج أيضًا رصيدًا عمليًا: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾ [النحل:٤٩ - ٥٠].

وهذا أيضًا في سائر المشاعر القلبية، فالحب الذي هو شعور من المشاعر القلبية لا بد أن يدفع إلىٰ العمل، فمن يحب الله سبحانه وتعالىٰ لا بد أن تؤثر

هذه المحبة فتتحول إلىٰ محبة لما يحبه الله ﷻ من الأعمال، وبغض لما لا يحبه الله ﷻ من الأعمال، ومحبة لمن يحبه الله سبحانه وتعالىٰ ومن يحب الله، اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقرب إلىٰ حبك.

والرجاء: إن رجاء رحمة الله ﷻ ومغفرته ورضوانه لا بد أن يدفع صاحبه إلىٰ العمل وإلا كان أمنًا من مكر الله سبحانه وتعالىٰ.

وهكذا سائر المشاعر، وسائر ما يجده الإنسان في قلبه من تأثر بما يسمعه من موعظة، أو ما يقرؤه في كتاب الله سبحانه وتعالىٰ لا بد أن يتحول إلىٰ رصيد عملي، وإلا فهي مشاعر غير صادقة، أو قل: إنها مشاعر مرت علىٰ الخاطر عاجلة لم تؤت ثمارها.

مقت القول من غير عمل:

لقد مقت الله ﷻ في القرآن الكريم القول بغير عمل وذمه وعابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٢ - ٣] وأتبعت هذه الآيات بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف:٤] فالله سبحانه وتعالىٰ إنما يحب العاملين إنما يحب المجاهدين الذين يقاتلون في سبيل الله ﷻ الذين يعملون ولا يشغلهم القول عن العمل.

إذًا: هذه شواهد متضافرة من كتاب الله سبحانه وتعالىٰ كلها تدعونا إلىٰ العمل، وكلها تجعل القضية مرتبطة أصلًا بالعمل.

بصيرة في الاصطفاء والاختيار

* قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣].

* وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥].

* وقال الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

الله تبارك وتعالىٰ خلق الخلق، وجعل لكل منهم كمالًا يختص به هو غاية شرفه، فإذا عدم كماله انتقل إلىٰ الرتبة التي دونه، فإن عدم ذلك انتقل إلىٰ ما دونه وهكذا.

حتىٰ إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك والحطب الذي لا يصلح إلا للوقود.

كالفرس إذا كمل أعد لمركب الملوك، وأكرم إكرام مثله.

فإن نقص قليلًا أعد لمن دون الملك، فإن نزل أعد لآحاد الأجناد، فإن تقاصر استعمل استعمال الحمار إما حول المدار، وإما لنقل الزبل، فإذا عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام، وهكذا الآدمي: خلقه الله

عَزَّوَجَلَّ ضعيفا جهولًا.

فإذا كمل وبلغ كماله ذروته صار صالحًا لاصطفاء الله له، فاتخذه رسولًا ونبيًّا فـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فإن كان جوهره قاصرًا عن هذه الدرجة صالحًا لخلافة النبوة رشحه لذلك وبلغه إياه، فإن كان قاصرًا عن ذلك قابلًا لدرجة الولاية رشح لها، وإن كان ممن يصلح للعبادة والعمل دون المعرفة والعلم جعل من أهله، حتىٰ ينتهي إلىٰ درجة عموم المؤمنين.

فإن نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلًا استعمل حطبًا ووقودًا للنار والعياذ بالله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

اصطفاء الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

موسىٰ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اصطنعه الله لنفسه، واصطفاه علىٰ الناس بالرسالة والتكليم، ورباه علىٰ الإيمان والتوحيد، ثم أرسله إلىٰ فرعون، ولكن تلقىٰ قبل ذلك ثلاثة أنواع من التربية وهي: التربية البدنية.. والتربية الأخلاقية.. والتربية الإيمانية.

١ - التربية البدنية:

فموسىٰ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رباه الله في قصر فرعون، وعاش حياة القصور، ورأىٰ الإسراف في ألوان الطعام، وتعلم هناك التربية البدنية، ولذا لما ضرب القبطي

ضربة قتله كما قال سبحانه: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴾ [القصص: ١٥]. وفقأ عين ملك الموت، ورفع الصخرة عن البئر وحده في مدين.

٢ - التربية الأخلاقية:

وفي مدين رباه الله علىٰ حسن الأخلاق مع البهائم، ليتدرب علىٰ حسن الأخلاق مع الناس، فرعىٰ الغنم عشر سنوات في مدين، وما من نبي إلا ورعىٰ الغنم، وفي ذلك حكمة بالغة:

فمزاج الغنم الانتشار لتحصيل المنافع، وكذلك الداعي مزاجه الانتشار لنشر الهداية، ومزاج الراعي جمع الغنم علىٰ الماء والكلأ، ومزاج الداعي جمع الأمة علىٰ الدين والهدىٰ.

ومزاج الراعي الصبر علىٰ الغنم، والشفقة عليها، والرفق بها، ورحمتها والعناية بها، وكذلك الداعي مزاجه الصبر علىٰ الأذىٰ من الناس، والشفقة عليهم من عذاب الله، ورحمتهم والإحسان إليهم.

والراعي يورد الغنم أماكن الماء والعشب والكلأ، ويجنبها ما يتعبها ويشق عليها، وكذا الداعي مزاجه السير بالأمة في سبل النجاة والهدىٰ، وإبعادها عن مواطن الهلكة والردىٰ.

والبيئة مؤثرة، فالذي يرعىٰ الإبل تأتي فيه صفة الكبر، والذي يرعىٰ الغنم تأتي فيه صفة التواضع، لذلك الذي يكون في المسجد تأتي فيه صفة الملائكة الذين: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم: ٦].

ومزاج الراعي أنه يعيش جل وقته في خدمة الغنم وحفظها، وبذل المنافع لها، وكذلك الداعي يعيش كل وقته من أجل هداية البشر إلىٰ الصراط المستقيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣ - **التربية الإيمانية:**

وفي طور سيناء علم الله موسىٰ التربية الإيمانية بقسميها النظري والعملي.

فالنظري كما كلم الله موسىٰ - ﷺ - عند الشجرة، وبين الله له أنه الإله الذي لا إله غيره، وأمره بعبادته وطاعته، وأن الناس راجعون إلىٰ ربهم، وسيحاسبهم علىٰ ما عملوا يوم القيامة، وحذره من ترك ما أمر به، ومن طاعة أهل الكفر والأهواء فقال سبحانه: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٢ - ١٦].

ثم علم الله موسىٰ - ﷺ - الإيمان عمليًا فقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧-١٨].

فالله سبحانه أراد أن يعلم موسىٰ - ﷺ - معنىٰ لا إله إلا الله عمليًا،

فأمره بإلقاء عصاه، فلما ألقاها جاءها أمر الله فورًا فتحولت بأمر الله إلىٰ حية: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٩-٢٠].

فأمره الله بإلقائها وهي نافعة، ثم أمره بأخذها وهي ضارة، تدريبًا له علىٰ الإيمان وتمام الطاعة، ليعلم أن كل شيء بيد الله: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١].

وآية أخرىٰ يراها تجري عمليًا ليعلم بها قدرة الله في التصرف في الأشياء وتبديل أحوالها فورًا: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ٢٢].

ولما عرف حقيقة الإيمان نظريًا وعمليًا أرسله الله إلىٰ فرعون يدعوه إلىٰ الله فقال له ولأخيه هارون عليهما الصلاة السلام: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

فماذا قال موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [طه: ٤٥]. فقال الله لهما: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

فذهب موسىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلىٰ فرعون بهذا اليقين، ودعاه إلىٰ الله: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

فأهلكه الله وأغرقه وقومه في البحر، وأنجىٰ الله موسىٰ وبني إسرائيل كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٦].

اصطفاء الله لعرشه المجيد:

الله تبارك وتعالىٰ هو الخلاق العليم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨].

خلق سبحانه أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها وهو العرش، واختاره فاستوىٰ عليه بأعظم صفة وأوسعها وهي الرحمة، فاستوىٰ جلَّ جلاله علىٰ أعظم المخلوقات بأوسع الصفات وهي الرحمة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه: ٥].

اختيار الله لقلب الإنسان ليكون محلًا لنظره:

واختار قلب الإنسان ليكون محلًا لنظره سبحانه كما قال النبي - ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**.(١)

- **لفتة:**

إن العرش عظيم جدًا، كما أن القلب صغير جدًا، ولكن إذا كانت (لا إله إلا الله) في قلب الإنسان رجح بالسماوات والأرض، وصار ذلك القلب لائقًا

---

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

بجلال الله، كما أن العرش لائق بجلال الله سبحانه لعظمته، وكماله، وخلوه من العيوب.

اختيار الله هذه الأمة:

لقد أكرم الله هذه الأمة فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وأعطاها وظيفة الأنبياء والرسل، وهي الدعوة إلىٰ الله، ومن ورحمة الله بهذه الأمة أن جعلها خير الأمم وآخرها؛ لئلا يطول عليها زمن الانتظار، وجعلها تعمل قليلًا، وتؤجر كثيرًا.

وكشف الله لهذه الأمة أعمال وفضائح وأحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم؛ لتتعظ وتعتبر بمن خالف أمر الله، وتقتدي بمن أطاع الله ورسله.

وستر عيوب هذه الأمة عن الأمم السابقة.

فما أعظم احتفاء الله بهذه الأمة.. وما أشد عنايته بها.. ! فمتىٰ تشكر هذا التشريف والإكرام؟

اصطفاء الله آل إبراهيم على سائر البيوت:

الله جل جلاله كما اصطفىٰ المؤمنين علىٰ سائر البشر، كذلك اصطفىٰ بيت آل إبراهيم علىٰ سائر البيوت.

فهذا البيت المبارك المطهر أشرف بيوت العالم علىٰ الإطلاق، فقد جعل الله فيهم النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم - ﷺ - نبي إلا من أهل بيته، وجعلهم أئمة يهدون بأمره إلىٰ يوم القيامة.

فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم

وبدعوتهم، واتخذ منهم الخليلين إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام.

وجعل سبحانه صاحب هذا البيت وبانيه إمامًا للعالمين كما قال سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأجرىٰ جل جلاله علىٰ يديه بناء بيته العتيق، الذي جعله قيامًا للناس، وقبلة لهم، وحجًا لهم إلىٰ يوم القيامة، فكان ظهور هذا البيت وعمارته من أهل هذا البيت الأكرمين.

وأخرج سبحانه من أهل هذا البيت الأمتين العظيمتين، وهم أمة موسىٰ - ﷺ - وأمة محمد - ﷺ -، وأمة محمد تمام سبعين أمة هم خيرها وأكرمها علىٰ الله سبحانه، وأبقىٰ عليهم لسان صدق وثناء في العالم، فلا يذكرون إلا بالثناء عليهم، والصلاة والسلام عليهم.

وجعل سبحانه خلاص خلقه من شقاء الدنيا والآخرة علىٰ أيدي أهل هذا البيت، فلهم علىٰ الناس من النعم ما لا يمكن إحصاؤها ولا جزاؤها، ولهم المنن الجسام في رقاب الأولين والآخرين من أهل السعادة.

وسد سبحانه جميع الطرق بينه وبين العالمين فلم يفتح لأحد قط إلا من طريقهم وبابهم، وخصهم سبحانه بالعلم بما لم يخص به أهل بيت سواهم من العالمين.

فلم يطرق العالم أهل بيت أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكامه وأفعاله، وثوابه وعقابه، وشرعه ومواقع رضاه وغضبه، ومخلوقاته وملائكته منهم.

فسبحان من جمع لهم علم الأولين والآخرين، وخصهم بالدعوة إلىٰ توحيد الله ومحبته، ومكن لهم في الأرض، واستخلفهم بها، وأطاع لهم أهل الأرض ما لم يحصل لغيرهم.

وأَيَّدهم ونصرهم وأظفرهم بأعدائه بما لم يؤيد غيرهم.

ومحا بهم من آثار أهل الضلال والشرك والآثار التي يبغضها الله ويمقتها ما لم يمحه بسواهم.

وجعل ﷻ آثارهم سببًا لبقاء العالم وحفظه، فلا يزال العالم باقيًا ما بقيت آثارهم في الأرض وشرائعهم.

وأظهر علىٰ أيديهم من بركات الدنيا والآخرة ما لم يظهره علىٰ يدي أهل بيت سواهم كما قال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤].

ومن بركات الله تبارك وتعالى عليهم:

أن أعطاهم ما لم يعط غيرهم.. فمنهم من اتخذه خليلًا كإبراهيم ومحمد - ﷺ - ومنهم الذبيح كإسماعيل - ﷺ - ومنهم الكليم كموسىٰ - ﷺ - ومنهم من آتاه شطر الحسن كيوسف - ﷺ - ومنهم من آتاه ملكًا لم يؤته أحدًا من العالمين كسليمان - ﷺ - ومنهم من رفعه مكانًا عليًا.. وفضلهم علىٰ العالمين.. ورفع الله العذاب العام عن أهل الأرض بهم وببعثتهم.. فأهلكت الأمم السابقة التي عصت بعذاب الاستئصال كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، فلما أنزل الله التوراة والإنجيل والقرآن رفع الله بها العذاب

العام عن أهل الأرض، وأمر بجهاد من خالفهم، فهذه الخصائص وغيرها من آثار رحمة الله وبركاته علىٰ أهل هذا البيت، وقد أمرنا الله ﷻ أن نصلي علىٰ أهل هذا البيت كما صلىٰ الله عليهم وملائكته كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وأمرنا رسول الله - ﷺ - أن نطلب من الله تعالىٰ أن يبارك عليه وعلىٰ آله كما بارك علىٰ أهل هذا البيت المعظم في كل صلاة بقولنا: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**».(١)

فجزىٰ الله أهل هذا البيت عن بريته أفضل الجزاء، وزادهم في الملأ الأعلىٰ تعظيمًا وتشريفًا، وصلىٰ الله وسلم عليهم صلاة دائمة لا انقطاع لها. وهلا نتشبه بأهل هذا البيت، ونقتدي بهم، ونستن بسننهم؟.

اصطفاء الله لمحمد ﷺ ولأمته:

وجعل الله تعالىٰ محمدًا - ﷺ - سيد الأنبياء والرسل، وجعل أمته خير الأمم، واختار منهم السابقين والأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، ووهبهم من العلم والحلم ما لم

---

(١) البخاري: (٣٣٧٠) واللفظ له، ومسلم: (٤٠٦).

يهبه لأمة سواها، واختار لهم أوسط القِبل وأفضلها، وهي الكعبة، وهم أوسط الأمم وخيارهم كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاختار سبحانه أفضل القبل لأفضل الأمم، كما اختار لهم أفضل الرسل، وأفضل الكتب، وأفضل اللغات، وأخرجهم في خير القرون، وخصهم بأفضل الشرائع، ومنحهم خير الأخلاق، وأسكنهم خير الأرض، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل، وموقفهم في القيامة خير المواقف، فهم على تل عالٍ والناس تحتهم.

فسبحان من يختص برحمته من يشاء: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

اختيار الله للبلد الحرام:

واختار سبحانه من الأماكن والبلاد والبقاع خيرها وأشرفها وهي البلد الحرام، وجعل فيها بيته المبارك، ومسجده الحرام، وجعله حرمًا آمنًا، لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد، ولا يختلى خلاه، وجعل قصده مكفرًا لما سلف من الذنوب، وسببًا لدخول الجنة كما قال النبي ﷺ: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ**

جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ».(١)

وجعل الله سبحانه الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، فهو أفضل بقاع الأرض علىٰ الإطلاق، وهو في أم القرىٰ، كما أن الفاتحة أم الكتاب.

اصطفاء الله لبعض الأيام والليالي والشهور:

والله سبحانه فضل بعض الأيام والليالي والشهور علىٰ بعض.

فخير الأيام عند الله يوم النحر يوم الحج الأكبر، وأفضل الليالي ليلة القدر، وأفضل الشهور شهر رمضان، ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم النحر أفضل أيام العام.

اختيار الله من كل جنس أطيبه:

والله تبارك وتعالىٰ خلق جميع المخلوقات، واختار من كل جنس أطيبه، واختصه لنفسه، وارتضاه دون غيره، فإنه تعالىٰ طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من الأقوال والأعمال والكلام والصدقات إلا الطيب.

فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالىٰ: فله من الكلام الكلم الطيب، الذي لا يصعد إلىٰ الله تعالىٰ إلا هو ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ**﴾ [فاطر: ١٠]، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال ﴿**قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ**﴾ [الأعراف: ٢٨]، والتفحش في اللسان، والبذاء والكذب، وكل كلام خبيث.

---

(١) البخاري: (١٧٧٣) واللفظ له، ومسلم: (١٣٤٩).

ولا يحب من الأعمال إلا أطيبها وهي عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه رسوله - ﷺ.

واصطفىٰ سبحانه من الكتب القرآن، واصطفىٰ من الكلام أربعًا، وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد اتخذ الرب تعالىٰ من الجنان دارًا اصطفاها لنفسه، وخصها بالقرب من عرشه فهو سقفها، وهي الفردوس سيدة الجنان.

والله ﷻ يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من المخلوقات البشر، واختار من البشر المؤمنين، واختار الأنبياء والرسل من المؤمنين، واختار من الأنبياء والرسل أولي العزم، واختار من أولي العزم الخليلين إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام.

واختار سبحانه من الملائكة جبريل.. واختار محمدًا - ﷺ - من البشر.. واختار من السموات العلا.. ومن البلاد مكة.. ومن الأشهر المحرم.. ومن الليالي ليلة القدر.. ومن أيام الأسبوع الجمعة.. ومن أيام العام يوم النحر ويوم عرفة.. ومن الليل ثلثه الآخر.. ومن الأوقات أوقات الصلوات الخمس: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. إلىٰ غير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره من اصفاء الله واختياره.

❊

بصيرة في الصحة والمرض

قليل من الناس من يعرف قيمة الصحة والوقت:

من نعم الله العظيمة، ومننه الجليلة التي أنعم بها علىٰ عباده: نعمة الصحة في الأجسام والعافية في الأبدان، وفي الحديث «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**». (١) والمغبون هو المخدوع الخاسر، الذي لم يقدر النعمة قدرها، وفي قوله ﷺ: «**كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**» ما يشير إلىٰ أن الذي يعرف قيمة الصحة والوقت أفراد قليلون.

عظم نعمة الصحة:

وفي الدلالة علىٰ عظم نعمة الصحة مع نعم أخرىٰ غيرها جاء في الحديث: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**». (٢) أي: صارت له الدنيا بأكملها.

الصحة وسيلة يستعان بها على طاعة الله:

نعمة الصحة ليست مجرد أداة لتحصيل المتع الدنيوية واللذات الجسدية أو النفسية، وإنما هي وسيلة يستعين الإنسان بها علىٰ طاعة ربه، ويدرك سر وجوده وغاية خلقه.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤١٢).

(٢) سنن الترمذي: (٢٣٤٦)، صحيح الجامع: (٦٠٤٢).

ويتضح هذا المعنىٰ من خلال ربط القرآن الكريم بالسنة النبوية بين تفضيل الله تعالىٰ علينا بهذه النعم، وضرورة أن يستخدمها المرء في طاعة خالقه.

* يقول ربُّ العزة: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]

* وقال عزَّ من قائل: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ٨ - ١٠].

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ سُلَامَىٰ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَىٰ دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**».(١)

والسلامىٰ: واحد السلاميات وهو المفصل من جسم الإنسان، وعددها كما جاء في بعض الروايات ثلاثمائة وستون مفصلاً(٢)، وعلىٰ كل مفصل من هذه المفاصل صدقة.

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ**

(١) صحيح البخاري: (٤/ ٥٦).

(٢) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ، مَفْصِلًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ**» قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «**النُّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا، وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكْعَتَا الضُّحَىٰ تُجْزِئُكَ**».

عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ». (١)

أصناف البشر مع الصحة:

فإذا حدث أن إنسانًا وهبه الله نعمة الصحة فطغىٰ بها وبغىٰ، وألهته النعمة عن المنعم، صارت في حكم العدم، وأصبح وجودها الماديّ ضرره أكثر من نفعه، وهذا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم.

وفي ضوء هذا المفهوم القرآني نجد أننا أمام عدّة أصناف من البشر إزاء نعمة الصحة في الأجسام، والعافية في الأبدان، وذلك علىٰ النحو التالي:

- **الصنف الأول:**

أنعم الله عليه بنعمة العافية، فاستثمرها في طاعة الله تعالىٰ، وانطلق في أرض الله ينصر المظلوم، ويعين الضعيف، ولا يدع بابًا من أبواب الخير إلا ويلجه، فاستعان بقوته علىٰ طاعة خالقه، وكان لربه شاكرًا، ولفضله ذاكرًا.

- **الصنف الثاني:**

ابتلاه الله ببعض الأمراض أو العاهات لكن قلبه بالله موصول، يؤدي الواجبات بقدر طاقته ويجتنب المعاصي والمحرمات.

وهذا الصنف يرفع الله عنه الحرج فيما يعجز عن القيام به بسبب عاهته أو مرضه. يقول تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

---

(١) سنن الترمذي: (٤/ ١٩٠). صحيح الجامع: (٧٢٩٩ - ٢٥٣٠).

* ويقول ربنا تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١]، ويقول سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥].

- وتعلمنا السنة النبوية أن صبر هؤلاء علىٰ مرضهم وابتلاءاتهم تُرفع به درجاتهم، وتحط بسببه خطيئاتهم، ففي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ**(١) **وَلَا وَصَبٍ**(٢)**، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًىٰ وَلَا غَمٍّ، حَتَّىٰ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».(٣)

- كما تعلمنا السنة أيضًا أن هؤلاء المرضىٰ تكتب أجورهم كالأصحاء سواء بسواء، ويُعاملون بنيّاتهم، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**».(٤)

- وفي حديث آخر قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**».(٥)

---

(١) تعب.

(٢) مرض.

(٣) صحيح البخاري: (٥٦٤١).

(٤) صحيح البخاري: (٢٩٩٦).

(٥) صحيح مسلم: (١٩١١).

• الصنف الثالث:

أنعم الله عليهم بنعمة العافية، فإذا بهم يعطّلونها عن وظيفتها، ويخرجون بها عن إطارها، ويستخدمونها في غير ما خلقت له.

فهؤلاء وإن كانوا أصحاء الأجساد يعتبرهم القرآن الكريم مرضىٰ القلوب، وهذا هو المرض الحقيقي وليس مرض الأجساد.

فالمنافقون الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وقال عنهم في آية أخرىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]

ويحدُّثنا ربُّنا عن الآثار المدمرة لهذا النوع من المرض في أكثر من آية من كتاب الله تعالىٰ.

- هذا المرض هو الذي يحول بين الإنسان وبين الانتفاع بالقرآن، حيث يقول ربُّنا في شأن آياته: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥]

- وهذا المرض هو الذي يجعل أصحابه يوالون أعداء الله تعالىٰ من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، ويبيعون دينهم في سبيل دنياهم، فيقول ربُّنا تبارك وتعالىٰ: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥٢].

- وهذا المرض هو الذي يجعل صاحبه خائر العزيمة، مستسلمًا للهزيمة حين يشتد البأس، مكذبا بوعد الله لنبيّه حين يرىٰ تجمع الأعداء كما في غزوة الأحزاب، كما قال ربّنا تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢]. إلىٰ غير ذلك من المواقف التي حدّثنا عنها ربّنا في كتابه العزيز.

القلب محل نظر الله وليس الجسد:

ونستخلص من هذا أن سلامة الأبدان وقوة الأجسام ليست محلًا لنظر الله تعالىٰ، وإنما نظر الله تعالىٰ إلىٰ القلوب، وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ**» وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَىٰ صَدْرِهِ.(١) وفي رواية له أيضًا: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».(٢) فإذا صحت الأجسام، ومرضت القلوب، فهذا هو الشر الماحق، والداء العضال.

* عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقٍ، عَنْ مُنْذِرٍ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الدَّهَاقِينَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ غِلَظِ رِقَابِهِمْ وَصِحَّتِهِمْ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ الْكَافِرَ مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ جِسْمًا، وَأَمْرَضِهِمْ قَلْبًا، وَتَلْقَوْنَ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ قَلْبًا، وَأَمْرَضِهِمْ جِسْمًا، وَايْمُ اللهِ، لَوْ مَرِضَتْ قُلُوبُكُمْ وَصَحَّتْ أَجْسَامُكُمْ لَكُنْتُمْ أَهْوَنَ عَلَىٰ اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ**»(٣) والجعلان نوع من

(١) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) صحيح مسلم: (٢٥٦٤).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ١٣٥).

الحشرات كالخنفساء.

مرض الجسم لا يحول دون الرُّقي إلى أعلى الدرجات:

في حين أن مرض الأجسام لا يحول فيما بين صاحبه وبين الرُّقيِّ إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وإذا انتهت الدنيا ولقي الإنسان ربَّه ودَّع الدنيا بآلامها وأسقامها، ولقي الله تعالىٰ أصحَّ مما يكون.

* أَتَىٰ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ أُقْتَلَ أَمْشِي بِرِجْلِي هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ؟، وَكَانَتْ رِجْلُهُ عرْجَاءَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ**». فَقَتَلُوهُ يَوْمَ أُحُدٍ هُوَ وَابْنُ أَخِيهِ وَمَوْلًىٰ لَهُمْ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الْجَنَّةِ**».(١)

فليحرص المسلم علىٰ صحة إيمانه كما يحرص علىٰ صحة جسده وليبادر إلىٰ معالجة ما يصيب قلبه من أذىٰ أو سوء، كما يفعل ذلك إذا ألَمَّ به مرض، أو لحقت به آفة، فإن الأجساد مآلها إلىٰ الفناء، ولن يؤنس الإنسان يوم وحدته، ويُضيءُ له يوم ظلمته إلا سلامة قلبه، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

---

(١) مسند أحمد: (٣٧/ ٢٤٧).

بصيرة في الغنى والفقر

أهمية المال:

لا ينكر أحد ما للمال مِن أهمّية تلقِي بظلالها علىٰ حياة الأفراد والمجتمعات، فضرورات الفرد والمجتمعات لا تقوم إلا عليه، ولذا قيل المال عصب الحياة وقال الشاعر:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم ... لم يبن ملك علىٰ جهل وإقلال

ويقول التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه: لا خير فيمن لا يُعنىٰ بالمال، يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه.

احتفاء الإسلام بالمال:

وإذا كانت هذه الأهمية للمال فليس بغريب أن يحتفي الإسلام به، وهو الدين الذي ينشد القوة والعزة لأتباعه.

* يقول ربُّ العزة مشيرًا إلىٰ أهمية المال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: ٥]. أي: لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا به.

* ويقول تعالىٰ مشيرًا إلىٰ أن المال أساسٌ في التمتع بزينة الدنيا التي أتاحها لنا بشرط عدم طغيانها علىٰ العمل للآخرة قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ

زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

* وقال في آية أخرىٰ في شأن الزينة: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

* بل يصل احتفاء الإسلام بالمال أن الله تعالىٰ جعله مظهرًا من مظاهر امتنانه علىٰ خلقه، ييسر لهم الحصول عليه، والبركة فيه إن هم أطاعوه، فيقول تعالىٰ علىٰ لسان نبيه نوح ﷺ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

- وقال رسول اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

ومن هنا تسقط كل الدعاوىٰ التي تزعم بأن الإسلام يكره المال، سواء قالها مسلم جاهل، أم كافر مغرض ليبعد المسلمين عن دوائر المال فتسهل

(١) صحيح البخاري: (٥٩٨٦).

سيطرة أعدائهم عليهم.

حال الصحابة مع المال:

والمتأمل في حياة الصحابة يجد كثيرين منهم كانوا أغنياء، ويجد أنهم وظفوا ثرواتهم لخدمة دين الله تعالىٰ، فنالوا بذلك سعادة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن هؤلاء الصحابة أبوبكر وعثمان وابن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام.

قال ابن حجر: دَعْوَىٰ أَنَّ جُمْهُورَ الصَّحَابَةِ كَانُوا عَلَىٰ التَّقَلُّلِ وَالزُّهْدِ مَمْنُوعَةٌ بِالْمَشْهُورِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ قِسْمَيْنِ بَعْدَ أَنْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ الْفُتُوحُ فَمِنْهُمْ مَنْ أَبْقَىٰ مَا بِيَدِهِ مَعَ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْمُوَاسَاةِ مَعَ الِاتِّصَافِ بِغِنَىٰ النَّفْسِ وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَكَانَ لَا يُبْقِي شَيْئًا مِمَّا فُتِحَ عَلَيْهِ بِهِ وَهُمْ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ لِلطَّائِفَةِ الْأُخْرَىٰ وَمَنْ تَبَحَّرَ فِي سِيَرِ السَّلَفِ عَلِمَ صِحَّةَ ذَلِكَ فَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ لَا تُحْصَىٰ كَثْرَةً. (١)

من رزقه الله المال وشكر فقد وُفِّق للخير:

فإن أقبل العبد علىٰ اكتساب المال، وأدىٰ حقَّ الله عليه فيه، وقام بصرفه في وجوه الخير المشروعة، فهذا فضل يذكر لله تعالىٰ فيشكر، قال رسول اللهِ ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» (٢).

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٢٧٦).

(٢) مسند أحمد: (٢٩/ ١٦).

ترغيب الإسلام في التجارة مع الله:

وقد رغَّب الإسلام في كثير من الآيات في استثمار المال للتجارة مع الله، وبيان أن هذا طريق المؤمنين المؤدي بهم إلىٰ الفوز في الدنيا والفلاح في الآخرة.

* قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]

* وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ٩ - ١٢] مع ملاحظة أن معظم الآيات التي ورد فيها الجهاد بالنفس والمال تقدم فيها ذكر المال علىٰ النفس.

المال نقمة لو استخدم في معصية الله:

أما إذا تحول المال لدىٰ صاحبه إلىٰ هدف يُقصد لذاته، وانكبَّ علىٰ جمعه دون رعاية لله في مصدره ومصرفه، واحتبسه دون أن يؤدي حقوق الله

فيه فهذا داء وبيل، وشر مستطير.

* يقول ربُّ العزة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤- ٣٥].

- وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ**» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨٠][(١)].

المال ليس مقياس الغنى والفقر:

وتعلمنا السنة أن كثرة المال أو قلته ليست هي المقياس الذي يُحكم به على الشخص بأنه غنيٌ أو فقير عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ**».[(٢)]

يقول ابن حجر: خَيْرِيَّةَ الْمَالِ لَيْسَتْ لِذَاتِهِ بَلْ بِحَسَبِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَإِنْ كَانَ يُسَمَّىٰ خَيْرًا فِي الْجُمْلَةِ وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْمَالِ الْكَثِيرِ لَيْسَ غَنِيًّا لِذَاتِهِ بَلْ بِحَسَبِ تَصَرُّفِهِ فِيهِ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ غَنِيًّا لَمْ يَتَوَقَّفْ فِي صَرْفِهِ فِي الْوَاجِبَاتِ

(١) صحيح البخاري: (٤٥٦٥).
(٢) صحيح البخاري: (٦٤٤٦).

وَالْمُسْتَحَبَّاتِ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ وَالْقُرُبَاتِ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ فَقِيرًا أَمْسَكَهُ وَامْتَنَعَ مِنْ بَذْلِهِ فِيمَا أُمِرَ بِهِ خَشْيَةً مِنْ نَفَادِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ فَقِيرٌ صُورَةً وَمَعْنًىٰ وَإِنْ كَانَ الْمَالُ تَحْتَ يَدِهِ لِكَوْنِهِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْأُخْرَىٰ بَلْ رُبَّمَا كَانَ وَبَالًا عَلَيْهِ.

- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَرَىٰ كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَىٰ**» قُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**فَتَرَىٰ قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الْفَقْرُ**» قُلْتُ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**إِنَّمَا الْغِنَىٰ غِنَىٰ الْقَلْبِ وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**»(١).

قَالَ ابن بَطَّالٍ: مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ لَيْسَ حَقِيقَةُ الْغِنَىٰ كَثْرَةَ الْمَالِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ لَا يَقْنَعُ بِمَا أُوتِيَ فَهُوَ يَجْتَهِدُ فِي الِازْدِيَادِ وَلَا يُبَالِي مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ فَكَأَنَّهُ فَقِيرٌ لِشِدَّةِ حِرْصِهِ وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ وَهُوَ مَنِ اسْتَغْنَىٰ بِمَا أُوتِيَ وَقَنِعَ بِهِ وَرَضِيَ وَلَمْ يَحْرِصْ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ وَلَا أَلَحَّ فِي الطَّلَبِ فَكَأَنَّهُ غَنِيٌّ وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: مَعْنَىٰ الْحَدِيثِ أَنَّ الْغِنَىٰ النَّافِعَ أَوِ الْعَظِيمَ أَوِ الْمَمْدُوحَ هُوَ غِنَىٰ النَّفْسِ وَبَيَانُهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَغْنَتْ نَفْسُهُ كَفَّتْ عَنِ الْمَطَامِعِ فَعَزَّتْ وَعَظُمَتْ وَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْحُظْوَةِ وَالنَّزَاهَةِ وَالشَّرَفِ وَالْمَدْحِ أَكْثَرُ مِنَ الْغِنَىٰ الَّذِي يَنَالُهُ مَنْ يَكُونُ فَقِيرَ النَّفْسِ لِحِرْصِهِ فَإِنَّهُ يُوَرِّطُهُ فِي رَذَائِلِ الْأُمُورِ وَخَسَائِسِ الْأَفْعَالِ لِدَنَاءَةِ هِمَّتِهِ وَبُخْلِهِ وَيَكْثُرُ مَنْ يَذُمُّهُ مِنَ النَّاسِ وَيَصْغُرُ قَدْرُهُ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ أَحْقَرَ مِنْ كُلِّ حَقِيرٍ وَأَذَلَّ مِنْ كُلِّ ذَلِيلٍ وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَّصِفَ بِغِنَىٰ النَّفْسِ يَكُونُ قَانِعًا بِمَا رَزَقَهُ اللهُ لَا يَحْرِصُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ لِغَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا يُلِحُّ فِي الطَّلَبِ وَلَا يُلْحِفُ فِي السُّؤَالِ بَلْ يَرْضَىٰ بِمَا قَسَمَ اللهُ

---

(١) صحيح ابن حبان: (٢/ ٤٦١).

لَهُ فَكَأَنَّهُ وَاجِدٌ أَبَدًا وَالْمُتَّصِفُ بِفَقْرِ النَّفْسِ عَلَىٰ الضِّدِّ مِنْهُ لِكَوْنِهِ لَا يَقْنَعُ بِمَا أُعْطِيَ بَلْ هُوَ أَبَدًا فِي طَلَبِ الِازْدِيَادِ مِنْ أَيِّ وَجْهٍ أَمْكَنَهُ ثُمَّ إِذَا فَاتَهُ الْمَطْلُوبُ حَزِنَ وَأَسِفَ فَكَأَنَّهُ فَقِيرٌ مِنَ الْمَالِ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا أُعْطِيَ فَكَأَنَّهُ لَيْسَ بِغَنِيٍّ ثُمَّ غِنَىٰ النَّفْسِ إِنَّمَا يَنْشَأُ عَنِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ عِلْمًا بِأَنَّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ الحرص وَالطَّلَبِ وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ غِنَىٰ النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَىٰ فَقْرًا(١).

✍ **وَقَالَ الطِّيبِيُّ**: يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِغِنَىٰ النَّفْسِ حُصُولُ الْكَمَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ وَإِلَىٰ ذَلِكَ أَشَارَ الْقَائِلُ وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ أَيْ يَنْبَغِي أَنْ يُنْفِقَ أَوْقَاتَهُ فِي الْغِنَىٰ الْحَقِيقِيِّ وَهُوَ تَحْصِيلُ الْكَمَالَاتِ لَا فِي جَمْعِ الْمَالِ فَإِنَّهُ لَا يَزْدَادُ بِذَلِكَ إِلَّا فَقْرًا انْتَهَىٰ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ لَكِنَّ الَّذِي تَقَدَّمَ أَظْهَرُ فِي الْمُرَادِ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ غِنَىٰ النَّفْسِ بِغِنَىٰ الْقَلْبِ بِأَنْ يَفْتَقِرَ إِلَىٰ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ فَيَتَحَقَّقُ أَنَّهُ الْمُعْطِي الْمَانِعُ فَيَرْضَىٰ بِقَضَائِهِ وَيَشْكُرُهُ عَلَىٰ نَعْمَائِهِ وَيَفْزَعُ إِلَيْهِ فِي كَشْفِ ضَرَّائِهِ فَيَنْشَأُ عَنِ افْتِقَارِ الْقَلْبِ لربه غنىٰ نفسه عَن غير ربه تَعَالَىٰ وَالْغِنَىٰ الْوَارِدُ فِي قَوْلِهِ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فأغنىٰ يَتَنَزَّلُ عَلَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ فَإِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ وَلَا يَخْفَىٰ مَا كَانَ فِيهِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْهِ خَيْبَرُ وَغَيْرُهَا مِنْ قِلَّةِ الْمَالِ وَاللهُ أَعْلَمُ. (٢)

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا:

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٢٧٢)

(٢) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٢٧٣).

الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**».(١)

وكلا الحديثين يتناول الغنىٰ والفقر بعيدًا عما تعارف عليه الناس من النظر إلىٰ كثرة المال أو قلته، ويجعل المحكَّ الحقيقي هو السمو بالنفس إلىٰ معالىٰ الأمور، والدفع بها عن دناياها.

جهل من ارتكن على ماله:

وبناءً علىٰ هذا عاب القرآن علىٰ من ارتكن إلىٰ كثرة ماله، وحسب أنه سبيل عزته وكرامته يقول تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾ [الهمزة: ١ - ٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

(١) صحيح مسلم: (٢٥٨١).

أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥ - ٣٧].

تاسعًا: ما هو الغنى الحقيقي:

إن الرضا بما قسم الله، والتطلع إلىٰ ما لديه من ثواب في الآخرة هو الغنىٰ الحقيقي، أما التنافس علىٰ الدنيا والتطلع إلىٰ تحصيل المزيد منها فهذا هو الفقر بعينه، وإن جمع صاحبه من المال مثل ما جمع قارون.

✍ يقول ابن القيم تحت عنوان تقسيم الغنىٰ إِلىٰ عال وسافل:

ولما كان الفقر إِلىٰ الله ﷻ هو عين الغنىٰ به- فأَفقر الناس إِلىٰ الله أَغناهم به، وأَذلهم له أَعزهم، وأَضعفهم بين يديه أَقواهم، وأَجهلهم عند نفسه أَعلمهم بالله وأَمقتهم لنفسه أَقربهم إِلىٰ مرضاة الله- كأن ذكر الغنىٰ بالله مع الفقر إِليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلًا نافعًا في الغنىٰ العالي.

واعلم أَن الغنىٰ علىٰ الحقيقة لا يكون إِلا لله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع، وكما أَن كونه مخلوقًا أَمر ذاتي له، فكونه فقيرًا أَمر ذاتي له، وغناه أَمر نسبي إِضافي عارض له، فإِنه إِنما استغنىٰ بأَمر خارج عن ذاته فهو غني به فقير إِليه، ولا يوصف بالغنىٰ علىٰ الإِطلاق إِلا من غناه من لوازم ذاته، فهو الغني بذاته عما سواه، وهو الأَحد الصمد الغني الْحميد.

والغنىٰ قسمان: غنىٰ سافل، وغنىٰ عال. فالغنىٰ السافل الغنىٰ بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل

المسومة والأَنعام والحرث وهذا أَضعف الغنىٰ، فإِنه غنىٰ بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إِلىٰ أَربابها، فإِذا الفقر بأَجمعه بعد ذهابها، وكَأن الغنىٰ بها كان حلمًا فانقضىٰ، ولا همة أَضعف من همة من رضىٰ بهذا الغنىٰ الذي هو ظل زائل.

وهذا غنىٰ أَرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإِياه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أَحب إِلىٰ الشيطان وأَبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنىٰ والخوف من فقده.

✍ **قال بعض السَلَف**: إِذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أَشياءَ: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت علىٰ الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنىٰ محفوف بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما.

فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له جعله سببًا لغناه الأَكبر وسيلة إِليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أَعز عليه من أَن يعبِّدها لغير مولاه الحق، أَو يجعلها خادمة لغيره. (١)

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٣). بتصرف.

بصيرة في القوة والضعف

حياة الإنسان تبدأ ضعيفة:

يبدأ الإنسان حياته ضعيفًا لا طاقة له بشيء ولا قدرة له عليه، فهو ضعيف جسمًا ضعيف إرادة، ضعيف عقلًا وفكرًا، فإذا بعناية الله تعالىٰ تحوطه من كل جهة، وتمده بأسباب المعونة في نفسه وفيمن حوله، حتىٰ يمكنه فيما بعد الاعتماد علىٰ نفسه، والاستغناء عن غيره.

تذكير الله لنا بضعفنا وكيف مدنا بالقوة:

والله تعالىٰ يذكِّرنا بهذه البداية وما تلاها من إمداده لنا بالقوة والقدرة حتىٰ نستطيع أن نباشر حياتنا.

* يقول ربُّ العزة: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

* وقال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

تعليم السنة لنا أن نطلب من الله حفظ قوتنا:

- وقد علمتنا السنة المطهرة أن نتوجه إلىٰ الله تعالىٰ دائمًا بأن يحفظ لنا

قوة أبداننا، وأن يمتعنا بها في حياتنا حتىٰ نلقاه، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّىٰ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»[(١)].

ومعنىٰ قوله: «**وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**» اجعلنا نتمتع بها حتىٰ آخر لحظة في حياتنا، فكأنها هي التي ترثنا، ولا نفقد منها شيئًا في حياتنا.

- ومن الأدعية التي يستحب أن تقال ثلاثًا في كل صباح ومساء: «**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)].

القوة يجب أن لا تستخدم في الظلم:

ولئن كانت القوة البدنية مطلبًا يحرص عليه الإسلام فإن هذا لا يعني استخدامها في ظلم عباد الله وإيقاع الشَّر بهم وتضييق الخناق عليهم، وإنما للاستعانة بها علىٰ طاعة الله تعالىٰ، وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ ما يدل علىٰ ذلك، ونص الدعاء: «**اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا**

(١) سنن الترمذي: (٣٥٠٢). صحيح الجامع: (١٢٦٨).
(٢) سنن أبي داود (٥٠٩٠)، ضعيف الجامع: (١٢١٠).

تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ».(١)

مواجهة من استخدم قوته في الظلم:

وواجه الإسلام بصرامة وشدَّة كلَّ من سوَّلت له نفسه استخدام ما منحه الله من قوة في ظلم عباد الله وفي هذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٥- ١٦].

- وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «**اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ، فَقَالَ: «**أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ**»، أَوْ «**لَمَسَّتْكَ النَّارُ**».(٢)

✍ **وجاء في مأثور الحكمة**: إذا دعتك قدرتك إلىٰ ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك.

الضعيف هو من لم يكبح جماح نفسه:

إن الإنسان الذي يعجز عن أن يكبح جماح نفسه، وينطلق وراء شهواته، غير مبالٍ بما يعود عليه أو علىٰ الآخرين من ضرر من جراء تصرفه.

---

(١) سنن الترمذي: (٣٤٩١)، ضعيف الجامع: (١١٧٢).
(٢) صحيح مسلم: (١٦٥٩).

هذا يُعَدُّ في نظر الإسلام ضعيفًا عاجزًا، وإن لبس أفخر الثياب وارتقىٰ أعلىٰ المناصب، أو مشىٰ في ركاب الملوك، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ**». (١)

القوي هو من يملك زمام نفسه:

- في حين أن الشخص الذي يملك زمام نفسه، ويقودها إلىٰ الخير، هو القوىٰ حقًّا دون نظر إلىٰ ضآلة جسمه، أو ضعف بنيته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**». (٢)

ولذا يخطئ كل من يتصور القوة تصورًا ماديًا فحسب، يتمثل من وجهة نظره في سواعد مفتولة، وأجسام شداد، أو يتصور القوة في كثرة مال أو كثرة أتباع، أو يتصورها في قدرته علىٰ ممارسة الجبروت والطغيان، أو يتصورها في منصب أو جاه، أو يتصورها في القدرة علىٰ إجادة فنون المكر والخداع والتلون حسبما يقتضيه الحال، إلىٰ غير ذلك من التصورات التي تنطلق من الأرض وإليها تعود.

القوة الحقيقية هي الإيمان بالله:

إن أهم عناصر القوة قوة المرء في إيمانه بربِّه، واعتماده عليه، هذه القوة

---

(١) سنن الترمذي: (٢٤٥٩)، ضعيف الجامع: (٤٣٠٥).
(٢) صحيح البخاري: (٦١١٤)، صحيح مسلم: (٢٦٠٩).

التي تجعل صاحبها إذا تكلم كان قويًّا واثقًا في كلامه، وإن عمل كان قويًّا ثابتًا، يأخذ تعاليم دينه بقوة: قال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: ٦٣] وقال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: ٩٣] وقال تعالىٰ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٧١] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: ١٢].

فالمؤمن بربِّه حق الإيمان لا يخشىٰ إلا الله، ولا يرجو سواه، ولا يخاف فيه لومة لائم، يدور مع الحق حيث دار، ولا تستعبده شهوة، ولا تستذله رغبة أو رهبة.

نماذج من القرآن على أصحاب القوة الحقيقية:

وفي القرآن نماذج عديدة لهذه القوة التي جعلت أصحابها لا يبالون بما يواجهونه من صعوبات، وما يقع عليهم من عقوبات، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر قصَّ علينا القرآن نماذج من هؤلاء:

١ - سحرة فرعون:

سحرة فرعون خالط الإيمان قلوبهم، فواجهوا جبروت فرعون وتهديده بقولهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: ٧٢- ٧٣].

٢ - قصة أصحاب النبي ﷺ الثابتين رغم الجراحات:

كذلك قصَّ علينا القرآن قصة أصحاب النبي ﷺ الذين ثبتوا معه رغم كثرة الجراحات، ولم يلتفتوا إلىٰ من حاول بث الخذلان في صفوفهم، وفيهم يقول ربُّ العزة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

• فيصل التفرقة بين الأقوياء والضعفاء:

إن قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، وتسخير الإمكانات المتاحة لنصرة ديننا ورفعة شأننا هي فيصل التفرقة بين الأقوياء والضعفاء دون نظر إلىٰ ضخامة الأجسام وثقل الأوزان، ودون اعتداد بمنصب أو مال.

• قوة أبي بكر في الحق:

فهذا سيدنا أبىٰ بكر الصديق رضي الله عنه يتعرض المسلمون في عهده لعدة فتن كادت تعصف بالأمة جميعها، وعلىٰ رأسها فتنة المرتدين، ومانعي الزكاة، فإذا به، وهو الرجل النحيل الجسم، والذي لا يملك نفسه عند تلاوة القرآن من البكاء، يتحول إلىٰ أسد جسور يقول: لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه، فقال عمر: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، فقال لعمر: أجبار في الجاهلية، وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي وتم الدين، أوينقص وأنا

حي؟(١)

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ**»، فَقَالَ: وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «**فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ**».(٢)

- **قدم ابن مسعود أثقل من جبل أحد في الميزان:**

- عَنْ أُمِّ مُوسَىٰ، قَالَتْ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يَقُولُ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَ مَسْعُودٍ فَصَعِدَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ أَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْهَا بِشَيْءٍ، فَنَظَرَ أَصْحَابُهُ إِلَىٰ سَاقِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ مَسْعُودٍ حِينَ صَعِدَ الشَّجَرَةَ، فَضَحِكُوا مِنْ حُمُوشَةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَضْحَكُونَ؟ لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أُحُدٍ**»(٣).

✍ **ومن كلمات الإمام الشافعي:**

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُقَاسُ جَمِيعُهَا ... بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا

---

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١/ ١٤٧). بتصرف.

(٢) صحيح البخاري (٧٢٨٤).

(٣) مسند أحمد: (٩٢٠).

وَفِـيهِنَّ نَفْـسٌ لَـوْ يُقَـاسُ بِبَعْضِـهَا ... نُفُـوسُ الْـوَرَىٰ كَانَـتْ أَجَـلَّ وَأَكْبَـرَا
وَمَا ضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إِخْلَاقُ غِمْدِهِ ... إِذَا كَانَ عَضْبًا حَيْثُ وَجَّهْته بَرَىٰ(١)

تلك هي القوة الحقيقية وليست قوة الأجسام الفارهة ذات الأحلام الفارغة، والتي ينساق أصحابها وراء شهواتهم الهابطة، ويتعلقون بدنياهم الفانية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾** [الكهف: ١٠٥]»(٢)

خيرية الإنسان في إيمانه بربه:

إن الخيرية في أي إنسان تخضع لإيمانه بربِّه، بغض النظر عن بنيته الجسمانية، فإذا جمع الإنسان قوة الجسد إلىٰ قوة الإيمان فهو خير إلىٰ خير، وإلا فإن المؤمن مهما كان ضعيفًا فإنه خير من ملء الأرض ممن ليسوا علىٰ إيمان، وصدق رسولنا ﷺ حيث يقول: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».(٣)

---

(١) تاريخ بغداد وذيوله: (١٦/ ١٥٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٥٢٨).
(٢) صحيح البخاري: (٤٧٢٩).
(٣) صحيح مسلم: (٢٦٦٤).

بصيرة في الكلام والبكم

إن من نعم الله العظيمة علىٰ الإنسان نعمة الكلام، والتي يعرب بها عن مكنون نفسه، ويمكنه بواسطتها التفاهم والتعامل مع غيره.

ولجلال هذه النعمة وعظيم قدرها ذكرها الله تبارك وتعالىٰ في صدر ما أنعم بها علىٰ الإنسان، وذلك في مطلع سورة الرحمن، والتي اشتملت علىٰ التذكير بالكثير من نعم الله علينا يقولُ ربُّ العزّةِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

وفي إشارة إلىٰ ما تميز به نعمة الكلام عن سائر النعم: يقول الإمام أبو حامد الغزالي: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه إذا لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء.

فإن العين لا تصل إلىٰ غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلىٰ غير الأصوات، واليد لا تصل إلىٰ غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهىٰ وحد، له في الخير مجال رحب،

وله في الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخىٰ العنان سلك به الشيطان في كل ميدان وساقه إلىٰ شفا جرف هار إلىٰ أن يضطره إلىٰ البوار ولا يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشىٰ غائلته في عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه علىٰ من عرفه ثقل عسير وأعصىٰ الأعضاء علىٰ الإنسان اللسان فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. (١)

ولأجل أن يتمتع الإنسان بهذه النعمة يلزمه أن يكون سليم السمع حتىٰ يدرك الكلمات ودلالتها علىٰ المعاني فيقلدها، كما يلزمه بعد ذلك مجموعة من الأعضاء تتعاون معًا في إتمام عملية الكلام، ومن أهمها: اللسان والأسنان والشفتان والحنجرة......الخ.

بيان القرآن لامتنان الله وتفضله علينا بالأعضاء:

يقول ربُّنا في معرض الامتنان والتفضل بهذا: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾ [البلد: ٨- ٩]، وإلىٰ جانب هذه الأعضاء الحسية التي تتعاون في إتمام عملية الكلام يأتي تعليم الله لنا بدلالات الألفاظ علىٰ معانيها، وهو ما علَّمه الله لأبينا آدم عليه السلام، حيث يقول ربَّنا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

---

(١) إحياء علوم الدين: (٣/ ١٠٨).

ﵟٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَاﵞ، ثم تولدت اللغات واللهجات التي يتكلم بها الناس، والتي تعدًّ بالآلاف، وكلها من فضل الله علىٰ الناس، حيث يقول ربنا: ﵟوَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَﵞ [الروم: ٢٢].

قدرة الله على إنطاق من شاء وإبكام من شاء:

ولأن الفضل في ذلك يعود إلىٰ الله تعالىٰ وحده فإنه سبحانه تفضل علىٰ عباده فأنطقهم في المهد، ومنهم نبي الله عيسىٰ ﵇ والذي قال الله في حقِّه: ﵟوَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦ﵞ [آل عمران: ٤٦]

* وذكرت السنة أناسًا آخرين: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمْ يَتكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّىٰ يَنْظُرَ إِلَىٰ وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا**

صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّىٰ أُصَلِّيَ، فَصَلَّىٰ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَىٰ الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَىٰ جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَىٰ دَابَّةٍ فَارِهَةٍ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ». قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَىٰ مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ: اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا»(١).

* وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٥٠).

الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا». قَالَ: «قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَىٰ مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟

قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَىٰ هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ». قَالَ: «فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَىٰ أَنِ انْتَهَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ» قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ»(١).

* وَعَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ

(١) مسند أحمد: (٢٨٢١).

أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ النَّاسُ، فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمِ

الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمِ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ»(١).

في الوقت نفسه يُبتلىٰ آخرون بفقدان هذه النعمة فيظل أحدهم أبكم طيلة حياته، ويتعامل مع الناس من خلال الإشارة، مما يفوِّت عليه كثيرًا من المنافع التي تتحصل من وراء نعمة الكلام.

---

(١) صحيح مسلم: (٣٠٠٥).

إنطاق الله للجوارح:

إِخْبَارُ اللهِ ﷻ عَنْ شَهَادَةِ الْجَوَارِحِ عَلَىٰ أَهْلِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: ٢٤]، وقوله: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾ [يس: ٦٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ ﴾ [فصلت: ٢١- ٢٢].(١)

ضرورة استثمار نعمة الكلام في الخير:

ودائما يذكرنا ربنا بضرورة استثمار نعمة الكلام فيما فيه الخير لديننا ودنيانا ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣].

* وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨ ﴾ [النساء: ٨] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

---

(١) شعب الإيمان: (١/ ٤٢٤).

التحذير من توظيف الكلام في الباطل:

وينهانا الله عن توظيف نعمة الكلام فيما فيه إثم أو معصية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

* وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [النساء: ١٧١].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ ﴾ [الأعراف: ٣٣] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

توجيه السنة لاعتناء المسلم بكلماته:

وأضافت السنة النبوية أن اعتناء المسلم بكلماته، ومحافظته علىٰ لسانه، هو الطريق لكل خير مرجو، وهو الزمام الذي يقود لكل عمل مرضي.

* عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ عَظِيمًا، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ**» ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ النَّارَ الْمَاءُ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ**

اللَّيْلِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧]» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ الْجِهَادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».(١)

من لا يلتزم بمنهج الله أبكم:

فإذا وجد أناس لا يلتزمون بهذا المنهج القرآني والنبوي فيما فيه يتكلمون، وراحوا ينساقون وراء أهوائهم فيما فيه ينطقون، فهؤلاء يسميهم القرآن الكريم بكمًا، وإن تكلموا بأفصح الكلام.

* يقول الله في شأن المنافقين: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨] مع أنه قال عنهم في موضع آخر: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ ﴾ [المنافقون: ٤].

* وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]

* وقال تعالىٰ عن الكفار في سورة البقرة أيضًا: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٩٧٣)، صحيح الجامع: (١٦٤٣).

١٧١].

* وقال عن الفريقين معًا في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢] وقال عنهم في سورة الأنعام: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومن مجموع هذه الآيات نجد أن البكم الحسي بفقدان صاحبه للكلام لا يذم صاحبه ولا يلام، في حين أن من تمتع بنعمة الكلام، وكانت لديه قدرة على الفصاحة والبيان، لكنه أبى إلا الجحود والنكران فهذا هو الأبكم حقًّا، ولن يكون له عند الله يوم القيامة إلا جزاء من جنس عمله، كما قال ربُّنا في حقِّ أهل الضلال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

فليراجع كلٌّ منَّا نفسه، وليعلم أنه لا ينفعه من الكلام إلا ما كان في طاعة الرحمن، كما قال ربُّنا: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

❀◈❀

بصيرة في اللباس والعري

ما يعين على الستر من نعم الله:

إن من نعم الله العظيمة علىٰ بني آدم ما يسَّره الله لهم من أسباب تعينهم علىٰ ستر عوراتهم، ومواراة سوأتهم، ويضاف إلىٰ هذا كذلك ما يتجملون به ويتزينون من ملابس وأودية.

* يقول الله تعالىٰ في معرض الامتنان والتفضل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١]

* ويقول سبحانه: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والمراد بالريش في هذه الآية الكريمة ما يَتَرَفَّه به الإنسان ويتزين به من الثياب فوق كونه يُوارِي السَّوآت.

حديث القرآن عن منة اللباس والريش:

ورد ذكر المنَّة باللباس والريش في سياق الحديث عن قصة آدم عليه السلام مع عدو الله إبليس، وكيف أن إبليس بوسوسته له، وإغوائه وإضلاله قد تسبب في

كشف العورات وافتضاح السوآت، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلما حدث ما حدث وانكشفت العورات بسبب المعصية لم يترك الله آدم وزوجه لهذا الخزي والعار، وما يصيبها من حياء مستمر لكشف تلك السوآت، فأوجد في الأرض الأسباب المعينة لآدم وذريته علىٰ ستر العورات وإخفاء السوآت وهذا فضل يذكر لله تعالىٰ فيشكر.

* عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: لَبِسَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ثُمَّ عَمَدَ إِلَىٰ الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ كَانَ فِي كَنَفِ اللهِ وَفِي حِفْظِ اللهِ، وَفِي سَتْرِ اللهِ حَيًّا وَمَيِّتًا**». (١)

ترغيب الإسلام في ارتداء الجميل من الثياب:

أباح الإسلام في مجال اللباس، بل حثَّ ورغَّب أن يرتدي المسلم من اللباس ما يكون فيه جميلًا، وأن يكون في حال يسره وغناه مظهرًا من خلال ملابسه لنعمة الله عليه.

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ**

---

(١) سنن الدارمي: (٣/ ١٧٦١)، سنن الترمذي: (٥/ ٤٥٠)، سنن ابن ماجه: (٢/ ١١٧٨).

فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**».(١)

وتذييل الحديث بهذه الجملة: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» يُعطي انطباعًا بأن التجمل في الثياب ليس مباحًا فقط، بل هو مستحب مرغوب فيه.

* وعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ: «**أَلَكَ مَالٌ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللهُ مِنَ الإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «**فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ، وَكَرَامَتِهِ**».(٢)

من آثروا كفران نعمة الله في اللباس:

ولئن كان اللباس الذي يستر العورات ويجمِّل الهيئات نعمة من الله سيقت إلينا كما قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] ولنتأمل سياق الآية وهي تتحدث عن هذه النعمة: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١]، ومع هذا نجد من الناس من حوَّل هذه النعمة إلىٰ كفران، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

(١) صحيح مسلم: (٩١).
(٢) سنن أبي داود (٤/ ٥١). السلسلة الصحيحة: (٣/ ٣١١).

كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وينطبق هذا علىٰ من آثروا التبرج علىٰ الاحتشام، وكشفوا العورات، وتحولت الملابس في حقِّهم إلىٰ مسخ لإنسانيتهم، وأصبح اللباس لديهم وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، ومجالًا رحبًا للإسراف والتبذير، وضاعت مع ذلك مظاهر الرجولة الحقة، والأنوثة المحافظة، وهو عين ما حذرنا الله تبارك وتعالىٰ منه في سياق الحديث عن نعمة اللباس، حيث قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، [﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه: ١٢١]. فالتعري سوءة وفتنة من الشيطان.

ضوابط اختيار الإنسان لملابسه:

وضع الإسلام ضوابط عامة ينبغي مراعاتها عند اختيار الإنسان لملابسه، ومن أهم هذه الضوابط:

أ- البعد عما فيه سرف أو خيلاء.

ب – البعد عن تشبه الرجال بالنساء والعكس.

ج – البعد عما فيه تشبه بالكفار.

د – ألا تكون ملابس الرجال من الحرير.

هـ – أن تكون ملابس النساء فضفاضة لا تصف، وسميكة لا تشف، وأن

تستر جميع البدن باستثناء الوجه والكفين علىٰ أقصىٰ تقدير، وألا تكون ملابسها زينة في نفسها تجذب أنظار الرجال إليها.

لباس التقوى يستر عيوب النفس:

وبعد أن تكلمنا عن اللباس من حيث الصورة، فإن القرآن الكريم الذي جاء لإصلاح الظاهر والباطن، والسر والعلانية قد دلنا علىٰ لباس من شأنه أن يستر عيوب نفوسنا، ويرقىٰ بآدميتنا، وذلكم هو لباس التقوىٰ الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فاللباس المادي إن كان يحفظ الجسد من الحر والبرد، ويقيه من الأخطار، وهو في الوقت نفسه مظهر للجمال وأداة للزينة، فإن التقوىٰ كذلك تستر عيوب الإنسان وتقيه من الشرور والآثام، وتفضي عليه جمالًا وبهاءً يرفعه إلىٰ أعلىٰ الدرجات، ويسمو به إلىٰ أرفع المراتب ولباس التقوىٰ هو اللباس الحقيقي، فمن تعرَّىٰ منه فهو العاري حقًّا، وإن تسربل بأفخم الثياب، وارتدىٰ أفخر الرياش.

وصدق من قال:

إذا المرءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيابًا مِن التُّقَىٰ ... تَقَلَّبَ عُريانًا وإنْ كَانَ كاسِيَا
وخَيرُ خِصَالِ المرءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... ولا خَيرَ فيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيَا

وقال آخر:

ألا إنَّما التَّقْوىَ هِيَ العِزُّ والكَرَمْ ... وحُبُّكَ لِلْدُّنْيا هُوَ الذُّلُّ والنَّدَمْ
ولَيسَ عَلَىٰ عَبْدٍ تقيٍّ نَقيصَةٌ ... إذَا صَحَّحَ التَّقْوىٰ وَأنْ حَاكَ أو حَجَمْ

✍ وقال آخر:

مَــنِ اتَّقَــىٰ الله فَــذَاكَ الــذِي ... سِــيقَ إليــهِ المَتْجَــرُ الــرَّابِحُ
فاسْــمُ بعَينَيــكَ إلــىٰ نِسْــوَةٍ ... مُهُــورُهُنَّ العَمَــلُ الصَّــالِحُ
لا يُخْــرِجُ الحَــورَاءَ مِــن خِــدْرِهَا ... إلا امْــرَؤٌ مِيزَانُــهُ رَاجِــحُ

✍ وقال آخر:

ولَسْــتُ أَرَىٰ السَّــعَادَةَ جَمْــعَ مَــالٍ ... ولَكِــنِ التقِّــيُّ هُــوَ السَّــعِيدُ
وتَقْــوَىٰ اللهِ خَيــرُ الــزَّادِ ذُخْــرًا ... وعِنْــدَ اللهِ للأَتْقَــىٰ مَزِيــدُ
ومَــا لَا بُــدَّ أنْ يَــأتِي قَرِيــبٌ ... ولَكِــنِ الــذِي يَمْضِــي بَعِيــدُ(١)

قدر المسلم بتقواه وليس بثيابه:

في ضوء هذا المفهوم القرآني يرتفع قدر المرء المسلم وإن كان رثَّ الهيئة والثياب، إذا عمُر قلبه بالإيمان، وتحلىٰ بالفضائل النفسية والشمائل الخلقية علىٰ إنسان آخر خلا من هذه المعاني وإن تحلىٰ بظاهر أنيق.

* عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا**

---

(١) مجموعة القصائد الزهديات: (٢/ ١٧٩).

خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا». (١)

- **قصة للشافعي تبين أن الناس يُخدعون بالظواهر والثياب:**

✍ **قال الربيع بن سليمان:** كنت مع الشافعي في بعض أسفاره فدخل الحمام، فتقدم المزين ليخدمه فاستدعاه بعض أرباب الدنيا فتركه ومضىٰ إلىٰ ذلك الرجل، فلما خرج قال: أعط الحمامي باقي نفقتي، فقلت: نبقىٰ بلا نفقة، وهذا لا يعرفك، قال: أعطه! فأعطيته دنانير لها قدر، فاعتذر المزين إليه وقبل يديه ورجليه، فقال الشافعي:

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ تُقَاسُ جَمِيعُهَا ... بِفَلْسٍ لَكَانَ الْفَلْسُ مِنْهُنَّ أَكْثَرَا

وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ يُقَاسُ بِبَعْضِهَا ... نُفُوسُ الْوَرَىٰ كَانَتْ أَجَلَّ وَأَكْبَرَا

وَمَا ضَرَّ نَصْلَ السَّيْفِ إِخْلَاقُ غِمْدِهِ ... إِذَا كَانَ عَضْبًا حَيْثُ وَجَّهْته بَرَىٰ(٢)

✍ **وأَخَذَهُ الْمُتَنَبِّي فَقَالَ:**

لَئِنْ كَانَ ثَوْبِي فَوْقَ قِيمَتِهِ الْفَلْسُ ... فَلِي فِيهِ نَفْسٌ دُونَ قِيمَتِهَا الْإِنْسُ

فَثَوْبُك بَدْرٌ تَحْتَ أَنْوَارِهِ دُجًىٰ ... وَثَوْبِي لَيْلٌ تَحْتَ أَطْمَارِهِ شَمْسُ (٣)

✍ **وكَانَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمُزَنِيّ يَقُول:** الْبَسُوا ثِيَابَ الْمُلُوكِ، وَأَمِيتُوا قُلُوبَكُمْ بِالْخَشْيَةِ.

✍ **وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ** إِنَّ أَقْوَامًا جَعَلُوا خُشُوعَهُمْ فِي لِبَاسِهِمْ، وَكِبْرَهُمْ

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٤٧).

(٢) تاريخ بغداد وذيوله: (١٦/ ١٥٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٥٢٨).

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية: (٣/ ٥٢٨).

فِي صُدُورِهِمْ وَشَهَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِلِبَاسِ الصُّوفِ حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَهُمْ بِمَا يَلْبَسُ مِنْ الصُّوفِ أَعْظَمُ كِبْرًا مِنْ صَاحِبِ الطَّرَفِ بِمُطَرَّفِهِ.

✍ **وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ** قُلْت لِإِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَا الْمُرُوءَةُ؟ قَالَ أَمَّا فِي بَلَدِك فَالتَّقْوَىٰ وَأَمَّا حَيْثُ لَا تُعْرَفُ فَاللِّبَاسُ.(١)

وبهذا المفهوم المتكامل لمعنىٰ اللباس يحرص المسلم علىٰ جمال مظهره ومخبره، وصلاح سره وعلانيته، والاهتمام بقلبه وقالبه، وكل هذا في إطار عبادته لله تعالىٰ، إقرارًا بفضله، وخضوعًا لأمره.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٥٢٧).

بصيرة في مجالسة الصالحين

إن الإنسان جُبِل علىٰ حب مخالطة الآخرين، وأن يتخذ له جليسًا يعينه علىٰ مصالحه في دنياه وأُخراه، والناس متفاوتون في دينهم وأخلاقهم؛ فمنهم الخيِّر الفاضل الذي يُنتفع بصحبته وصداقته، ومنهم السيِّئ الذي يتضرَّر بصداقته ومعاشرته.

وإن المرء يتأثر بجليسه، ويعرف بمجالسه، والمسلم بمفرده يضعف عن عبادة ربه، لذا لابد له من جليس يقوي عضده للسير إلىٰ ربه.

والصحبة لها شأن كبير في الإسلام، فالأنبياء بل أولو العزم من الرسل اتخذوا لهم أصحابًا فعيسىٰ[1] ﷺ يقول: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. أي من يعينني في الدعوة إلىٰ الله، ونبينا محمد - ﷺ - اتخذ له صاحبًا في حياته قال سبحانه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فأخبر الله ﷻ بأن لنبينا صاحبًا ويقول عليه الصلاة

---

(١) عن جعفر أبىٰ غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسىٰ ابن مريم ﷺ: يا معشر الحواريين، تحببوا إلىٰ الله ﷻ ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إليه بالمقت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. قالوا: يا نبي الله، فمن نجالس؟ قال: جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهدكم في دنياكم عمله. انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد: (٢٠/ ٣٦٦).

والسلام: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي». (١)

* وقد كان النبي - ﷺ - يزور صاحبه أبا بكر في داره في كل يوم مرتين، تقول عائشة رضي الله عنها: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، طَرَفَيِ النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً......». (٢)

الحث على مجالسة الصالحين:

إن مصاحبة الصالحين حتىٰ لو كانوا فقراء أو ضعفاء خير وبركة في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولقد أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا - ﷺ - والأمر عام له ولأمته - بلزوم الصالحين، ومصابرة النفس علىٰ مصاحبتهم، والبقاء معهم، خصوصًا الفقراء منهم والضعفاء، فقال تعالىٰ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

* وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِؤُونَ عَلَيْنَا، قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اسْمَيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) صحيح البخاري: (٣٦٥٦).
(٢) صحيح البخاري: (٤٧٦).

رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]. (١)

* وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٢). (٣)

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ،**

---

(١) صحيح مسلم: (٢٤١٣).

(٢) صحيح مسلم: (٢٦٢٨).

(٣) يقول صاحب «فتح المنعم» في تعليقه علىٰ هذا الحديث: عدوىٰ الأخلاق السيئة كعدوىٰ الأمراض ومجالسة الصالحين حماية من السيئات لأن مجلسهم يخلو من الذنوب بل وتحفه ملائكة الرحمة ويقول الله لملائكته عنهم وقت ذكرهم لله أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهم فيقولون يا ربنا إن فيهم فلانا ليس منهم وإنما جاء لحاجة من أحدهم فيقول لهم هم القوم لا يشقىٰ جليسهم نعم فجليسهم إما أن يذكر الله معهم وإما أن يستمع لذكرهم وإما يشمله نور مجلسهم تماما كالجلوس بجوار حامل المسك وبائعه إما أن تشتري منه فتحمل معك ما ينفعك وإما أن يهديك لمسة من مسكه وإما أن تنتفع فترة جواره بالريح الطيبة، أما مجالسة أهل الشر والفساد فهي كمجالسة الحداد الذي ينفخ في الكير ليصنع الحديد فيتطاير منه الشرر فيحرق ثيابك أو يصيبك دخانه وريحه الخبيثة ومجالسة أهل الشر والفساد إما أن يعديك شرهم فيسحبك إلىٰ الفساد في الأرض وإما أن تسمع منهم ما يضر ولا ينفع فتحيط بك الشياطين كما تحيط بهم وإما علىٰ الأقل أن يضعك الناس في حزبهم وسمعتهم وإن لم تكن منهم ولا علىٰ طريقتهم ومنوالهم ورحم الله امرأ أحب الصالحين وأهل الخير وجالسهم وكره الفاسدين وأهل الشر فجانبهم. انظر: «فتح المنعم شرح صحيح مسلم» (١٠/ ١٢٧).

فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ». (١)

قوله: «**عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ**»: أي علىٰ عادة صاحبه وطريقته وسيرته فلينظر أي: يتأمل ويتدبر من يخالل، فمن رضي دينه وخلقه خَالَلَهُ ومن لا تجنَّبَهُ فإن الطباع سراقة. (٢)

قال الشاعر:

عَنِ المرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُـلُّ قَـرِينٍ بالمُقَـارَنِ يَقْتَـدِي

والإنسان مجبول علىٰ التأثر بصاحبه وجليسه، والأرواح جنود مجندة؛ روىٰ البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». (٣)

وتألفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلىٰ الأخيار، والأشرار إلىٰ الأشرار.(٤)

---

(١) سنن أبي داود: (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (٩٢٧).
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١٣/ ١٢٣).
(٣) صحيح مسلم: (٢٦٣٨).
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١٣/ ١٢٤).

السلف وحرصهم على مجالسة الصالحين:

إن السلف الصالح رحمهم الله تعالىٰ كانوا يبحثون عن جلساء الخير، وهذه القصة التي رواها الإمام البخاري ﷺ تبين هذا المقصود: عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ الشَّأْمَ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَأَتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ جَنْبِي، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقُلْتُ: إِنِّي دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُيَسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَيَسَّرَكَ لِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الكُوفَةِ، قَالَ: أَوَلَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ وَالوِسَادِ، وَالمِطْهَرَةِ، وَفِيكُمُ الَّذِي أَجَارَهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، - يَعْنِي عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ - أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَقْرَأُ عَبْدُ اللهِ: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: «**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ**» قَالَ: «وَاللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فِيهِ إِلَىٰ فِيَّ».(١)

كانوا يدعون الله بشروط الدعاء المستجاب؛ فيستجيب الله لهم في الحال وييسر لهم جلساءً صالحين، فهذا الرجل التابعي رزقه الله بصحابي جليل ليجلس إليه ويستمع منه ماذا كان رسول الله ﷺ يفعل ويقول.

✍ **وَقَالَ عَبْدُ اللهِ الأَنْطَاكِيُّ**، رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ: دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ، مُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَإِخْلَاءُ الْبَطْنِ مِنَ الْحَرَامِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ الصُّبْحِ. (٢)

---

(١) صحيح البخاري: (٣٧٤٢).

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي: (ص: ٤٠٥).

✍ **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ:** «لَيْسَتِ اللَّعْنَةُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ وَنُقْصَانًا فِي الْمَالِ، إِنَّمَا اللَّعْنَةُ أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا وَقَعْتَ فِي مِثْلِهِ أَوْ شَرٍّ مِنْهُ» وَهُوَ كَمَا قَالَ؛ لِأَنَّ اللَّعْنَةَ هِيَ الطَّرْدُ وَالإِبْعَادُ، فَإِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْخَيْرِ، وَيُسِّرَ لَهُ الشَّرُّ فَقَدْ أُبْعِدَ، وَالْحِرْمَانُ عَنْ رِزْقِ التَّوْفِيقِ أَعْظَمُ حِرْمَانٍ، وَكُلُّ ذَنْبٍ فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ ذَنْبٍ آخَرَ وَيَتَضَاعَفُ فَيُحْرَمُ الْعَبْدُ بِهِ عَنْ رِزْقِهِ النَّافِعِ مِنْ مُجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلذُّنُوبِ، وَمِنْ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، بَلْ يَمْقُتُهُ اللهُ - تَعَالَىٰ - لِيَمْقُتَهُ الصَّالِحُونَ. (١)

✍ **وعن مطرف قال:** الجليس الصالح خير من الوَحْدة، والوَحْدة خير من جليس السوء. (٢)

طلب الوصية من الصالحين:

إن المرء ينبغي أن يكون حريصًا علىٰ طلب الوصايا والنصائح من الصالحين، ويوم يُقيِّض الله للمرء رجلا صالحًا يعظه، فيثبته الله وينفعه بتلك الكلمات، فتنبني نفسه، وتُسدَّد خطاه يوم يتعرض لفتنة أو بلاء من ربه ليمحصه به، فهذه نعمة.

وها هو الإمام أحمد يساق إلىٰ المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه حتىٰ قال خادمه: يَعِزُّ عَلَيَّ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَنَّ الْمَأْمُونَ قَدْ سَلَّ سَيْفًا لَمْ يَسُلَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ يُقْسِمُ بِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين: (ص: ٢٧٩).
(٢) الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد: (٢٠/ ٧١).

لَئِنْ لَمْ تُجِبْهُ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ لَيَقْتُلَنَّكَ بِذَلِكَ السَّيْفِ. (١)

وهنا يأتي الصالحون، أهل البصيرة لينتهزوا الفرصة ليلقوا بالوصايا التي تثبت في المواقف الحرجة.

- **ففي السير: أن أبا جعفر الأنباري** قال: لَمَّا حُمِلَ أَحْمَدُ إِلَىٰ المَأْمُوْنِ، أُخبرتُ، فَعَبَرْتُ الفُرَاتَ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الخَانِ، فَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، تَعَنَّيْتَ.

فَقُلْتُ: يَا هَذَا، أَنْتَ اليَوْمَ رَأْسٌ، وَالنَّاسُ يَقتدُوْنَ بِكَ، فَوَ اللهِ لَئِنْ أَجبتَ إِلَىٰ خَلقِ القُرْآنِ، لَيُجِيْبَنَّ خَلقٌ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُجِبْ، لَيَمْتَنِعَنَّ خَلْقٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيْرٌ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الرَّجُلَ إِنْ لَمْ يَقْتُلْكَ فَإِنَّك تَمُوتُ، لاَبُدَّ مِنَ المَوْتِ، فَاتَّقِ اللهَ وَلاَ تُجِبْ.

فَجَعَلَ أَحْمَدُ يَبْكِي، وَيَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، أَعِدْ عَلَيَّ.

فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ. (٢)

✍ **وقَالَ صَالِحُ بنُ أَحْمَدَ**: حُمِلَ أَبِي وَمُحَمَّدُ بنُ نُوْحٍ مِنْ بَغْدَادَ مُقَيَّدَيْنِ، فَصِرنَا مَعَهُمَا إِلَىٰ الأَنْبَارِ.

فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ الأَحْوَلُ أَبِي: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، إِنْ عُرِضتَ عَلَىٰ السَّيْفِ، تُجِيبُ؟

---

(١) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٦٦).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٣٩).

قَالَ: لَا.

ثُمَّ سُيِّرَا، فَسَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: صِرنَا إِلَىٰ الرَّحْبَةِ (١)، وَرَحلنَا مِنْهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَعَرَضَ لَنَا رَجُلٌ، فَقَالَ: أَيُّكُم أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ؟

فَقِيْلَ لَهُ: هَذَا.

فَقَالَ لِلْجمَّالِ: عَلَىٰ رِسْلكَ.

ثُمَّ قَالَ: يَا هَذَا، مَا عَلَيْكَ أَنْ تُقتلَ هَا هُنَا، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟

ثُمَّ قَالَ: أَسْتودِعُكَ اللهَ، وَمَضَىٰ.

فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيْلَ لِي: هَذَا رَجُلٌ مِن العَرَبِ مِنْ رَبِيْعَةَ يَعْمَلُ الشَّعْرَ فِي البَادِيَةِ، يُقَالُ لَهُ: جَابِرُ بنُ عَامِرٍ، يُذكَرُ بِخَيْرٍ. (٢)

✍ واعترضه أعرابي يُقَالُ لَهُ جَابِرُ بْنُ عَامِرٍ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا إِنَّكَ وَافِدُ النَّاسِ فلا تكن شؤما عَلَيْهِمْ، وَإِنَّكَ رَأْسُ النَّاسِ الْيَوْمَ فَإِيَّاكَ أَنْ تجيبهم إلىٰ ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ اللهَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أنت فيه، فإنه مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ تُقْتَلَ، وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُقْتَلْ تَمُتْ، وَإِنْ عِشْتَ عشت حميدًا. (٣)

✍ **ويقول الإمام أحمد**: ما سمعتُ كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوىٰ

---

(١) وهي رحبة مالك بن طوق، تقع بين الرقة وبغداد، علىٰ شاطئ الفرات، تبعد عن بغداد مئة فرسخ، وعن الرقة نيفًا وعشرين فرسخًا.

(٢) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٢٤١).

(٣) البداية والنهاية: (١٠/ ٣٣٢).

من كلمة أعرابيّ كلَّمني بها في رَحْبة طَوْق، قال: يا أحمد، إن يَقْتُلُكَ الحقُّ مُتَّ شَهِيدًا، وإن عشْت عشت حميدًا. فقوي قلبي.(١)

✍ **أيها القارئ الكريم:**

إن أردت بناء نفسك فاحرص علىٰ طلب الوصية من الصالحين، واعقلها إذا تُلِيَت عليك، اطلبها قبل سفرٍ إذا خشيت مما يقع فيه، واطلبها أثناء ابتلاء، أو قبل حدوث محنة متوقعة، واطلبها إذا عُيِّنت في منصب صغر أو كبر، أو ورثت مالًا وصرت ذا غنىٰ، واطلبها في الشدة والرخاء والعسر واليسر لتنبني نفسك، وينبني بها غيرك، والله ولي المؤمنين.

لنا جلساء ما تمل حديثهم ... ألباء مؤملون غيبًا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضىٰ ... وعقلًا وتأديبًا ورأيًا مسددا
بلا فتنة تخشىٰ ولا سوء عشرة ... ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا

من ثمرات مجالسة الصالحين:

أولًا: الإعانة علىٰ الطاعات والبعد عن المعاصي والذنوب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

ثانيًا: المسارعة إلىٰ الخيرات والتنافس في الطاعات، قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) تاريخ الإسلام: (١٨/ ٩٨).

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٦].

ثالثًا: بركة المجالسة، فإن من جالسهم تشمله بركة مجالستهم، ويعمه الخير الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغهم، كما دل علىٰ ذلك: ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ للهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ**» وفي آخر الحديث: «**فَيَقُولُ اللهُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**». (١)

✍ **يقول أبو الدرداء**: «لولا ثلاث، ما أحببت العيش في هذه الحياة الدنيا: ظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات من الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما ينتقىٰ أطايب التمر». (٢)

وكم من شخص اهتدىٰ، وأصبح من المحافظين علىٰ الصلاة، وترك مجالسة السوء، وتوجَّه إلىٰ الدعوة؟! كل ذلك: بفضل الله، ثم الرفقة الصالحة.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٩).

* عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**». (١)

✍ **قال الخطابي**: إنما جاء هذا في طعام الدعوة دون طعام الحاجة، وذلك أن الله سبحانه قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨] ومعلوم أن أسراهم كانوا كفارًا غير مؤمنين ولا أتقياء، وإنما حذر عليه السلام من صحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته، فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب. (٢)

علامة الجليس الصالح:

إن الجليس الصالح هو المستقيم علىٰ طاعة الله، المنفذ لأوامر الله، المحافظ علىٰ فرائض الله، الوقَّاف عند حدود الله، المتخلّق بالأخلاق الكريمة، والأعمال الفاضلة، برٌّ بالوالدين، صلة للأرحام، إحسان للجيران، كف الأذىٰ عن الناس، التواضع، وبذل المعروف، وصيانة اللسان عن القيل والقال، فيما لا خير فيه، وفيما لا يعود بالخير حاضرًا أو مستقبلًا.

هذا الجليس الصالح الذي إن عامل الناس عاملهم بالصدق والوفاء، أمينٌ فيما اؤتمن عليه، صادقٌ فيما حدث به، وفيٌّ فيما وعد به، أخلاقه كريمة، وأعماله طيبة، وصحيفته بيضاء، سيرة نبيلة، وخلقٌ كريم.

---

(١) ص: ٣٩٢ - ٣٩٣، برقم ٢٣٩٥.
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣/ ١٢٣).

التحذير من مصاحبة جلساء السوء:

كما أمرنا الله تعالىٰ بمجالسة الصالحين، فإنه يحذرنا من مصاحبة جلساء السوء لأنها حسرة وندامة يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ويحذرنا من صحبة من لا خير في صحبته فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

الآثار المترتبة على مجالسة أهل السوء، وهي كثيرة ومنها:

أولًا: أنه يصرف صاحبه وجليسه من الطاعة إلىٰ المعصية، ويزيِّن له عمل السوء؛ روىٰ البخاري ومسلم من حديث سعيد ابن المسيب عن أبيه قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَاللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ،

وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ، حَتَّىٰ قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»؛ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]. (١)

ثانيًا: أن غالب مجالس أهل الفسق لا يذكر الله تعالىٰ فيها، بل يُعصىٰ جلَّ وعلا، فتكون حسرة وندامة علىٰ أصحابها يوم القيامة. روىٰ الترمذي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً** (٢)**؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ**». (٣)

✍ **قال الشافعي:**

إذا لَـمْ أَجِـدْ خِـلًّا تَقِيًّـا فَوِحْـدتي ... أَلَـذُّ وأشـهىٰ مـن غَـوِيٍّ أُعَاشِـرُهُ

وَأَجْلِـسُ وَحْـدِي للعِبَـادَةِ آمِنًـا ... أَقَـرُّ لِعَيْنِـي مِـنْ جَلِـيسٍ أُحَـاذِرُه

ثالثًا: أن الجليس السوء يدعو جليسه إلىٰ مماثلته في الوقوع في

(١) صحيح البخاري: (٣٨٨٤)، وصحيح مسلم: (٢٤) واللفظ له.

(٢) أي حسرة وندامة.

(٣) ص: ٥٣٥ برقم ٣٣٨٠، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

المحرَّمات، ويخفِّف وقع المعصية في قلبه، ويهوِّن عليه التقصير في الطاعة، قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ودَّت الزانية لو زنىٰ النساء كلهن».

وجليس السوء(١) ينصرف عن صاحبه عند أدنىٰ خلاف أو فوات مصلحة، بل وتحصل البغضاء بعد ذلك، قال عبدالله بن المعتز: إخوان السوء ينصرفون عند النكبة، ويقبلون مع النعمة.

علامة الجليس السوء:

مضيّع لأوامر الله، معطِّل لفرائض الله، بعيد عن الطريق المستقيم، سيئ الأخلاق، عاق للآباء، قاطعٌ للرحم، مُؤذٍ للجار، سيئ الصحبة، ذو غيبة ونميمة، وطعن في الناس، وافتراء الكذب عليهم، إن حدثك لم يصدقك في حديثه، وإن وعدك لم يوف بوعده، وإن ركنت إليه لم تر إلا سرابًا.

إن علاقته بك علاقة مادية، وعلاقة مصلحية، متىٰ ما فقد ذلك منك ولَّاك ظهره، لا يسمع لك شكاية، ولا ينصحك في أي حاجة، إذا ضاقت بك الأحوال والظروف تخلىٰ عنك في أحرج حالة أنت كنت فيها، ذلك أنه لا خير فيه، خان الله في أمانته، فليس بالبعيد أن يخونك فيما ائتمنته عليه، هذا هو الجليس السيئ الذي لا خير فيه.

---

(١) راجع كلام صاحب «فتح المنعم» الذي أثبته في الهامش تعليقًا علىٰ هذا الحديث: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ: كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»**.

الخاتمة نسأل الله حسنها

أتيتُــك راجيًــا يَــا ذا الجــلالِ ... ففـرِّجْ مـا تَـرَىٰ مـن سُـوءِ حَـالي
عَصَـيْتُك سَـيِّدِي ويْلِـي بجَهْلـي ... وَعَيـبُ الـذنبِ لـم يخطُـرْ ببـالي
إلـىٰ مـن يَشْـتكِي المملـوكُ إلَّا ... إلـىٰ مَـوْلَاهُ يـا مَـوْلَىٰ المَـوَالي
لَعَمْـرِي ليـتَ أُمِّـي لَـم تلِـدْني ... ولـم أُغْضِـبْك في ظُلَـمِ اللَّيَـالي
فَهَـا أنـا عبـدُك العَاصـي فقيـرٌ ... إلـىٰ رُحْمـاكَ فاقبـلْ لـي سُـؤَالي
فـإنْ عاقَبْـتَ يـا ربِّـي تُعَاقِـبْ ... مُحقًّـا بالعـذابِ وبالنَّكَـال
وإن تَعْفُـو فعفْـوك قـد أَرَاني ... لِأفعـالي وأوزاري الثقـال

﴿ ◊ ﴾

الفهرس

الإهداء.....٧

المقدمة.....٨

عملي في هذا الكتاب: ١٢

بصيرة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ١٦

ومن هنا البداية: ١٧

الفاعلية المطلقة في هذا الكون لله ﷻ:........................ ١٨

لله الأمر جميعًا:........................ ٢٠

عنده خزائن كل شيء: ٢٢

كل شيء بأمره وإمداده:........................ ٢٥

ولا مثقال ذرة:........................ ٢٦

يدبر الأمور كلها: ٢٧

هذا هو ربك الحي القيوم: ٢٩

بصيرة في الإيمان والكفر..... ٣١

تناول الإيمان لجميع فروع الدين: ٣١

أثر الإيمان في الحياة: ٣٤

الكفر مدمر للشخصية الإنسانية:........................ ٣٦

نظرة القرآن لحياة الكافرين: ٣٦

كثرة جدال أهل الباطل دون حجة:........................ ٣٧

فتك أهل الباطل بأهل الحق عند انقطاع حجتهم: ٣٨
نماذج لمن انقطعت حجتهم فأرادوا البطش بحملة الحق: ٣٨
فعال الكافرين وأحوالهم مع أهل الحق: ٣٩

بصيرة في الإخلاص والرياء.....٤٢

معنىٰ الإخلاص: ٤٢
دعوة الإسلام إلىٰ الإخلاص: ٤٢
قبول الأعمال مرهون بالإخلاص: ٤٢
الإخلاص دليل كمال الإيمان: ٤٣
متىٰ يكون العمل خيرًا؟ ٤٥
قيمة الإخلاص: ٤٦
الاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يُكْسِبُ النجاح والظفر: ٤٨
الرياء ونية السوء: ٤٩
معنىٰ الرياء: ٥٠
الرياء صفة من صفات المنافقين: ٥١
الرياء نوع من الشرك المحبط للعمل: ٥٢
الإعجاب بثناء الناس لا ينافي الإخلاص: ٥٤
يجب الحذر من الرياء: ٥٥

بصيرة في الخير والشر.....٥٦

نماذج علىٰ التعامل بميزان الحب والكره وترك ميزان الخير والشر: ٥٧
في اختيار الزواج: ٥٧
بنو إسرائيل وتعاملهم بميزان الحب والكره، وليس الخير والشر: ٥٨
واقع الناس يؤكد التعامل بميزان الحب والكره، وليس الخير والشر: ... ٥٩
نوح عليه السلام يتعامل بميزان الحب والكره فيعظه الله تعالىٰ: ٥٩
حال الناس عند ميلاد الأنثىٰ: ٦٠

النتيجة المترتبة علىٰ اختلال الميزان: ٦١

بصيرة في القدر ٦٣

النوع الأول: قضاء يستوجب الصبر: ٦٣
النوع الثاني: قضاء يستوجب المعالجة: ٦٤
النوع الثالث: قضاء أنت فيه حرٌّ، وفي حدود الحرية محاسب: ٦٦
من آثار الإيمان بالقدر: ٦٧
البحث عن القدر الذي أخفاه الله عنَّا سبب للخذلان: ٧٠

بصيرة في الهداية والضلال ٧٣

الهداية بمعنىٰ تيسير المعاش لجميع المخلوقات: ٧٣
الإنسان جسد وروح: ٧٤
من اهتم بالجسد فقط قلّل من نفسه: ٧٤
هداية الله في الجانب الروحي أقوىٰ وأبرز من الجانب المادي: ٧٤
أسباب الحصول علىٰ الهداية: ٧٥
الأسباب المانعة من الحصول علىٰ الهداية: ٧٦
كيف يصل الإنسان إلىٰ الهداية: ٧٧
من يترك هدىٰ الله يتركه الله وما اختاره : ٧٩
الحذر ممن يَصُدُّ عن طريق الهداية: ٨٠
١- الشيطان: ٨٠
٢- قرناء السوء ودعاة الشرّ: ٨١
٣- مناهج الضلال التي تنأىٰ بأصحابها عن منهج القرآن الكريم: ٨١
تهديد من يتبع غير هدىٰ الله: ٨١
سنّة الله في المُعْرِض عن هداه ودليلها: ٨٢
من يعرض عن هدىٰ الله يقيّض له شيطانًا: ٨٤
الهداية سبيل السعادة الوحيد: ٨٥

بصيرة في بيان مكانة العقل..... ٨٧
فضل العقل في الإسلام: ٨٧
العقل من أعظم النعم التي أكرمنا الله بها: ٩١
حكمة الله أن يكون الطفل الوليد بلا عقل اكتسابي: ٩٢
العقل الذي تجرد عن الهوىٰ يستطيع القيام بمهمته: ٩٣
قصة: ٩٣
أين موقع العقل؟ ٩٤
أول معصية سببها تحكيم العقل: ٩٦
مناظرة بين العقل والنقل: ٩٧
بصيرة في العقل والجنون..... ٩٨
أهم وظيفة للعقل: ٩٩
من عطّلوا العقل عن مهمته: ١٠١
الدلالة الحقيقية للعقل والجنون: ١٠٢
عقوبة من عطَّلوا عقولهم عن وظيفتها: ١٠٣
بصيرة في التفكير والتقليد..... ١٠٥
الحضارة التي تنعم بها البشرية نتاج عقل ذكي ملهم: ١٠٥
الإسلام يريد للعقل أن ينهض: ١٠٦
عاقبة من يجحدون نعمة العقل: ١٠٧
التقليد حجاب التفكير: ١٠٨
ميادين التفكير: ١١٠
دعوة القرآن إلىٰ النظر والتفكير في رحاب الكون الفسيح: ١١١
دعوة القرآن إلىٰ النظر في الجماعة البشرية: ١١٣
دعوة القرآن إلىٰ النظر في الإنسان نفسه: ١١٣
وجوب التفكير في الآيات المتلوة: ١١٤

وجوب الاجتهاد فيما لا نص فيه: ١١٤
نتيجة الدعوة إلىٰ التفكير: ١١٥
بصيرة في خطر العُجْب ١١٦
توضيح لمعنىٰ الشرك المراد هنا: ١١٧
الشرك الجلي: ١١٧
الشرك الخفي: ١١٧
أمثلة من الواقع: ١٢٠
حقيقة العُجب: ١٢١
حمد النفس: ١٢٢
الداء الخبيث: ١٢٣
اللحظات العابرة: ١٢٥
بصيرة في بيان ضعف الإنسان ١٢٦
فمن الرسائل الإلهية التي تكشف ضعف الإنسان أمام نفسه: ١٢٧
١- أنه عاجز، لا يستطيع جلب النفع لنفسه، أو دفع الضر عنها: ١٢٧
٢- من الرسائل أنه جاهل: ١٢٨
٣- من الرسائل أنه فقير محتاج: ١٢٩
الرسائل الإلهية: ١٣١
العجز والفقر الذاتي: ١٣٢
بصيرة في الأنانية ١٣٤
خطر تمكن الأنانية من النفس: ١٣٥
أحوال من تحكمت فيهم الأنانية: ١٣٥
أولا: الصنف الأناني الحيواني: ١٣٥
ثانيًا: الصنف الأناني الشيطاني: ١٣٦
حال المجتمع الذي تنتشر فيه الأنانية: ١٣٩

الإيمان ينتصر علىٰ الأنانية: ١٤١
نصيحة: ١٤٣

بصيرة في العزم..... ١٤٥

ما هو العزم؟ ١٤٦
أولو العزم: ١٤٨
عزم الأمور: ١٤٩
البداية من العبد: ١٥٠
عزيمة امرأة: ١٥١
إن تصدق الله يَصدُقُك: ١٥٢
أصدق الله فيه: ١٥٣
الخليفة الخامس: ١٥٣
قصة الطالب والمسألتين: ١٥٥

بصيرة في النور والظلمة..... ١٥٧

أقسام النور الذي يمدنا الله به نوعان: ١٥٧
أولًا: النور المادي: ١٥٧
ثانيا: النور المعنوي: ١٥٨
أسباب الحصول علىٰ النور المعنوي: ١٥٩
آثار النور علىٰ من وهبهم الله إياه: ١٦١
موانع الوصول إلىٰ النور: ١٦٢
أهمية النور في حياة المسلم: ١٦٣

بصيرة في إعداد النفس وبناء الذات..... ١٦٥

نهج القرآن في إعداد النفس الإنسانية: ١٦٥
أولًا بناء الذات: ١٦٥
ثانيًا التركيز علىٰ المثل الأعلىٰ: ١٦٧

كيف تتم السعادة: ١٧٢
الحب وحده لا يكفي: ١٧٣
في مجال التطبيق: ١٧٣
١-قصة عَبْدِ اللهِ بْن عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْـنِ سَـلُولٍ الـذي طلـب أن يقتـل والـده لـو أمره الرسول ﷺ بذلك: ١٧٤
٢-المرأة التي تصدقت بالإسورتين لمَّا سمعت الوعيد علىٰ عدم الزكاة ١٧٤
٣-المرأة التي كانت تصرع، وطلبت الستر مع الصبر: ١٧٤
كلام دقيق لمعن بن عدي: ١٧٥
بصيرة في معرفة الوطن ١٧٦
العاقل هو الذي يذكّر نفسه بجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ: ١٧٧

بصيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ١٨٣

الواجب علىٰ من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٨٥
ولتغيير المنكر ثلاث درجات: ١٨٦
والإنكار بالقلب يكون كالتالي: ١٨٦
وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة أحوال: ١٨٦
والمنافع التي يجب علىٰ المسلم بذلها نوعان: ١٨٧
والإصلاح درجات تبدأ: ١٨٨
وإنكار المنكر له أربع حالات: ١٨٨

بصيرة في ميزان الكرامة عند الله وعند الناس..... ١٩١

الميزان عند الله بالقلب وليس بالظاهر: ١٩٢
سِمَاتُ أهلِ الكرامة عند الله تعالىٰ: ١٩٣
طلاب الآخرة يعرفون حقيقة ميزان الكرامة: ١٩٥
بيان الحقيقة في الموازين التي يزن بها الناس: ١٩٥
١- ميزان المال والأولاد: ١٩٥

المال والبنون لا تخلد أصحابها في الدنيا: ١٩٩
الأموال والأولاد لا تقرب أصحابها إلىٰ الله زلفىٰ: ١٩٩
٢- ميزان الثياب:.. ٢٠٠
موقف للإمام الشافعي: ٢٠٢
٣- ميزان ضخامة البدن: ٢٠٢
٤- ميزان الحسب والنسب:...................................... ٢٠٤
٥- ميزان الملك والسلطان:...................................... ٢٠٦
قصة تبين الفارق في ميزان الكرامة عند الله تعالىٰ: ٢٠٨

بصيرة في الرزق..... ٢١٢

حديث القرآن عن الرزق:... ٢١٢
القرآن يربط بين قضية الخلق وقضية الرزق: ٢١٣
الرازق هو الله وحده: ٢١٣
النهي عن الخوف علىٰ الرزق فهو بيد الله سبحانه: ٢١٤
الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر: ٢١٥
علينا الطاعة وعلىٰ الله سبحانه الرزق:................................ ٢١٦
بسط الرزق ربما يكون سببًا في البغي: ٢١٦
لا تحزنْ علىٰ تأخُّر الرِّزقِ، فإنَّه بأجلٍ مسمّىً: ٢١٦
سورة الذاريات والرزق الإلهي: ٢١٧
الرزق في ظلال السنة:... ٢٢٠
المعاصي وحرمان الرزق: ٢٢٢
مواقف الثقة بالله في أمر الرزق:................................... ٢٢٣
أبو بكر الصديق:.. ٢٢٣
قصة حاتم الأصم وابنته:....................................... ٢٢٤

بصيرة في الأجـل..... ٢٢٧

إذا حضر الأجل فلا رجعة للدنيا: ٢٢٨
الموت لا يأتي إلا بعد استيفاء الأجل: ٢٢٩
الفرق بين المؤمن والكافر في مسألة الأجل:........................ ٢٢٩
١-الخليل إبراهيم عليه السلام:.. ٢٣١
٢- بُنَانُ الحَمَّال: ٢٣٢
٣-سعيد بن جبير:... ٢٣٣
٤-حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ:.. ٢٣٤
علي بن أبي الطيب وابن سبكتكين: ٢٣٧
موقف أبي عقيل الأنصاري يوم اليمامة: ٢٣٧
الأولىٰ: مرور الأيام معناه دنو الأجل:........................ ٢٣٩
الثانية: المبادرة قبل حلول الأجل: ٢٤٠
مثال يوضح المقال: ٢٤٠

بصيرة في تـأمين مستقبل الأولاد..... ٢٤٣

١- التقوىٰ:.. ٢٤٣
موقف عمر بن عبدالعزيز عند موته: ٢٤٤
٢- القول السديد:... ٢٤٧

بصيرة في افتقارنا إلى الله تعالى..... ٢٥٠

تجلية القرآن لحقيقة افتقارنا إلىٰ الله في وجودنا:.................. ٢٥٠
افتقارنا إلىٰ الله في بقائنا:.. ٢٥٢
تجلية القرآن لحقيقة افتقارنا إلىٰ الله في بقائنا: ٢٥٢
افتقارنا إلىٰ الله في إسلامنا وهدايتنا: ٢٥٣
استحقاق الله للحمد علىٰ نعمة الهداية: ٢٥٣
كثرة أهل الضلال وقلة أهل الهدىٰ:............................. ٢٥٤

افتقارنا إلىٰ الله في رزقنا: ٢٥٥
دأب الرسل في الافتقار إلىٰ الله: ٢٥٧

بصيرة في الأخذ بالأسباب..... ٢٥٩

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل: ٢٦١
العمل بالأسباب من دين الإسلام: ٢٦١
وجوب التوكل علىٰ الله مع وجوب الأخذ بالأسباب: ٢٦٢
السنة النبوية ترشد إلىٰ الأخذ بالأسباب: ٢٦٤
القيام بالأسباب يحقق التوكل: ٢٦٤
إبراهيم عليه السلام والتفاته إلىٰ مسبب الأسباب: ٢٦٦
التوكل لا يكون إلا مع اتخاذ الاسباب الظاهرة: ٢٦٨
سيد المتوكلين يأخذ بمقتضىٰ الأسباب في الهجرة: ٢٦٨
موسىٰ عليه السلام والأخذ بالأسباب: ٢٧٠
السيدة هاجر والأخذ بالأسباب: ٢٧٠
مريم العذراء يأمرها ربها بفعل السبب: ٢٧٢
نبي الله أيوب والأخذ بالأسباب: ٢٧٣
وانظر إلىٰ هؤلاء العلماء واستغنائهم عن الناس: ٢٧٥
١- من مد رجله لا يمد يده: ٢٧٥
٢- ما سألت الذي يملكها أأسألك أنت؟ ٢٧٦

بصيرة في البصر والعمى..... ٢٧٧

سمىٰ الله العين حبيبة: ٢٧٧
النظر إلىٰ نعم الله: ٢٧٨
حديث القرآن عن البصر يراد به البصيرة: ٢٧٩
القرآن لا يعد العمىٰ الماديّ عيبًا: ٢٨٠
العمىٰ الحقيقي في غفلة القلب: ٢٨١

جزاء العميان في الآخرة: ٢٨١
عمىٰ القلب لا يعوضه شيء: ٢٨٢
بصيرة في الربح والخسارة..... ٢٨٣
الإنسان مجبول علىٰ حب الربح: ٢٨٣
الفشل وارد رغم الحرص: ٢٨٣
المشاريع الحقيقية: ٢٨٣
حديث القرآن عن التجارة الرابحة: ٢٨٤
فقه الصحابة لمعنىٰ التجارة الرابحة: ٢٨٥
١- موقف الصحابة في بيعة العقبة: ٢٨٥
٢- موقف صهيب الرومي: ٢٨٦
٣- فقه عثمان لمعنىٰ التجارة الرابحة: ٢٨٧
حديث القرآن عن التجارة الخاسرة: ٢٨٨
استنتاجات من المقابلة بين الربح والخسارة: ٢٨٩
بصيرة في السمع والصمم..... ٢٩٠
السمع قبل البصر: ٢٩٠
حاسة السمع تعمل في حالة اليقظة والنوم: ٢٩٠
السمع يعمل في جميع الاتجاهات: ٢٩٠
الأصم معزول عن العالم: ٢٩١
بيان القرآن للحكمة من السمع: ٢٩١
توجيه القرآن للإصغاء للحق: ٢٩٢
السماع علىٰ ثلاثة أنواع: ٢٩٢
النوع الأول: سماع الإدراك: ٢٩٢
النوع الثاني: سماع الفهم: ٢٩٢
النوع الثالث: سماع القبول والإجابة: ٢٩٢

ثناء ربِّنا علىٰ من وظف سمعه لطاعة الله: ٢٩٥
الأحكام المرتبطة بالسمع في الشريعة: ٢٩٥
التحذير من الاعراض بعد السماع: ٢٩٨
حال من وقف عند الأشياء المادية: ٢٩٨

بصيرة في الشقاوة والسعادة..... ٣٠١

حديث القرآن عن الشقاوة والسعادة: ٣٠١
حديث السنة عن الشقاوة والسعادة: ٣٠٢
كيف نحصل علىٰ السعادة؟ ٣٠٤
علم الله بمآل المرء إلىٰ شقي أو سعيد هو علم سابق لا سائق: ٣٠٧
مثال توضيحي: ٣٠٨
تبرؤ الأصحاب والأحباب من المرء يوم القيامة: ٣١٠
معاقبة الله للعصاة علىٰ ما قدر عليهم لا يتعارض مع عدله: ٣١٣
والد شقي وولد سعيد: عكرمة بن أبي جهل: ٣١٣

بصيرة في تعب السعداء وتعب الأشقياء..... ٣١٦

التعب من ضرورات الحياة: ٣١٦
أهم الفروق بين تعب السعداء وتعب الأشقياء: ٣١٩
والآن نذكر عدّة فوارق بين تعب وتعب: ٣٢٠
١- الفرق الأول: تعب السعداء في طاعة الله، والأشقياء في معصيته: .. ٣٢٠
٢- الفرق الثاني: تعب السعداء يصحبه لذة وسرور، بخلاف الأشقياء: ٣٢٣
٣- الفرق الثالث: تعب السعداء مؤقت ينتهي بالموت، بخلاف الأشقياء: ٣٢٤
٤- الفرق الرابع: السعيد يجد من توفيق الله ما ينسيه هذا التعب، بخلاف الشقي: ٣٢٦
قصة ابن تيمية مع قازان التتري: ٣٢٨

الحسن البصري والشعبي مع ابن هبيرة: ٣٣٠

بصيرة في العمل..... ٣٣٢

تلازم الإيمان مع العمل في القرآن: ٣٣٢
الإيمان الخالي عن العمل دعوىٰ فارغة: ٣٣٣
أهل العمل الصالح هم أفضل الناس: ٣٣٤
تعليق الجزاء في الدنيا علىٰ العمل: ٣٣٤
السؤال يوم القيامة عن العمل: ٣٣٥
الثواب الأخروي علىٰ العمل: ٣٣٦
العقاب الأخروي علىٰ العمل: ٣٣٦
حسرة الكافرين علىٰ العمل الصالح بعد فوات الأوان: ٣٣٧
التفكر في آيات الله لا بد أن يثمر العمل: ٣٣٧
الخوف من الله يقود إلىٰ العمل: ٣٣٩
مقت القول من غير عمل: ٣٤٠

بصيرة في الاصطفاء والاختيار..... ٣٤١

اصطفاء الله لموسىٰ عليه السلام: ٣٤٢
١- التربية البدنية: ٣٤٢
٢- التربية الأخلاقية: ٣٤٣
٣- التربية الإيمانية: ٣٤٤
اصطفاء الله لعرشه المجيد: ٣٤٦
اختيار الله لقلب الإنسان ليكون محلًا لنظره: ٣٤٦
لفتة: ٣٤٦
اختيار الله هذه الأمة: ٣٤٧
اصطفاء الله آل إبراهيم علىٰ سائر البيوت: ٣٤٧
ومن بركات الله تبارك وتعالىٰ عليهم: ٣٤٩

اصطفاء الله لمحمد ﷺ ولأمته: ٣٥٠
اختيار الله للبلد الحرام: ٣٥١
اصطفاء الله لبعض الأيام والليالي والشهور: ٣٥٢
اختيار الله من كل جنس أطيبه: ٣٥٢

بصيرة في الصحة والمرض..... ٣٥٤

قليل من الناس من يعرف قيمة الصحة والوقت: ٣٥٤
عظم نعمة الصحة: ٣٥٤
الصحة وسيلة يستعان بها علىٰ طاعة الله: ٣٥٤
أصناف البشر مع الصحة: ٣٥٦
الصنف الأول: ٣٥٦
الصنف الثاني: ٣٥٦
الصنف الثالث: ٣٥٨
القلب محل نظر الله وليس الجسد: ٣٥٩
مرض الجسم لا يحول دون الرُّقي إلىٰ أعلىٰ الدرجات: ٣٦٠

بصيرة في الغنى والفقر..... ٣٦١

أهمية المال: ٣٦١
احتفاء الإسلام بالمال: ٣٦١
حال الصحابة مع المال: ٣٦٣
من رزقه الله المال وشَكر فقد وُفِّق للخير: ٣٦٣
ترغيب الإسلام في التجارة مع الله: ٣٦٤
المال نقمة لو استخدم في معصية الله: ٣٦٤
المال ليس مقياس الغنىٰ والفقر: ٣٦٥
جهل من ارتكن علىٰ ماله: ٣٦٨
تاسعًا: ما هو الغنىٰ الحقيقي: ٣٦٩

بصيرة في القوة والضعف..... ٣٧١

حياة الإنسان تبدأ ضعيفة:.. ٣٧١
تذكير الله لنا بضعفنا وكيف مدنا بالقوة:........................ ٣٧١
تعليم السنة لنا أن نطلب من الله حفظ قوتنا:.................. ٣٧١
القوة يجب أن لا تستخدم في الظلم:............................. ٣٧٢
مواجهة من استخدم قوته في الظلم:.............................. ٣٧٣
الضعيف هو من لم يكبح جباح نفسه:............................ ٣٧٣
القوي هو من يملك زمام نفسه:.................................. ٣٧٤
القوة الحقيقية هي الإيمان بالله:................................. ٣٧٤
نماذج من القرآن علىٰ أصحاب القوة الحقيقية:.................. ٣٧٥
١- سحرة فرعون:.. ٣٧٥
٢- قصة أصحاب النبي ﷺ الثابتين رغم الجراحات:............ ٣٧٦
فيصل التفرقة بين الأقوياء والضعفاء:............................ ٣٧٦
قوة أبي بكر في الحق:.. ٣٧٦
قدم ابن مسعود أثقل من جبل أحد في الميزان:................. ٣٧٧
خيرية الإنسان في إيمانه بربه:.................................. ٣٧٨

بصيرة في الكلام والبكم..... ٣٧٩

بيان القرآن لامتنان الله وتفضله علينا بالأعضاء:.............. ٣٨٠
قدرة الله علىٰ إنطاق من شاء وإبكام من شاء:................... ٣٨١
إنطاق الله للجوارح:.. ٣٨٦
ضرورة استثمار نعمة الكلام في الخير:.......................... ٣٨٦
التحذير من توظيف الكلام في الباطل:........................... ٣٨٧
توجيه السنة لاعتناء المسلم بكلماته:.............................. ٣٨٧
من لا يلتزم بمنهج الله أبكم:..................................... ٣٨٨

بصيرة في اللباس والعري..... ٣٩٠
ما يعين علىٰ الستر من نعم الله:.. ٣٩٠
حديث القرآن عن منة اللباس والريش: ٣٩٠
ترغيب الإسلام في ارتداء الجميل من الثياب:....................... ٣٩١
من آثروا كفران نعمة الله في اللباس: ٣٩٢
ضوابط اختيار الإنسان لملابسه:................................ ٣٩٣
لباس التقوىٰ يستر عيوب النفس: ٣٩٤
قدر المسلم بتقواه وليس بثيابه: ٣٩٥
قصة للشافعي تبين أن الناس يُخدعون بالظواهر والثياب: ٣٩٦
بصيرة في مجالسة الصالحين..... ٣٩٨
الحث علىٰ مجالسة الصالحين:................................. ٣٩٩
السلف وحرصهم علىٰ مجالسة الصالحين:......................... ٤٠٢
طلب الوصية من الصالحين: ٤٠٣
من ثمرات مجالسة الصالحين: ٤٠٦
علامة الجليس الصالح: ٤٠٨
التحذير من مصاحبة جلساء السوء:............................. ٤٠٩
الآثار المترتبة علىٰ مجالسة أهل السوء، وهي كثيرة ومنها: ٤٠٩
علامة الجليس السوء: ٤١١
الخاتمة نسأل الله حسنها.....٤١٢
الفهرس ٤١٣